سوسير
رائد علم اللغة الحديث

الدكتور/ محمد حسن عبد العزيز
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفجر العربية
١١ ش جواد حسني - القاهرة
ص.ب ١٣٠ البريد الرئيسي ١١٥١١
٣٩٢٠٥٦١ - ٣٩٢٠٥١٣

سوسير
رائد علم اللغة الحديث

الدكتور/ محمد حسن عبد العزيز
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ ش جواد حسني - القاهرة
ص ب ١٣٠ الرمز البريدي ١١٥١١
ت: ٣٩٢٥٥٢٣ - ٣٩٢٠٩٥٦

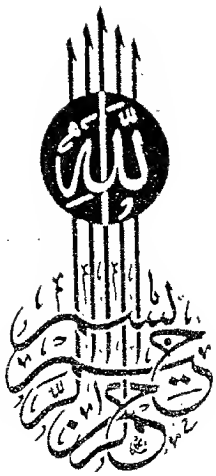

المقـــــدمة

علم اللغه Linguistics علم حديث النشأة حقاً ، تحدد موضوعه بما قاله (سوسير) عنه في محاضراته الشهيرة من أنه يدرس اللغة في ذاتها ولذاتها ، وتأصلت كثير من أسسه وأساليبه بما أعلنه (سوسير) أيضاً من مفاهيم : كالتفرقة بين اللغة والكلام وبين النظرة الوصفية والتاريخية .. الخ فليس غريباً إذاً ان يقال عنه إنه مؤسس علم اللغة الحديث .

ولكن هذا العلم - مع حداثته - ملأ دنيا وشغل الناس . فبعد نشر محاضرات "سوسير" بدأت المدارس اللغوية تنطلق من هذه البداية وتتوزع توزعاً مثيراً ، ومن ثم اختلفت مناهجها وأساليبها - ولكنها مع هذا - لم تخرج عن أصوله خروجاً ، ومن ثم عدها المؤرخون امتداداً لفكر (سوسير) ونموا لها . وقد عاصر هذه الحركة اللغوية في أوروبا حركة أخرى اشتركت معها في بعض الاصول ، وإن اختلفت عنها في مصدرها وفي هدفها هي حركة اللغويين الوصفيين في أمريكا ، والتي قام بها (بواز) و (سابير) .

وقد أطلق المؤرخون على هاتين الحركتين مصطلح البنيوية Structuralism بالمفهوم الواسع للمصطلح ، من حيث إنهما يدرسان بنية اللغة ، وبهذا المفهوم الواسع يعد اللغويون أنفسهم - مع اختلافهم - بنيويين - أما إذا أريد بالمصطلح المفهوم الضيق فينبغي النص على المدرسة أو اللغوي فيقال مثلا البنيوية الامريكية أو بنيوية بلومفيلد مثلاً ، ويقتصر هذا البحث على بنيوية (سوسير) وما تفرع عنها من مدارس أوربية .

وقد استمر هذا الاتجاه البنيوى اللغوى سائراً فى طريقه حتى يومنا هذا ، وإن وازاه اتجاه آخر ظهر فى مطلع الستينات وانتشرت أعلامه فيما بعدها هو اتجاه (تشومسكى) أو ما يعرف بالنحو التحويلى التوليدى . وثمة اتجاهات لغوية أخرى أقل انتشاراً أو يمكن نسبتها - على نحو من الأنحاء - الى اتجاه من هذين الاتجاهين .

وقد كان تعدد الاتجاهات واختلاف المناهج والوسائل تعدداً محموداً واختلافاً متوقعاً غير منكور - وإن كان على حساب الاستقرار المطلوب الذى يمكن الناظر من الرؤية الصحيحة لهذا العلم .

وقد تجاوزت المبادىء والمفاهيم التى جاء بها (سوسير) وتلامذته المجال اللغوى الذى ظهرت فيه أولاً ، فانتشرت بين الأدباء وعلماء الأنثروبولوچيا وعلماء النفس بل الفلاسفة ، وقد أصبحت البنيوية وهى عَلَمُ تلك المبادىء والمفاهيم - كما يقول أحد الفلاسفة : سيدة العلم والفلاسفة بلا منازع ابتداء من الستينات ، وربما فى المستقبل القريب أو البعيد أيضاً . انظر : إبراهيم (زكريا) : مشكلة البنية ص ٧) . وقد كان فى ذلك بعض الخير بلا ريب ، فقد اختبرت هذه المبادىء والمفاهيم بتطبيقها فى هذه المجالات العلمية الجديدة لاسيما ما يتصل منها باللغة على نحو من الأنحاء ، ومن ثم فسرت تفسيرات جديدة ، وأضيف إليها او استبعد منها ، وبُنِىَ عليها او اعترض . بيد أنها أصبحت - على الرغم من أنها مفهوم علمى وفلسفى أساساً - صرعة من الصرعات أو بدعة من البدع التى يتحمس لها كل الناس ويتغنى بها كل أحد . وقد تعرضت - بسبب ذلك - لسوء الفهم والقصد ، وأصابها كثير من الأذى ، وبهذا نال منها خصومها ومنه اعترض عليها . بيد أن هذا الجانب لا يعنينا كثيراً ، فلا يؤخذ العالم بجرم السفيه ، ولا يؤخذ المرسل بسوء فهم المتلقى .

ومع ذلك فان بعض الباحثين المتخصصين قد أشاح بقلمه عن وجه الصواب ، وهذا أحد النقاد الانجليز - مع اعترافه بأن الفكر الأدبى الغربى قد عاش منذ الستينات إلى اليوم عالة على اتجاهين لغويين هما البنيوية والتوليدية - يتهم بنيوية (سوسير) خاصة بأنها ترفض الدراسة التاريخية ، وأنها تدعو إلى نبذ القواعد وإلى أنها اهملت لغة الادب (انظر: طوسون (چورچ) الفكر الأدبى المعاصر ص ٢٢ ، ١٣٢ ، ١٣٤ - ١٣٧ ، ١٤٢) .

وسيتكفل هذا البحث بتوضيح نظرية (سوسير) فى اللغة وفى علومها ، وسنعتمد فى ذلك على ماذكره (سوسير) نفسه فى محاضراته ـ مع مافيها من تعقيد وغموض شديدين ، وقد رأينا أن هذا أدعى للدقة وأدنى إلى الإنصاف . أما ما يتصل بالجانب الأدبى للقضايا التى انتقدها (طوسون) أو غيره فسوف نحيل الأمر إلى أهله أو دائرته ، فليست البنيوية السوسيرية مثلاً مسئولة عن إهمال الأدباء والنقاد لتاريخ الأدب بدعوى أنها ترفض الدراسة التاريخية ، لقد فهمت القضية على غير وجهها ، لقد كان (سوسير) حريصاً على التفرقة بين محور الدراسة الآنية ومحور الدراسة التاريخية ، وقرر ـ وهذه نقطة منهجية ـ أنه من المستبعد تماماً دراسة العلاقات عبر الزمن والعلاقات فى إطار النظام الآنى فى وقت واحد . ومع ذلك فقد تردد غير مرة أن كل محور منهما لايستبعد الآخر ، وبهذا فهم كان من الضرورى لأية دراسة تاريخية أن تعتمد على دراسة وصفية لكل مرحلة من مراحل الدراسة .

ولا يعنى هذا أننا سنجعل هذا البحث للدفاع عن (سوسير) وبنيويته ، فما قصدنا إلى هذا أصلاً ، وإن كان اهتمام الأدباء والفلاسفة وغيرهم بالقضايا اللغوية ونظراتهم الخاصة فيها مما أغرانا به . فهو أشبه بمدخل ضرورى لطالب اللغة والأدب أو غير ذلك من العلوم التى أرادت إلى وصل نفسها باللغة ، هى إذاً فرصة لدراسة القضية وتوضيح مسائلها وتصحيح أصولها .

بدأت البحث بكلمة موجزة عن حياة (سوسير) وعن أعماله ثم قسمته إلى ثلاثة أقسام أو فصول جعلت القسم الاول منها للحديث عن نظرية (سوسير) وقد تمثل هذا تماماً فى أمرين : فى تعريفه علم اللغة وفى تحديده لموضوعة ، وفى تعريفه اللغة وما يتصل بهذا التعريف من مفاهيم أساسية كالحديث عن : اللغة والكلام ، والعلامة اللغوية ، والنظرة الوصفية والتاريخية ، وقد كان الحديث عن هذه النظرة مدعاة إلى تفصيل القول فى موضوع التغير اللغوى ومستوياته وأسبابه ، ثم كان الحديث عن السيميولوجيا أو (علم العلامات) خاتمة القول فى هذا القسم .

وبعد أن استبانت أصول نظريته اللغوية ـ فيما أعتقد ـ جعلت القسم الثانى للحديث عن نظريته فى المحيط الفكرى التى ظهرت فيه ، وقد اقتضى هذا أن نرجع قليلاً إلى القرن السابع

عشر والثامن عشر، وإن انصب اهتمامنا على النصف الاخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وقد كان ذلك ضرورياً لفهم النظرية فلم يكن (سوسير) بعيداً عن أعمال (دوركايم) و(فرويد) معاصريه العظيمين .

ثم يجيء القسم الثالث ليضع (سوسير) فى موضعه من حيث هو مفكر إنسانى ومن حيث هو مفكر لغوى .

لقد أوضح البحث الدور الذى اضطلع به (سوسير) فى الفكر الإنسانى ، وهو دور يعدل فيما يرى مؤرخ وفيلسوف كبير دور (جاليليو) فى تطوير العلوم . وقد أوضحت الحجج التى احتج بها لذلك . وقد وقفت طويلاً عند دوره فى تأسيس علم اللغة ، وفى تحديد مفاهيمه ومناهج البحث فيه ، وقدمت صورة موجزة للمدارس اللغوية وللاتجاهات التى انطلقت من نظريته . وبينت كيف طورت هذه المدارس أفكاره والى أى حد تقترب منها أو تبتعد، وعُنيت عناية خاصة بما أبداه نقاده من اعتراضات وبما كشفوا عنه من قصور لاسيما نظرته إلى الجملة وعدها جزءاً من الكلام لامن اللغة ، وما انبنى على ذلك من إهماله للدراسة النحوية .

وقد أنهيت البحث بقائمة شملت المصطلحات التى وردت بالنصوص المنسوبة إلى (سوسير) مقارنة بنظائرها عند الذين ترجموا محاضراته إلى العربية مؤخراً ، وقد أعقب ذلك مناقشة موسعة لبعض مشكلات المصطلح اللغوى عند اللغويين العرب .

وبعد ، فإن كنت بلغت مما قصدت شيئاً فالله أحمد ، وإن كنت قصرت فليست الأولى ، وحسبى أن حاولت ، ولم أدخر فى ذلك وقتاً أو جهداً .

وفى النهاية أشكر لجامعة الملك عبد العزيز مساعدتها فى إنجاز هذا البحث .

د. محمد حسن عبد العزيز

الدقى فى محرم ١٤١٠ هـ

أغسطس ١٩٨٩ م

القسم الأول

نظرية سوسير اللغوية

التمهـــــيد : أ ـ حياة ســـوســـــــــير ..

ب ـ أعمال ســـوســـــــــير ..

نظرية ســـوســـــير ..

أولاً :التعـــريف بعلـــم اللـغة ..

ثانياً : التعريف بنظريته فى اللغة ..

ـ اللـــــغة والكـــــــــلام ..

ـ العـــــــــلامة اللغـــوية ..

ـ النظـرة الوصـفية والتاريخـــية

ـ التغـــ ـــير اللغـــــــوى

ـ الســـيميولوچيا (علم العلامات)

التمهـــــيد

أ ـ حياة سوســـــــــير

ليس فى حياة (فرديناند دى سوسير Ferdinand De Saussure) تلك الأحداث الحافلة واللحظات الحاسمة والتحولات المفاجئة التى قد نجدها فى حياة المشهورين والتى ربما تستهوى طلاب السيرة . ويبدو أن الرجل ماكان ـ بفضل نشأته ـ ليرضى بغير هذه الحياة الهادئة المستقرة . ولم يعرف العجب بعمله طريقه إلى نفسه ، بل قل إنه لم يكن راضياً عما فعل، وكان يفكر دائماً فى عمل عظيم حالت دونه وفاته ، ومع ذلك فقد عرف عنه شجاعة الرأى وصلابة الموقف . وقد أولع به تلامذته ويحمد لهم أنهم جندوا أنفسهم وبذلوا أقصى وسعهم فى نشر عمله الأساسى ، الذى خرج إلى الناس بعنوان (محاضـــرات فـى علـم اللـــغة العـــــام Course in General Linguistics) بعد وفاته بثلاثة أعوام .

ولد (سوسير) فى جنيف عام ١٨٥٧ بعد ولادة (فرويد) بعام وقبل ولادة (دوركايم) بعام . كان ابناً لعالم بارز من علماء التاريخ الطبيعى من عائلة كان لها دور قوى فى تأسيس العلوم الطبيعية . ولقد رشحه للدراسات اللغوية ـ فى بداية حياته ـ فقيه لغوى كان صديقاً لأسرته هو (أدولف بيكتيه Adolph Pictet) .

وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره كان قد أتم تعلم اليونانية فضلاً عن الفرنسية والألمانية والانجليزية واللاتينية . وفى هذه السن الباكرة حاول أن يضع مخططاً لنظام عام

للغة". لقد رأى أن فى اللغات كلها أصلاً مشتركاً قوامه صامتان رئيسيان أو ثلاثة ، وقد كتب فى ذلك (مقالاً فى اللغات) دفعه الى (بيكتيه) .

وفى عام ١٨٧٥ التحق (سوسير) بجامعة چنيف ، وانصياعاً لتقاليد أسرته التحق بها طالباً فى الطبيعة والكيمياء ، وقد كان - مع ذلك - مثابراً على حضور محاضرات النحو اليونانى واللاتينى . وقد هدته تجربته الى أن مجال اهتمامه الحق فى دراسة اللغة ، ولم يكن ذلك لأنه التحق بجمعية لغوية من الباحثين اللغويين فحسب ، بل لأنه قد أدرك أيضاً أن عامه الأول بچنيف قد مضى ولم يستفد فى أثنائه شيئاً يرضيه ، ولهذا أغرى والديه بأن يرسلاه إلى جامعة (ليبزج) ليدرس اللغات الهندية - الأوربية .

وقد كان اختياره (ليبزج) اختياراً موفقاً ، كانت آنذاك مركزاً لمدرسة من اللغويين التاريخيين الشبان عرفت بالنحويين الجدد . وفى (ليبزج) كان (سوسير) - ولأول مرة - قادراً على مجاراة أعظم اللغويين المبدعين فى عصره ، وقد قوى شعوره بذاته - ولاشك - حين اكتشف أحد أساتذته وهو (بروجمان Brugmann) ماعرف بقانون Nasal Sonans الذى كان قد افترضه (سوسير) منذ سنوات سلفت ، لكنه رفض لأنه كان يتعارض مع الفروض التى كانت معروفة بين اللغويين البارزين آنذاك .

وفى عام ١٨٦٨ - وكان سوسير قد بلغ الحادية والعشرين - نشر عمله المعروف ب (تقارير عن النظام الأساسى للحركات فى اللغات الهندية الأوربية :
(Memoir on Primitive System of Vowels in Indo - European Languages

وقد قال عنه أحد اللغويين : إنه أعظم عمل فى فقه اللغة المقارن كتب حتى اليوم . وقد كان على (سوسير) فى هذا العمل أن يتعرض إلى القضايا الأساسية فى علم اللغة التاريخى ، وكان عليه أن يؤكد على أهمية القضايا المنهجية . ولقد لقى هذا العمل ماهو أهله من الترحيب فى عدد من الأقطار .

ويبدو أن المقام لم يطب لـ (سوسير) فى ألمانيا فقد غادرها إلى باريس بعد نواله درجة الدكتوراة عن استخدام حالة الجر فى السنسكريتية . وقد حقق فى باريس نجاحاً عظيماً ، وبدأ - بعد وصوله - فى تعلم السنسكريتية والقوطية والألمانية العليا القديمة فى معهد الدراسات العليا (Ecole Protique des hautesetudes)

وبعد عام ١٨٨٦ أضاف إلى دروسه السابقة دروساً أخرى فى فقه اللغات الهندوأوربية بعامة . وكان آنذاك عضواً نشطاً فى الجمعية اللغوية بباريس ، وكان له تأثير عظيم وخلاق على جيل الشباب من اللغويين الفرنسيين . بيد أنه عاد الى جنيف حين عرض عليه كرسى الأستاذية بجامعتها ، وقد كان تلامذته بها أقل عدداً وأقل تقدماً . وقد كان يدرس فيها السنسكريتية وعلم اللغة التاريخى بعامة .

وكان (سوسير) قليل الكتابة غير راض عما يكتب ، وكان يتطلع إلى أن يؤلف كتاباً فى علم اللغة ، وكان آنذاك مشغولاً بالتصنيف المنطقى للظواهر اللغوية وبتنظيم النظريات التى أبديت حولها، وكان معنياً كذلك بتوضيح واجبات اللغوى بتعريف المصطلحات التى يستخدمها وبأهداف الدراسة اللغوية وبطبيعة اللغة ذاتها .. ولكن هذا الكتاب - ويا للأسف - لم يقدر له أن يخرج إلى الناس. وقد شغل (سوسير) أيضاً باللتوانية وبالأساطير الجرمانية فى العصر الوسيط بل بالشعر اللاتينى . وفى عام ١٩٠٦ عينته جامعة (جنيف) لتدريس علم اللغة العام، ومنذ هذا التاريخ والى عام ١٩١١ ألقى على تلامذته محاضراته الشهيرة التى جمعت فيما بعد ونشرت بعنوان (محاضرات فى علم اللغة العام) . وفى صيف عام ١٩١٢ مرض سوسير ، وفى فبراير ١٩١٣ توفى وكان قد بلغ من العمر ستا وخمسين سنة . (١)

ب - أعمال سوســـــير

كتابات (سوسير) - على خلاف ما يتوقع - قليلة نسبياً ، لقد نشر حوالى عشرين مقالاً عن اللغات الهندوأوربية ، وعن اللغات البلطيقية واليونانية وعن النقوش الفريجية ، وخلف وراءه بعض ملاحظات ومقالات عن بعض القضايا المعرفية وبعض المراجعات . بيد أن هذه الكتابات - كما يقول - (كيولر Culler) ربما تحله مكانة مميزة فى تاريخ فقه اللغة Philology ، مكانة

تعدل تقريباً مكانة غيره من النحويين الجدد مثل (بروجمان) و (ڤيرنر) الذين يعرفون اليوم فحسب بأنهم فقهاء لغة . أما الذى أهله مكان الريادة لعلم اللغة الحديث فهى محاضراته التى نشرت بعد وفاته . ومن حسن الحظ أن تلامذته وزملاءه تبينوا أن هذه المحاضرات سوف يكتب لها البقاء ، وسوف تضعه موضعه المناسب فى تاريخ علم اللغة مفكراً أصيلاً .(٢)

لكن نشر هذه المحاضرات - وقد نهض به تلميذاه (بالى Bally) و (سيشهاى - Cechehaye) - كان عملاً بالغ الصعوبة كثير المخاطر . خلف (سوسير) وراءه ملاحظات قليلة جداً ، ومن ثم فقد اضطر تلميذاه إلى الاعتماد على المذكرات التى دونها تلامذته الذين حضروا عليه ، ومن مجموع تلك المذكرات ومن مقابلتها بعضها ببعض تألفت نسخة مناسبة لما ألقاه (سوسير) فى حلقات دراسية ثلاثة .

ولم يكن ممكناً نشر هذه المذكرات فى صورتها الأصلية . ففيها من التكرار والاضطراب والتداخل مايجعل مظهرها متنافراً ، كما أن نشر حلقه واحدة منها سوف يفوت على القارىء الاطلاع على مافى الحلقتين الأخريين من معلومات . ويبدو أن (سوسير) كان يؤلف كل محاضرة من جديد وفقاً لخطة مختلفة وهو - كما يقول تلميذاه فى مقدمة نشرتهما للمحاضرات - : لم يكن (سوسير) من أولئك الرجال الذين يقفون فى مكانهم ، فأفكاره تتطور فى كل الاتجاهات دون أن تتناقض ذاتياً نتيجة لذلك . لقد استقر الأمر - مع هذه العوائق - على أن يؤلفا عملاً موحداً ، أن يضعا كتاباً عمدته الحلقة الثالثة من المحاضرات ، مع الاستفادة مما ورد فى الحلقتين الأوليين فضلاً عن مذكرات سوسير .(٣)

والكتاب - كما يرى (جودل Godel) حديثاً نسخة من أفكار (سوسير) لاتطابق - فى كل النقاط - آراءه فى اللغة ، كما أوضحها فى محاضراته وفى أحاديثه مع تلامذته . فهو - مثلاً - لم يصر إصراراً شديداً على التفرقة الدقيقة بين اللغة Langue والكلام Parole أى بين كلام الجماعة (الكامن فى العقل اللغوى لكل فرد) وكلام الفرد (الذى يعد انعكاساً لها أى اللغة Langue) ومع أنه قد ألمح إلى ضرورة وضع تعريف نظرى دقيق لهذين المفهومين ، فإنه كان مدركاً أن هذا التعريف الدقيق لايمكن الوصول إليه فى الواقع .

وثمة أفكار محددة اهتم بها سوسير اهتماماً أكبر مما تظهره المحاضرات المنشورة، وعلى سبيل المثال يشير (جودل) الى أن حماسته للمنهج الرياضى فى الدراسة اللغوية تعبر عنه المحاضرات المنشورة بطريقة ناقصة تماماً ، مع أن (سوسير) فى الحقيقة كان أول لغوى ألح على أن الوصف المناسب لبنية اللغة يمكن الوصول اليه باستخدام مخططات رياضية فى التحليل ، كما أن الكتاب يخلو من تعليمات المؤلف ، ومن ثم كان من المستبعد أن يخلو من تكرار وغموض بل من بعض المقولات المتناقضة .(٤)

ويضيف (كيولر) نقدات أخرى على المحاضرات المنشورة قائلاً : ثمة مبرر واضح للقول بأن ناشرى المحاضرات كانوا أقل توفيقاً مما كنا نتوقعه ، إن طريقتهم فى التمثيل يحتمل ألا تكون الطريقة التى اختارها (سوسير) ، ولهذا لاتعكس الترتيب المنطقى المختار لآرائه ، كما أن مفهوم اعتباطية العلامة قد استحق عناية أقل مما كان عليه الحال فى المذكرات. وكان الناشران عند معالجة الجانب الصوتى للغة أقل توفيقاً فى استخدام المصطلحات مما كان يتوقع أن يكون عليه (سوسير) " .(٥)

ومع ذلك فإن الكتاب ـ بغض النظر عما فيه من عيوب ـ أدى ـ كما يقول (ميلكا ايفتش Milka Ivic) دوراً طليعياً فى علم اللغة ، لقد جعل منه رائداً يقتحم ميداناً جديداً ، لقد برهن ـ سواء أكان صوتاً أصيلاً لصاحبه أم لم يكن ـ على أنه ـ روح قوية ألهمت أجيالاً جديدة من اللغويين ، وأنه مصدر غنى لنظريات جديدة فى علم اللغة ، إنه كثيراً ماكان باعثاً للجدل ، وكثيراً ماستحق الثناء المحمود وتعرض للنقد القاسى . ومع ذلك فان (سوسير) ـ فى نظر العالم ـ هو هذا الكتاب " .(٦)

هذا وقد ظهرت المذكرات الرئيسية التى كتبها تلامذته منذ عام ١٩٦٧ نشرها (رودلف إنجلر Rodolf Engler) ولما لم تتوفر لدينا هذه النسخة حتى اليوم اعتمدنا ـ مضطرين ـ على نشرة (بالى) و (سيشهاى) التى ترجمها إلى الانجليزية (واد باسكين Wade Baskin) مع وضع الملاحظات التى استخلصها (كيولر) من نشرة (انجلر) فى الاعتبار ، تلك الملاحظات التى ضمنها كتابه عن (سوسير) .

نظرية سوسير

استقر رأى (سوسير) على أن موضوع علم اللغة Linguistics * هو دراسة اللغة فى ذاتها ولأجل ذاتها، وكان يعتقد أن اللغويين إن لم يتفقوا على اتخاذ هذه الخطوة فلن يستطيعوا أن يفترضوا منهجاً مناسباً لهذا الموضوع . " بيد أن اللغة ـ وهى موضوع هذا العلم ظاهرة معقدة وغير متجانسة إلى حد بعيد بحيث لايتمكن الباحث من دراستها من أنحائها المختلفة دراسة شاملة ، قد يدرس ـ مثلاً ـ أصواتها فيبحث فيما تقوم به أعضاء النطق لانتاج الكلام أو يبحث فى الموجات الصوتية الناشئة عنها وفى آثارها على أعضاء السمع ... الخ . قد يدرس المعنى الذى يريده المتكلم بكلامه ، ومظاهر العالم الخارجى التى يشار إليها بالألفاظ أو المواقف المختلفة التى يقال فيها الكلام ، قد يدرس القواعد التى تنتظم بنية الكلمة أو العبارة أو الجملة ! قد يدرس لغة من اللغات أو لهجة من اللهجات فى وقت محدد أو على فترات متعاقبة .. قد يفعل هذا أو غيره مما يتوقع أن يكون دراسة للغة . ولكن قبل أن يفعل عليه أن يسأل نفسه ماذا يدرس ؟ ولماذا يدرسه ؟ وبعبارة أخرى ينبغى أن يكون لدى اللغوى نظرية فى اللغة " . وهذا ماحاوله سوسير . وقبل أن نفصل القول فى أبعاد نظريته اللغوية المختلفة سوف نحدد مايعنيه بعلم اللغة ، وعلى هذا سوف نتعرض فى هذا القسم من البحث لما يأتى :

أولاً : التعريف بعلم اللغة .

ثانياً : التعريف بنظريته اللغوية .

وسوف نحدد فى هذا الجزء من البحث المفاهيم الرئيسية التى تمثل أهم جوانب نظريته فى اللغة ، وهى على النحو الآتى :

- اللغة والكلام .
- التغير اللغوى .
- العلامة اللغوية .
- السيميولوچيا (علم العلامات) .
- النظرية الوصفية والتاريخية .

---

* تشير النجمة الخماسية إلى ورود المصطلح فى قائمة المصطلحات فى نهاية البحث .

أولاً : التعريف بعلم اللغة

لقد كان (سوسير) حريصاً أشد الحرص على ان يجعل علم اللغة علماً مستقلاً عن العلوم الأخرى ، علماً له موضوعه الخاص لايتجاوزه الى غيره وله منهجه المناسب لموضوعه ، وإن كان هذا لايعنى أنه مقطوع الصلة عن هذه العلوم ، وهذا هو حال العلاقة بينه وبين علم الأجناس وعلم ماقبل التاريخ مثلاً ، إنه يقرر أن علم اللغة له علاقة وثيقة جداً بهذه العلوم التى قد تستعير منه احياناً مادتها وأحياناً تزوده بالمادة ، والخطوط الفاصله ـ كما يقول ـ لا تبدو واضحة فى غالب الأحوال .(٧)

وتعريف (سوسير) للغة يفترض سلفاً استبعاد أى شىء يخرج عن حدود بنيتها * أو نظامها * . وهذه المعارف يضعها فى مجال مايسميه علم اللغة الخارجى External Lin- * guistics وهو يرى أنه يعالج موضوعات هامة ، يذكر من بينها :

ـ موضوع الحدود الفاصلة بين علم اللغة وعلم الأجناس أو الأعراق Ethnology * أى العلاقات التى تنعقد بين تاريخ لغة من اللغات ، وتاريخ الجنس الذى يستخدمها وحضارته * فثقافة * الأمة تؤثر تأثيراً مباشراً فى لغتها ، كما أن لغتها مسئولة إلى حد بعيد عنها .

ـ العلاقة بين اللغة والتاريخ السياسى : لقد كان للأحداث التاريخية العظيمة (كالغزو الرومانى مثلاً) آثار بالغة على بعض الوقائع أو الحقائق اللغوية ، لقد كان للغزو أو للاستعمار دور فى إحداث بعض التغيرات فى بعض اللغات وذلك بنشرها فى بيئات مختلفة ، ومن أمثله ذلك أن النرويج اتخذت الدانيمركية لغة لها عندما اتحدت مع الدانيمرك سياسياً ، ويحاول النرويجيون اليوم أن يتخلصوا مما نتج عن هذا الاتحاد من آثار لغوية . وليست السياسة الداخلية للدول بأقل أهمية فى حياة اللغات من السياسة الخارجية . فثمة حكومات كسويسرا مثلاً تسمح بتعايش عدة من اللغات على أرضها ، وثمة حكومات أخرى كبلجيكا مثلاً تناضل من أجل وحدتها اللغوية .

- العلاقة بين اللغة والهيئات المعنية بالدين والتعليم والأدب كالكنائس والمدارس والجامعات والمجامع، وكذا مجالس العلماء والأدباء والحكام. فكل هذه الهيئات والمجالس لها دور فى التطور الأدبى للغة، وهى كلها لاتنفصل عن التاريخ السياسى، ومن المعروف أن اللغة الأدبية تبرز بوضوح قضية الصراع بينها وبين اللهجات المحلية * ، لأنها - وهى نتاج الثقافة - تنفصل - فى النهاية - عن عالمها الطبيعى أى عن لغة الحديث لغة الحياة اليومية .

- ولعلم اللغة الخارجى علاقة بانتشار اللغات وبانقسام اللغة أو اللهجة إلى لهجات، وبالعوامل التى تؤثر فى ذلك . وهذا الموضوع من الموضوعات التى لانتبين عندها الخط الفاصل بين ماهو خارجى وداخلى، لأن الظواهر الجغرافية وثيقة الصلة جداً بوجود اللغة، بيد أن الانتشار اللغوى والانقسام اللهجى لايؤثران فى البنية الداخلية للغة .

وحين عظم الاعتماد على العناصر المادية فى تفسير الأشياء ساد رأى بين الباحثين يرى أن هذه الظواهر الجغرافية لايمكن أن تنفصل بسهولة عن دراسة خصائص اللغة . لقد حدث أن لاحظوا تأثير العناصر المادية الخارجية (كطبيعة الأرض والمناخ ... الخ) على وصف البناء الداخلى للنبات ، ومن ثم قالوا ألا يمكن الاعتماد فى وصف البنية النحوية للغة على العناصر الخارجية للتغير ؟ (٨)

ومع أن (سوسير) يفضل الفصل بين ماهو خارجى وداخلى فانه يؤكد أن دراسة التطور هامة عند التفسير ، ويقول : يبدو لى أننا قلما نستطيع أن نقدم تفسيرات مرضية عن المصطلحات العلمية والفنية * والكلمات المقترضة * دون أن ندرس تطورها . وهل نستطيع أن نفصل النمو الطبيعى والبنيوى للغة عن أشكالها المصنوعة (لغة الأدب مثلاً) - وهذا النمو يرجع - كما هو معلوم - الى عوامل خارجية أى الى عناصر أو قوى غير بنيوية - ؟ (٩)

وينبغى أن يكون واضحاً ان اعترافه بأهمية هذه العناصر لايعنى أنها ضرورية أو لايقوم الوصف اللغوى بدونها ، وفى هذا يقول : أنا اعتقد أن دراسة الظواهر اللغوية الخارجية على جانب عظيم من الفائدة ، بيد أن القول بأننا لانستطيع أن ندرس بنية اللغة * دون دراسة

الظواهر الخارجية قول خاطىء . وأوضح مثل لذلك اقتراض الكلمات الأجنبية ، فنحن نلاحظ منذ البداية أن الاقتراض * ليس عاملاً مطرداً أو ثابتاً فى حياة كل اللغات ، ففى الوديان المنعزلة لهجات لم تقترض أبداً كلمة غريبة من الخارج فهل نضطر لهذا فنقول إن مثل هذه اللهجات تخرج عن حدود ماهو معروف من أحوال الكلام العادى وأنها تتطلب أسلوباً خاصاً غير مألوف بين الباحثين لدراستها ، لأنها لم تقترض مثل هذه الكلمات ؟ (١٠)

ثم يقرر (سوسير) صراحة أن معرفة الظروف التى تسهم فى تطور اللغة معرفة لا غنى عنها فاللغات السلافية القديمة مثلاً لانعرف شيئاً عن أصحابها الحقيقيين ، ولكن جهلنا بذلك لايمنعنا من دراسة هذه اللغات (داخلياً) ، ومعرفة التغيرات التى حدثت فيها ، وعلى أية حال فإن الفصل بين الأمرين (ما هو خارجى وداخلى) حتمى ، وكلما راعيناه كان أفضل .(١١)

وأفضل دليل على الحاجة إلى الفصل بين الأمرين أن كلا منهما يتخذ منهجاً متميزاً ، فعلم اللغة الخارجى بمقدوره أن يقدم معارف مفصلة دون أن يدخل فى مجال بنية اللغة أو نظامها . فالباحث قد يجمع وقائع مناسبة عن انتشار لغة ما خارج حدودها ، أو يبحث عن العوامل التى أنشأت لغة للأدب إلى جانب اللهجات المحلية ، قد يفعل هذا أو ذاك ، ولكنه يفعله فحسب بغرض البيان والتوضيح . وتختلف الصورة كلية فى علم اللغة الداخلى حين ندرس بنية اللغة ذاتها ، سوف نتبين أن اللغة نظام له قواعده الخاصة . ويوضح (سوسير) هذه الفكرة بلعبة الشطرنج ، فنحن نستطيع أن نفصل وبحسم ما هو خارجى عما هو داخلى . حقاً لقد انتقلت هذه اللعبة إلينا من بلاد فارس ، ولكن هذه الحقيقة حقيقة خارجية ، أما مايتصل بوحدات اللعبة وقواعدها أونظامها فحقيقة داخلية . فاذا ما استخدمت قطعاً من العاج بدلاً من الخشب مثلاً فلن يكون لهذا العمل أى تأثير على النظام ذاته ، بيد أننى اذا مازدت عدد القطع أو أنقصتها فلابد أن يحدث هذا التغيير تأثيراً عميقاً فى قواعد اللعبة . ثم يقترح علينا ضابطاً حاسماً للفصل بين ماهو خارجى وداخلى بقوله : كل مايغير النظام بأية طريقة شىء داخلى . (١٢)

أما علاقة علم اللغة بعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى فأوثق من علاقته بالعلوم السالفة . ذلك أن اللغة ـ عنده ـ ظاهرة اجتماعية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فاللغة ظاهرة سيكلوجية أساساً وذلك أن (سوسير) يرى أن اللغة مجموعة من العلامات ، والعلامة عنده علاقة بين مفهوم وصورة سمعية ، وهما صورتان ذهنيتان.(١٣)

وهكذا يبين لنا (سوسير) علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى ، وبهذا يهيء الأذهان لبيان المجال الذى اقترحه لهذا العلم بقوله :

" ومجال علم اللغة ينبغى أن يكون :

أ) وصف وتعقب تاريخ كل اللغات المعروفة : تاريخ العائلات اللغوية * ، وإعادة بناء* اللغة الأم * لكل عائلة قدر الامكان .

ب) تحديد القوى المؤثرة دوماً وعموماً على كل اللغات ، واستنباط القوانين التى تخضع لها كل الظواهر التاريخية المحددة .

جـ) تحديد وتعريف علم اللغة ذاته .(١٤)

وقد أوضح (إميل بنفنست) أن المجال الثالث من المجالات السابقة يشملها جميعاً ، إذ لايبدو ممكناً وصف اللغات والتأريخ لها واستكناه القوانين العامة التى تخضع لها الظواهر دون أن يحدد علم اللغة موضوعة وقدراته وإمكاناته ، ويقرر أن قراءة محاضرات (سوسير) توضح بكل تأكيد أنه يرى أن علم اللغة لايمكن أن ينشأ إلا من خلال تعريفه نفسه عن طريق اكتشاف موضوعه .(١٥)

ويميل (بنفنست) إلى ماقرره (سوسير) فى موضع آخر من محاضراته من أن علم اللغة ينتمى فى الحقيقة الى علم آخر بَشَّر به وحدد مجاله هو علم العلامات أو (Semiology) .*

وفى ذلك يقول : إن القضية (موضوع علم اللغة) ليست أن نقرر ما إذا كان علم اللغة أقرب إلى علم النفس أو إلى علم الاجتماع ، ولا أن نفسح له مكاناً بين الفروع المعرفية القائمة ، ولكن القضية يجب أن تطرح على مستوى مغاير تماماً ، ومن خلال مصطلحات جديدة كل الجدة تولد مفاهيمها الخاصة . إن علم اللغة ينتمى فى الحقيقة إلى علم لم ينشأ بعد . علم يتناول الأنظمة الأخرى المشابهة داخل مجموعة الظواهر الانسانية ، وهذا العلم هو السيميولوچيا .(١٦) وسوف نعود بالتفصيل إلى هذا الموضوع عند الحديث عن هذا العلم الجديد .

وعلى أية حال فانضواء علم اللغة فى إطار علم العلامات لايؤثر البتة فى تحديد مجاله هو ، ومن ثم نفصل القول فى قضية التعريف بتلك المقولة الحاسمة التى ذكرها (سوسير) فى نهاية كتابه تعليقاً على (شلا يشر) الذى يزعم أن اللغة كائن حى له قانون خاص فى التطور ، يقول (سوسير) إن الهدف الصحيح لعلم اللغة أن يدرس اللغة فى ذاتها ولأجل ذاتها .(١٧)

.....

ثانياً : التعريف بنظريته اللغوية

اللغـــة والكـــلام

أوضح (سوسير) فى مستهل الفصل الثانى من مقدمة محاضراته المنشورة موضوع علم اللغة . واذا ما أردنا إلى ايجاز القول قلنا إنه اللغة ، واذا ما أردنا الى شىء من التفصيل ـ كما فعل (سوسير) نفسه قلنا إنه كل مظاهر اللغة الانسانية لغات البدائيين أو المتحضرين ، اللغات القديمة المندثرة أو الحديثة الحية ، اللغات المنطوقة أو المكتوبة .(١٨)

ولكن ما الذى يعنيه باللغة التى هى موضوع البحث هنا .

ينبغى ـ لكى نصل إلى التعريف الذى أقره (سوسير) ـ أن نحدد ـ وبكل دقة ـ مايعنيه بمصطلحات ثلاثة تتردد كثيراً فى هـذا السـياق ، وهى اللسـان Le Language * واللغة Le Langue * والكلام Le Parole * . ونحاول هنا تفسير المقصود بهذه المصطلحات بإيجاز ، ثم نعود إليها بقول مبسوط فيما بعد . على اننا بدأنا بالكلام فاللغة فاللسان عكس الترتيب المتوقع قصداً إلى الوضوح والتيسير .

الكلام Le Parole : كل مايلفظه أفراد المجتمع المعين ، أى ما يختارونه من مفردات أو تراكيب ناتجة عما تقوم به أعضاء النطق من حركات مطلوبة .

واللغة Le Langue : نظام من علامات وصيغ وقواعد ، ينتقل من جيل إلى جيل وليس له تحقق فعلى ، لأن الناس لايتكلمون القواعد ، وإنما يتكلمون وفقاً لها . وأقرب شىء إليها أنها تشبه السيمفونية على حين يشبه الكلام العزف على الآلات .

أما اللسان Le Language : فهو ظاهرة عامة تتمثل فى العنصرين السابقين (اللغة والكلام) مجتمعين ، ولهذا لايعده (سوسير) ظاهرة اجتماعية خالصة ، اذ هو يشمل الجانبين

معاً: الفردى (الكلام) والاجتماعى (اللغة) . إنه - كما يقول (سوسير) - " ملكة طبيعية . واللغة " عرف مكتسب " أو لنقل " إنها " نتاج اجتماعى لملكة اللسان " .(١٩)

واذا ما استبعدنا العناصر الفردية من (اللسان) بقيت لنا العناصر الاجتماعية أى (اللغة) ، أو بعبارة أخرى (اللغة) هى (اللسان) بعد أن نطرح منها (الكلام) .

لقد قرر (سوسير) غير مرة أن (اللغة) لا (اللسان) أو (الكلام) هى موضوع البحث لعلم اللغة ، ومن ثم وازن فى غير موضع من كتابه بينهما ، ومن تلك الموازنة نتبين سمات كل منهما ، ونتبين كذلك لماذا عدها (سوسير) وحدها موضوعاً للبحث فيه . ويقول (سوسير) فى ضرورة الفصل بينهما :

بفصل اللغة عن الكلام نفصل فى الوقت نفسه :

- ماهو اجتماعى عما هو فردى .

- وماهو ضرورى عما هو ثانوى .

فاللغة ليست وظيفة المتكلم إنها نتاج تمثله الفرد بإذعان " (٢٠)

والكلام - على اعتبار أنه مايلفظه المتكلم - لايمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية ، لأنه نتاج فردى شعورى تماماً ، بينما الظاهرة الاجتماعية ينبغى أن تكون عامة فى مجتمع يمارس إلزاماً على أفراده ، ومن ثم فليست الظاهرة الاجتماعية عملاً فردياً حراً .(٢١)

ومن الواضح أن المجتمع حين يخضعنا لقواعد اللغة ييسر لنا المجال للتفاهم المشترك ، فنحن نفهم مايقوله أفراد مجتمعنا وهم يفهمون مانقوله ، وهذا هو الجانب الاجتماعى فى اللغة ، لقد تم هذا التفاهم حين تحقق الالتزام بالعرف اللغوى للجماعة أو بعبارة أخرى حين التزمنا بالقواعد التى يفرضها العرف ، وربما لاندرك فى كثير من الأحيان تلك القيود المفروضة

علينا . ولكننا فى بعض المواقف نتنبه إليها ، حين يُعْتَرض علينا بعبارة أو جملة مخالفة للقواعد . وربما كان الإلزام أكثر وضوحاً عند الأطفال حين يتعلمون لغتهم أو حين يترددون فى استخدام كلمة أو عبارة ، لأنهم لايعرفون وجه الصواب .

واللغة عند (سوسير) ليست موجودة بشكل تام عند أى متكلم ، إنها موجودة فحسب بكاملها فى الجماعة (٢٢) أى أن كل فرد من أفراد الجماعة اللغوية يحاول أن يأتى كلامه وفقاً لها ، ولكنه لايمكن أن يحققها تحقيقاً كاملاً ، ومن ثم يتفاوت هؤلاء الأفراد فى مراعاة قواعدها.

ولعل هذا هو ماجعل (اللغة) لا (الكلام) هى موضوع علم اللغة ، لأن الكلام يتحقق فى صور مختلفة لاحصر لها ، وليس ثمة علم يمكن أن يدرس هذه الصور فى الواقع ، فالمفردات والعبارات والجمل (فى أية لغة) لاحصر لها ولاسبيل إلى دراستها ، أما الطرق التى تبنى بها المفردات أو العبارات أو الجمل فتقع تحت الحصر ويمكن دراستها ، ولهذا كان موضوع الدراسة العلمية للغة النماذج التى يأتى الكلام عليها .

كان أو إحدى أخواتها + اسم مرفوع + اسم منصوب .

الشكل السابق نموذج (من اللغة) أما الشكل :

كان المطر غزيراً .

فجملة تأتى مطابقة له . وفى مقدورنا أن نأتى بعدد لاحصر له من أمثالها . أى أن النموذج واحد ، والجمل لاحصر لها ، ونحن ينبغى علينا أن ندرس النماذج أو القواعد لا الجمل الفعلية . أضف الى ذلك أن الجملة السابقة حين ينطقها عدد من الأفراد أو حين ينطقها شخص واحد غير مرة ، يتحقق فى الواقع عدد من المنطوقات المختلفة يماثل عدد الأفراد الذين ينطقونها أو عدد المرات ، ولاسبيل إلى دراسة هذه الصور الفردية المتعددة .

وليس معنى هذا أن الكلام - لأنه يمثل الجانب الفردى الفعلى من اللسان - لاينبغى درسه، لأن (سوسير) فى الحقيقة افترض وجود علمين للغة أحدها يدرس اللغة والثانى يدرس الكلام، وان كان يعد الثانى خارجاً عن الإطار المحدد للدراسة اللغوية . يقول " إن نشاط المتكلم ينبغى أن يقوم بدراسته عدد من العلوم ، وإن لم يكن لها مكان فى علم اللغة الا بقدر علاقتها بها. "(٢٣) ويقول أيضاً " لنفرض أن إنتاج الأصوات ضرورى للكلام ، ولكن عمل أعضاء النطق يعد أمراً خارجياً بالقياس إلى اللغة . كما يعد عمل الأجهزة الكهربية المستعملة فى شفرة مورس خارجاً بالقياس الى الشفرة ذاتها ، فالنطق أو أداء الصور السمعية Sound - images * لايؤثر - على أية حال - على النظام نفسه " (٢٤) . وفى موضع آخر يقرر بحسم ضرورة الفصل بين العلمين المفترضين . " ولكن علم لغة الكلام لاينبغى أن يختلط بعلم اللغة الخاص الذى موضوعه الوحيد (اللغة) وسوف أعالج هنا - أى فى محاضراته - علم اللغة اللغوى ، واذا استخدمت مادة تخص الكلام لتوضيح فكرة فلن أحاول محو الحدود التى تفصل بين الميدانين " (٢٥)

ولنلخص الآن أهم الفروق التى تميز (الكلام) عن اللغة :

١ - الكلام نشاط فردى (أحداث فردية) متنوع مختلط مبتكر ، ولا يمكن أن تتحقق وحدة للكلام . يقول : الكلام غير متجانس بينما اللغة متجانسة ، إنها نظام من علامات ماهو ضرورى فيها : اتحاد المعانى بالصور الصوتيه " ويقول أيضاً : ان اللغة بمعزل عن الفرد الذى لايمكنه أن يبتدع فيها أو يغير ، إنها موجودة فحسب لوجود عقد بين أفراد المجتمع " .(٢٦)

٢ - لكى ندرس شيئاً ما دراسة علمية ينبغى أن يتوفر لدينا موضوع محدد حتى نستطيع إجراء إحصاء بأجزائه وإجراء تحليل لها ، وقد رأينا أن الكلام نشاط يقوم به الفرد ، وهذا معناه أنه نشاط غير محدود ، ولا يمكن - والحال كذلك - وصفه إلا اذا كان هذا الوصف أيضاً بغير حدود ، وقد أوضحنا آنفا أن (سوسير) يقترح علماً آخر لدراسته غير علم اللغة .

٣ ـ ليس الكلام وسيلة جمعية ، فكل صوره وتجسداته فردية غير متجانسة ، حالية (منسوبة إلى لحظة الكلام) ، إنه فحسب مجموع أحداث فردية ، كما فى الشكل البيانى الآتى :

(١ + أ + أ + أ ...)

٤ ـ أما اللغة فنموذج جمعى : عند كل فرد ، وهي الأداة المشتركة بين كل المتكلمين ، ويعبر عنها بالشكل البيانى الآتى :

(١ + ١ + ١ + ١ ...) = ١ (نموذج جمعى)

٥ ـ اللغة موجودة فى شكل يتألف من مجموعة من الصور اللفظية المختزنة فى عقول جميع الأفراد ، إنها أشبه بمجموعة متماثلة من المعاجم موزعة على كل الأفراد ، ومع أنها موجودة لدى كل فرد فهى كذلك شركة بينهم ، وليس لرغبات أصحابها تأثير فيها .(٢٧)

٦ ـ اللغة ـ ليست كالكلام ـ إذ يمكن أن ندرسها مستقلة ، فاللغات الميتة نستطيع دراسة أنظمتها اللغوية مع أننا غير قادرين على الحديث بها .(٢٨)

٧ ـ اللغة نتاج جمعى لملكة اللسان* ، وهى كذلك مجموعة من العادات والأعراف التى تتبناها هيئة اجتماعية (جماعة معينة) تسمح باستخدام تلك الملكة .(٢٩)

٨ ـ اللغة علامات مختزنة يتلقاها كل فرد من الأفراد الآخرين الذين يستخدمون اللغة نفسها فى المجتمع المعين ، وعلى هذا فهى موجودة بالقوة (أى كامنة) على حين أن الكلام موجود بالفعل (أى حادث) .

٩ ـ اللغة مجموعة من العادات والتقاليد نتلقاها جاهزة من الجيل السابق ، ويبدو أنها تتعرض لتغيرات طفيفة جداً ، حتى إننا عند الدراسة نتجاهلها ، ونعدها وكأنها غير موجودة ، على حين يتعرض الكلام لتغيرات لاتنتهى ، ولايمكن تجاهلها .(٣٠)

وفى النهاية نقول : إن (سوسير) كان يريد أن تدرس اللغة دراسة علمية صحيحة وقد أعانته التفرقة السابقة على أن يحدد مايمكن دراسته (ماهو ضرورى وماهو اجتماعى) وما لايمكن (ماهو عرضى وفردى) . فاللغة - لا الكلام - هى التى يمكن أن تدرس ، لأنها طائفة من علامات لغوية متفق عليها ، وطائفة من قواعد تنتظم هذه العلامات .

فنحن - حين ندرس إذاً - سوف ندرس نماذج وقواعد لامنطوقات . النموذج ثابت مع مرور الوقت . ثابت فى شعور الأفراد ، وإن تغير تغير ببطء شديد لايكاد يدرك بحيث يمكننا الزعم بأنه ثابت ، ونقوم بالدراسة على هذا الاعتبار . ولقد قدم (سوسير) مثالاً واضحاً لهذه الدراسة التى لاتقوم على أساس الصور المنطوقة هو الأعمال العظيمة التى توفرت على دراسة اللغات الميتة .

العلامـــة االغويـــة

العلامة اللغوية (Linguistic Sign) * هى المبدأ المركزى الذى دارت حوله أفكار (سوسير) ومن ثم وجبت العناية الخاصة ببحث عناصرها وبيان العلاقة بينها للتعرف على طبيعتها .

يقول سوسير: لاأحد يجادل فى مبدأ اعتباطية (عرفية) العلامة، ولكن اكتشاف الحقيقة أقرب منالاً غالباً من وضعها فى موضعها الصحيح، هذا المبدأ السابق يسيطر على مناحى التحليل اللغوى، ونتائجه لاحصر لها، بيد أنه من الحق أن يقال إن الأمر ليس واضحاً على سواء فى كل المناحى، وبعد إمعان النظر سوف تتضح كل المعالم، وبهذا نتبين أهمية هذا المبدأ".(٣١)

العلامة صورة ذهنية مركبة :

لقد أوضحنا فى الصفحات السابقة أن اللغة "نظام من علامات" وأنها تمثل الجانب الاجتماعى من اللسان الذى هو اجتماعى فردى . ولكى يبين لنا (سوسير) مايعنيه بالعلامة يقدم إلينا الصورة الآتية لما يتوقع حدوثه عند إجراء اتصال لغوى بين شخصين يتحدثان لغة واحدة :

"لكى نتمكن من فصل الجزء الخاص باللغة من الكل الذى يمثله اللسان ، علينا أن نختبر حدثاً فردياً من خلاله يمكن إعادة بناء الدائرة الكلامية * . فالحدث يتطلب وجود شخصين على الأقل ، وهذا هو العدد الأدنى الضرورى لاكتمال الدائرة .

شكل (١)

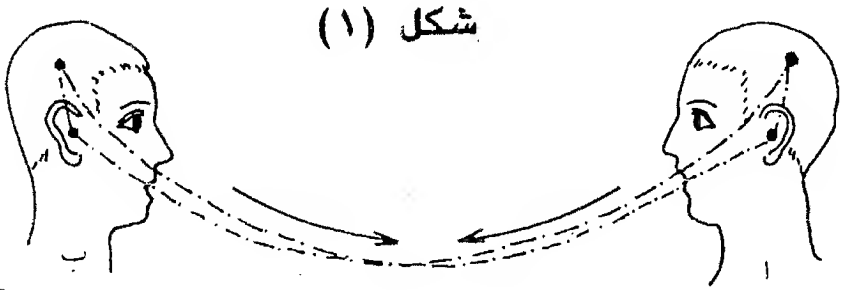

لنفرض أن شخصين (أ) و (ب) يتحادثان . ولنفرض أن مفتاح الدائرة فى دماغ (أ) حيث تترابط فيه ظواهر عقلية (مفاهيم) بما يمثلها من أصوات لغوية (صور سمعية Sound images *) تستخدم للتعبير عنها . فالمفهوم - هنا - يستدعى الصورة السمعية المناظرة له فى الدماغ . وهذه العلمية السيكلوجية * الخالصة يتبعها - من ثم - عملية فسيولوجية * : ينقل الدماغ دفعة من مثير أو (إشارة مناسبة) مناظرة للصورة إلى أعضاء النطق لانتاج الأصوات المطلوبة . ثم تنتقل الموجات الصوتية * من فم (أ) إلى أذن (ب) وهذه العملية فيزيائية * مادية خالصة . وبعد ذلك تستمر الدائرة عند (ب) ولكن بترتيب معكوس ، أى من الأذن إلى الدماغ ، وفى الدماغ يتم الربط الذهنى بين الصورة السمعية والمفهوم المناظر لها . فاذا ماتكلم (ب) بعد ذلك فسوف يمر الحدث الجديد بنفس الطريق السابق من دماغه الى دماغ (أ) كما حدث أولاً ، والشكل الآتى يوضح ذلك .

شكل (٢)

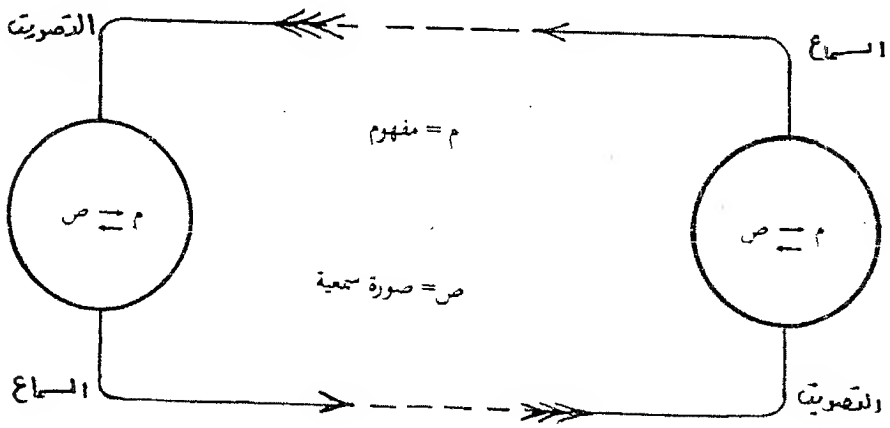

فالعلامة عند (سوسير) علاقة ذهنية ، ولكنها لا تربط اسماً بشىء ، كما اعتقد اللغويون قبله ، بل تربط مفهوماً (Concept * بصورة سمعية (Accoustic image) *. (٣٢)

ولنأخذ المثال الآتى لتوضيح مايعنيه (سوسير) بدقة :

لنقل - بشكل عام - إن العلامة أو الكلمة (قلم) يمكن النظر إليها من جانبين :

أ - جانب مادى ويتألف من شقين :

- الموجود الخارجى أو الشىء المشار إليه (الأداة التى نكتب بها) .

- اللفظ المنطوق بالفعل الذى يتمثل فى أصوات واقعية (موجات صوتيه) .

ب - جانب ذهنى ، ويتألف من شقين :

- مفهوم أو صورة ذهنية للموجود الذى يشار إليه بلفظ (قلم) ، أى (م) فى الرسم .

- صورة سمعية أى صورة اللفظ نفسه التى يمكن أن نتمثلها لو نظرنا الى كلمة (قلم) ، مكتوبة دون أن ننطق بها ، أى (ص) فى الرسم

والعلامة اللغوية عند (سوسير) تتمثل فى العلاقة بين المفهوم والصورة السمعية . وهى علاقة تستبعد الجانب المادى بشقيه . وقد أوضح (سوسير) غير مرة أنه لايعنى بالصورة السمعية المادة الصوتية الخالصة ، بل يعنى بها الأثر السيكلوچى للصوت أى الانطباع الذى يثيرة فى الذهن ، كما أنه يعنى بالمفهوم الصورة الذهنية للشىء المتحدث عنه لا الشىء ذاته .

وتبدو الطبيعة السيكلوچية للصورة السمعية واضحة عندما نلاحظ كلامنا الداخلى ، إذ يمكننا أن نكلم أنفسنا أو نجرى قصيدة من الشعر فى أذهاننا دون أن ننبس ببنت شفة .(٣٣)

فالعلامة اللغوية إذاً صورة ذهنية مركبة من المفهوم والصورة السمعية. وهاتان الصورتان لايمكن أن ينفصلا، إنهما كصفحة من الورق من المستحيل أن تقطع وجها منها دون أن تقطع الآخر .

والعلاقة بين شقى العلامة اللغوية : المفهوم والصورة السمعية علاقة متبادلة ، فكل منهما يستدعى الآخر وهذا مايوضحه السهمان فى الشكل البيانى الآتى :

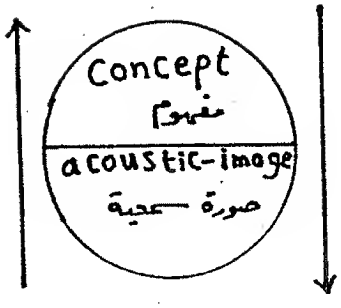

شكل (٣)

وسيكون الأمر على النحو السابق حين نريد التعرف على مفهوم الكلمة العربية (قلم) أو نريد التعرف على الكلمة التى يستخدمها العرب للاشارة الى المفهوم (قلم) .

وقد أحس (سوسير) بالاضطراب الذى يمكن أن ينشأ من استخدام المصطلحين السابقين ، بالمعنى الذى حدده لهما ، والذى قد يختلف عما هو شائع بين الدراسين فاقترح أن يحل المصطلح (مدلول Signified *) محل المصطلح (مفهوم Concept) وأن يحل المصطلح (دال Signifier *) محل المصطلح Acoustic - image صورة سمعية على أن يبقى المصطلح علامة ليطلق على الكل الذى يشمل المدلول والدال .[٣٤] وبهذا يصبح الرسم البيانى على النحو الآتى :

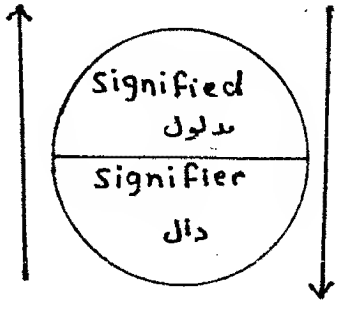

شكل (٤)

(شكل ٤)

العلامة اعتباطية (عرفية)

لقد أوضح (سوسير) آنفا طبيعة الدال والمدلول ، وفى مواضع أخرى من كتابه يشير غير مرة إلى العلاقة بينهما حيث يرى أن العلاقة بينهما اعتباطية Arbitrary * عرفية Con- * ventional ، فمدلول (قلم) مثلاً ليس بينه وبين لفظه (أى الدال فى اللغة العربية) أية علاقة ضرورية مباشرة ، فليس ثمة سبب جوهرى يفسر لنا لماذا اختير هذا الدال بعينه ، ولم يختر دال آخر ليشير إلى الشىء نفسه ، ومن ثم فالمتكلمون بالعربية مثلاً يمكنهم أن يستبدلوا بهذا اللفظ (قلم) لفظاً آخر متى اجتمعوا (اعترفوا) على ذلك . ومما يدعم هذا المبدأ أن (القلم) يُعَبر عنه بألفاظ مختلفة فى لغات مختلفة ، فهو فى الانجليزية Pencil وفى الفرنسية . Crayon

ولو كان ثمة علاقة ضرورية بين الدال والمدلول لوجدت لغة واحدة .

على أنه لاينبغى أن يفهم من اعتباطية العلامة أو عرفيتها أن اختيار الدال متروك تماماً للمتكلم ، لأن الفرد ـ كما يقول (سوسير) ـ : ليس لديه القدرة على تغيير العلامة بأية طريقة كانت ، لأنها أصبحت مقررة بين الجماعة اللغوية المعينة" .(٣٥)

وقد أوضح (سوسير) كذلك أن الطبيعة العرفية للعلامة من نوع خاص ، فالاتفاق على استخدام لفظ معين للإشارة إلى شىء معين ليس اتفاقاً صريحاً واضحاً ، بل هو مجرد موقف يحظى بقبول الجماعة .

وقد اعتُرِض عليه ببعض الألفاظ التى بينها وبين مدلولها علاقة مباشرة، وهى الألفاظ التى تحاكى ـ بشكل ما ـ المدلول، أو مايعرف بالمحاكاة الصوتية Onomotopoea * مثل قولنا فى العربية (قهقهه وهى حكاية لصوت الضحك). وقد رد (سوسير) على هذا الاعتراض مقرراً " أن هذا النوع من الألفاظ لايمثل أبداً عناصر عضوية للنظام اللغوى، بالأضافة الى أن عدد مثل هذه الكلمات أقل بكثير مماهو مفترض" ولهذا فهى لاتمثل ظاهرة لغوية تفسد القاعدة العامة .(٣٦)

والعرفية هنا لاتقتصر على الربط بين الدوال من ناحية والمدلولات من ناحية أخرى، بل تشمل كذلك قوائم العلامات التى تختارها كل لغة لتعبر بها عن نظرتها الخاصة إلى العالم. فكل لغة تختار وتنتج قائمة خاصة من الدوال (أصوات منطوقة مؤلفة بطريقة خاصة) وهى أيضاً تختار وتنتج قائمة أخرى من المدلولات (طرق خاصة فى النظر الى العالم وتقسيمه الى مفاهيم وأنماط)".

فألوان الطيف فى الإنجليزية مثلاً سته تعبر عنها الألفاظ الآتية :

Orange, Red, Yellow, Green, Blue, Purple

ولكنها فى لغة البسا (لغة يتكلم بها بعض سكان ليبريا) لونان فحسب تعبر عنهما الكلمتان Ziza - hui وتقسيم ألوان الطيف إلى قسمين لا سته لا يشير إلى شىء طبيعى فى الطيف ولا إلى قدرة الانسان على إدراكه ، بل يشير فحسب إلى فرق فى الطريقة التى تصنف بها الألوان فى اللغة المعينة . وبعبارة أخرى فان التقسيم لايقوم على أساس طبيعى ضرورى ، بل يقوم على أساس اعتباطى عرفى ، ومن ثم فان اللغة لا تختار دوالها (ألفاظها) اختياراً عرفياً فحسب بل تختار كذلك الأقسام والأنماط المناسبة لنظرتها الى العالم .(٣٧)

المفاهيم متغيرة

لقد رأينا آنفا أن سوسير يرى أن العلامة اعتباطية ، فليس بين الدال والمدلول علاقة ضرورية مباشرة . بيد أن هذا المبدأ ـ بهذه الطريقة ـ كان معروفاً عند اللغويين التقليديين . واذا مافسر بهذه الطريقة المحدودة فلن تكون له تلك النتائج الخطيرة التى عول عليها (سوسير) فى مذكرات تلامذته . فثمة كلام يقال فى هذا الخصوص يتجاوز ماقيل من اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول .

ومن العسير ـ كما يقول (سوسير) ـ أن ننظر إلى اللغة على أنها أسماء وأن نتبنى ما حدثتنا به التوراة حين أطلق آدم على المخلوقات أسماءها عند بدأ الخليقة . فلو قال أحدنا مثلاً

إن مفهوم (كلب) مثلاً يعبر عنه بالكلمة العربية (كلب) وبالإنجليزية (dog) وبالفرنسية (chien) لاقتضى ذلك أن فى كل لغة اسم اعتباطى لمفهوم موجود سابق على أية لغة ومستقل عن أية لغة .(٣٨) ولو كانت اللغة كذلك : اطلاق أسماء على مفاهيم عالمية عامة لكان من اليسير الترجمة من لغة الى لغة أخرى ، فما علينا إلا أن نضع مثلاً الكلمة العربية الخاصة بمفهوم ما بإزاء الكلمة الانجليزية ، ولو كان الأمر كذلك لأصبح تعلم لغة جديدة أسهل مما هو عليه الآن . بيد أن من حاول هذا أو ذاك تبين له بالدليل القاطع أن اللغات ليست تسميات ، وأن مفاهيم أو مدلولات لغة ما تختلف عن مفاهيم أو مدلولات لغة أخرى . فالكلمة الفرنسية aimer لايعبر عن مفهومها مباشرة كلمة إنجليزية ، وعليك أن تختار بين Love, Like وفى العربية يقال (عم) و (خال) وفى الانجليزية كلمة واحدة Uncle تعبر عن مدلول كليهما . واللون الذى يطلق عليه (أزرق) فى العربية لونان عند من يتكلم الروسية لكل منهما اسم خاص يقارب قولنا : أزرق فاتح وأزرق غامق . وهذا مؤداه أن كل لغة تنظر إلى العالم وتنظمه بطريقة مختلفة ، اللغة لا تسمى أنواعاً موجودة سلفا وانما تعبر عن نظرتها الخاصة .(٣٩)

ولو كانت اللغة أسماء تنطبق على مفاهيم عامة موجودة سلفاً لبقيت تلك المفاهيم ثابتة مع تغير الأزمان . غير أن الأمر ليس كذلك فالدوال أو الألفاظ قد تتطور ، فقد يتغير مدلول لفظ ما عما كان عليه ، وقد يضاف مدلول جديد إلى ما كان يدل عليه ، بل يحدث أحياناً أن يبتكر لفظ جديد لمدلول جديد.

فالكلمة "عصابة" كانت تستخدم للجماعة من الناس والخيل والطير ، وتكاد تقتصر اليوم على جماعة من شرار الناس . والكلمة "سيارة" كانت تستخدم للجماعة من الناس ، فتستخدم اليوم للمركبة المعروفة . وهذا معناه أن المفهوم الذى تعلق بكلمة عصابة أو سيارة تتغير حدوده باستمرار ، أى يغير بالتدريج شكله الدلالى مصورا العالم بطرق مختلفة من وقت لآخر . بل إن شكل اللفظ يتطور هو الآخر حيث يخضع لتغير فى نطقه الأساسى .

لكن ما مغزى هذا ، وما علاقته بالطبيعة الاعتباطية للغة ؟

اللغة ليست اطلاق أسماء ومن ثم ليست مدلولاتها مفاهيم موجودة سلفاً ، إنها مفاهيم متغيرة وطارئة تختلف من وقت لآخر . وبما أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية ، (ليس ثمة سبب ضرورى يحتم اتصال مفهوم معين بدال معين) فليس فى المفهوم سمة محددة ينبغى استبقاؤها ونسبتها إلى هذا الدال . فالمدلول المتعلق بدال معين قد يتخذ صوراً مختلفة ، ليس ثمة جوهر ضرورى للمعنى يحتفظ به لكى تنسب مدلولاً معيناً إلى دال معين .

إن الحقيقة التى تقرر اعتباطية (عرفية) العلاقة بين الدال والمدلول تعنى من ثم أنه مادامت لاتوجد مدلولات عامة ثابتة أو دوال عامة ثابتة ، فان المدلول نفسه اعتباطى ، كما أن الدال نفسه كذلك اعتباطى . ولعل ذلك يقودنا إلى أن نسأل كما فعل (سوسير) ماالذى يحدد الدال والمدلول ؟ سوف تعود بنا الإجابة الى المبدأ الهام الذى بدأنا به الحديث عن العلاقة وهو أن الدال والمدلول كلاهما أمران عقليان .

العلاقات بين العلامات :

اللغة La Langue عند (سوسير) نظام من علامات أو وحدات لغوية تتعرف كل وحدة منها بالوحدات التى تشترك معها فى السياق . ومن ثم فإن أى وصف دقيق للغة ينبغى أن يعتمد على بيان العلاقات بين الوحدات اللغوية .

فالجملة (القطار سريع) تتألف - بشىء من التسمح - من وحدتين تجىء الثانية (سريع) فى عقب الأولى (القطار) بهذا الترتيب الخاص ، وقد نشير إلى هذه الجملة بصورة أكثر تجريداً فنقول إنها مركب يتألف من : اسم (مرفوع) + وصف (مرفوع) .

وثمة علاقة تنعقد بين هاتين الوحدتين هى مايطلق عليه (العلاقة الأفقية أو السياقية : Syntagmatic relation *) أى أن عناصر الجملة أو وحداتها تنتظم معاً فى سياق أفقى متدرج زمنياً ، يجىء كل عنصر أو وحدة منها فى عقب الآخر .

وثمة علاقة أخرى تنعقد بين عناصر الجملة السابقة فى السياق ، وعناصر أخرى من خارج السياق ، فالكلمة (قطار) مثلاً قد تستدعى - لسبب من الأسباب - عدداً من الكلمات مثل : سيارة وسائق وطائرة ... الخ . والعلاقة هنا بين كلمة موجودة فى السياق وكلمات أخرى غير موجودة فيه ، وتعرف هذه العلاقة (بالعلاقة الاقترانية Associative relation *) أو مايعرف (بالعلاقة الرأسية أو الجدولية Paradigmatic relation) .

وقد أوضح (سوسير) أن العلاقة الأفقية بين الوحدات المتتابعة فى السياق علاقة حضور In Praesentia * ، لأنها بين وحدتين (أو أكثر) موجودتين بالفعل فى السياق المدروس . وهذه العلاقة لاتنعقد فحسب بين الكلمات بل تنعقد كذلك بين وحدات اللغة الأخرى (من الفونيمات والمقاطع والعبارات بل الجمل) (٤٠) ومن ثم فالعلاقة رأسية أو سطرية Linnar * رتتبين هذه الصفة فى (الدال Signifier) حيث يمكن تقسيمه إلى أجزاء يأتى كل جزء منها فى عقب جزء آخر فى تتابع زمنى منتظم .

فالكلمة (كتب) من حيث هى لفظ مسموع يمكن تقسيمها إلى أجزاء متوالية على النحو الآتى :

K + A + T + A + B + A

ويمكن القول أيضاً بأنها تتألف من مقاطع على النحو الآتى : Ka + Ta + Ba

وهذه الصفة واضحة جداً فى الكتابة ، فالسطر من الرموز المكتوبة يعد بديلاً عن التتابع الزمنى لأجزاء المنطوق .(٤١)

وتنعقد العلاقة الرأسية ـ كما بينا سابقاً ـ بين كلمة موجودة فى السياق وعدد آخر من الكلمات من خارج السياق ، ولهذا فهى علاقة غياب In absentia * قائمة على التداعى .

وقد أوضح (سوسير) أن كل كلمة من هذه الكلمات المستدعاة قد تتفق مع الكلمة المدروسة فى الشكل أو المعنى أو هما معاً .

فالكلمة Teaching مثلاً تذكرنا بكلمات أخرى لها شكل مشابه (كلمات تتضمن اللاحقة ing) مثل (Walking , riding .. الخ) وبكلمات أخرى (تتضمن اللاحقة S أو er مثل Teacher, Teaches) وذلك لأنها تشتمل على الشكل (teach) كما أنها تذكرنا بكلمات أخرى لها معنى مشابه ، وإن اختلفت عنها فى الشكل نحو (معلم tutor) و(مرشد mentor)

وتذكرنا كذلك بكلمات أخرى تختلف معها فى الشـــكل والمعنى معاً مثل Chalk, blackboard (٤٢)

ولنأخذ الكلمة (مسجد) مثالاً من العربية، إنها تذكرنا بعدد من الكلمات لها شكل مشابه مثل (منزل ومهبط ومضرب) فهى كلها أسماء مكان على صيغة واحدة (مَفْعِل)، كما أنها تذكرنا بكلمات أخرى لها معنى مشابه، وان اختلفت معها فى الشكل مثل (جامع ومصلى) وتذكرنا بكلمات أخرى تختلف معها فى الشكل والمعنى معاً مثل: (إمام وقبلة وسجادة ... الخ) .

ويلاحظ (سوسير) أن العلاقة الأفقية تفترض مباشرة توالى الوحدات فى نظام خاص ، وتفترض كذلك عدداً محدوداً منها فى السياق الواحد ، على حين أن العلاقة الرأسية تفترض أن الوحدات غير محدودة فى العدد أو بترتيب خاص .(٤٣)

ويؤكد (سوسير) غير مرة أنه يمكن تحليل أية جملة تحليلاً كاملاً ببيان هاتين العلاقتين : الأفقية والرأسية .

ويوضح الرسم البيانى الآتى هذه الثنائية :

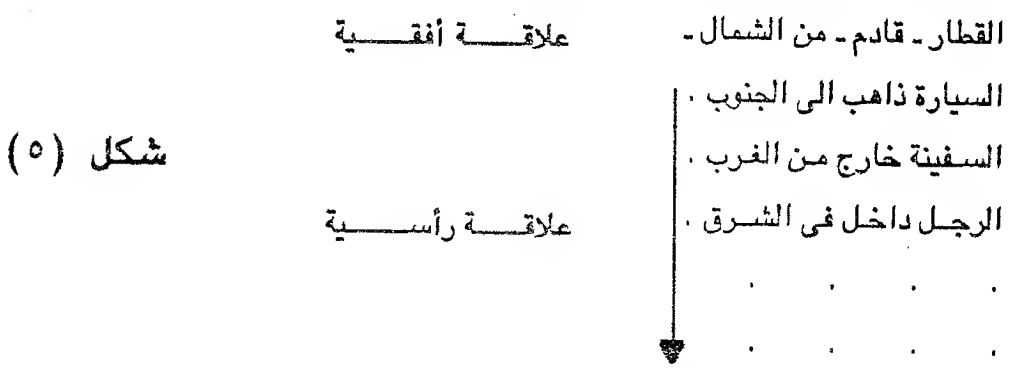

شكل (٥)

(وتوضح النقاط فى الخط الرأسى أن الفرصة متاحة لزيادة كلمة (مشابهة) للكلمة السابقة فى الخط . وهكذا إلى ما لاحصر له، على حين لايتوفر مثل هذه الفرصة فى الخط الأفقى إلا بقيود).

القيمة اللغوية : Linguistic Value *

لقد أوضح (سوسير) فى حديثه عن العلاقات بين وحدات اللغة أن اللغة تتألف من علاقات تتحدد قيمة كل علاقة منها بنوعين من العلاقة يربطانها بغيرها من العلاقات وهما : العلاقة الرأسية والأفقية . وقد عاد (سوسير) إلى هذا الموضوع مرة أخرى وبالتفصيل فى الفصل الذى جعله للحديث عن (علم اللغة الوصفى الآنى Synchronic) مقرراً منذ البداية أن وصف اللغة وصفاً لغوياً دقيقاً ينبغى أن يتم فى إطار العلاقات الأفقية والرأسية ، وأن محصلة هذا الوصف هو مايسمى : القيمة Value

القيمة والمعنى :

أوضح (سوسير) أن اللغة نظام يتألف من مفردات تتحدد قيمة كل مفردة منها بوجودها مع غيرها من المفردات على النحو الذى يوضحه الرسم البيانى الآتى :

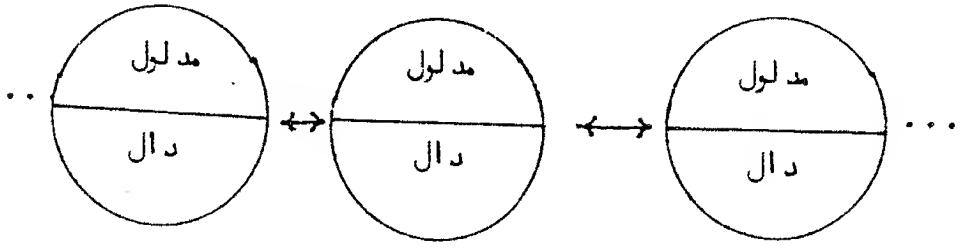

شكل (٦)

فكل دائرة من الدوائر تمثل علامة بشقيها: المدلول والدال، ويشير السهم الأفقى إلى العلاقة بين الوحدات، على حين تشير النقاط فى البداية والنهاية إلى إمكانية وضع علامات أخرى .

ويبدو أن (سوسير) قد أحس بما يمكن أن يحدث من اختلاط القيمة بالمعنى أو المدلول الذى هو قسيم الدال ، فقرر أنه من المتعذر أن نشبه العلاقات التى يمثلها فى الشكل السابق السهم الأفقى بالعلاقة التى يمثلها السهم الرأسى فى الشكل الآتى :

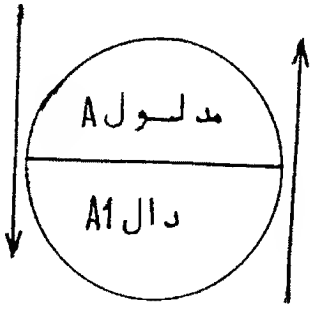

شكل (٧)

فالعلاقة بين الدال والمدلول كالعلاقة بين وجهى الصفحة أى بين A , A1

وهذه العلاقة تختلف عن العلاقة بين علامة وعلامة أخرى (أى بين دائرة ودائرة أخرى فى الرسم البيانى (٦)) أى بين C, B, A .(٤٤)

ومن هنا يتبين أن العلامة يمكن أن تعرف تعريفاً جيداً بتحديد مكانها من النظام أو القائمة التى تنتمى اليها ، وهذا - بدوره - يتحدد بدراسة علاقتها بغيرها من العلامات على المحور الأفقى والرأسى، وهذا ما يعرف بالقيمة Value

أما معنى العلامة Signification * أو مدلولها فيعرف بأنه علاقة متبادلة بين الدال (الصورة السمعية) والمدلول (المفهوم) بحيث يمكن لكل منهما أن يستدعى الاخر .

وثمة مصطلح ثالث يستخدمه (سوسير) يعنى به مجموع الأمرين معاً أى المعنى والقيمة ، وهو مايعرف بالمضمون Content .

ويلاحظ (سوسير) أن كل القيم - حتى فى خارج إطار اللغة - محكومة بالمبدأ الآتى ، إنها دائماً تتكون من :

- شىء مخالف يمكن أن يستبدل بالشىء المراد تحديد قيمته .

- أشياء مماثلة يمكن أن تقارن بالشىء المراد تحديد قيمته .

والعنصران ضروريان لوجود القيمة ، فلكى نحدد قيمة الريال مثلاً فمن الضرورى أن نعرف :- أنه يمكن أن يستبدل به مقدار محدد من شىء مخالف كالخبز أو اللبن مثلاً .

- أنه يمكن أن يقارن بقيمة مساوية من نفس النظام ، نصف ريال مثلاً ، أو بعملة أخرى من نظام آخر كالدولار مثلاً .

وبالطريقة ذاتها يقال إن أية كلمة يمكن أن يستبدل بها شىء مخالف فكرة (مفهوم) ، بالأضافة إلى أنها تقارن بشىء له نفس الطبيعة ، (كلمة أخرى) .(٤٥)

وعلى هذا فقيمة الكلمة لاتتحدد تماماً حين نقرر معناها ، بل ينبغى مقابلتها بقيم مماثلة أى بكلمات أخرى مخالفة لها . وبما أن الكلمة عنصر فى نظام فان مضمونها لايتحدد ببيان مدلولها فحسب (أى العلاقة المتبادلة بين A , A1 التى يوضحها الرسم البيانى (٧)) بل يتحدد كذلك ببيان قيمتها (أى العلاقة بين C, B, A التى يوضحها الرسم البيانى (٦)) .

وإليك المثال الآتى لتوضيح أهمية عنصر (الخلاف أو القيمة الخلافية Differential * Vdlue فى تحديد قيم الأشياء فى إطار النظام .

لنفرض أننا أردنا تعليم أجنبى الألوان فى العربية، ولنفرض أننا اخترنا اللون البنى لكى نبدأ به، ولن نتجاوزه إلى غيره من الألوان. سوف نعرض عليه أشياء بنيه اللون، وسوف نقرر له أن هذا هو اللون البنى، ثم نكرر هذه العملية حتى نتأكد من إدراكه له، وبعد وثوقنا من ذلك سوف نأخذه إلى حجرة مليئه بأشياء بنية اللون ولكن من درجات مختلفة، ثم نطلب اليه أن يلتقط الأشياء البنية اللون، سوف يشرع فى العمل، ولكنه سيجد صعوبة فيما يختار، وقد ينصرف عن المحاولة يائساً، وسوف يكون هذا هو الحال إذا ما كررنا المحاولة بنفس الطريقة، لن ينجح هذا الرجل فى عمله إلا اذا علمناه أن يميز بين البنى والأحمر، بين البنى والرمادى، بين البنى والأصفر . . الخ. وحين يدرك العلاقة بين البنى والألوان الآخرى سوف يفهم تماماً ما نعنيه باللون البنى، وذلك لأن اللون البنى ليس مفهوماً مستقلاً ذاتياً يتحدد بصفات ضرورية معينة، إنه لون من بين مجموعة من الألوان، أو عضو فى منظمة يتحدد دوره بعلاقاته بالأعضاء الآخرين .

وهكذا يتبين لنا أننا لانستطيع أن نتعامل مع العلامة على أنها حقيقة ذاتية مستقلة ، بل ينبغى النظر إليها كجزء من نظام . وهذا هو السبب الوحيد فى أننا اذا أردنا أن نعرف معنى (البنى) فعلينا أن نفهم المراد بالأحمر والرمادى والأصفر .. الخ . ولنقل بعبارة أخرى : إن مدلولات الكلمات التى تشير إلى الألوان ليست إلا نتاجاً لنظام من الفروق (الخلافات) وهكذا يكون فى كل لغة نظام مختلف من المدلولات (المفاهيم) يتألف من وحدات تتحدد قيمة كل وحدة منها بعلاقاتها بوحدات النظام الأخرى .

وإليك المثال الذى قدمه (سوسير) لتوضيح قضية القيمة فى اللغة .

"عندما نعقد مقارنة بين الكلمتين الانجليزيتين Mutton , Sheep والكلمة الفرنسية المرادفة لهما Mouton نلاحظ أن الكلمات الثلاثة لها - فى بعض المواقف - نفس المدلول أو المعنى ، لإن الكلمة الانجليزية Sheep تسمى حيواناً ، الكلمة الانجليزية Mutton تسمى وجبة معدة من لحم هذا الحيوان ، على حين أن الكلمة الفرنسية (Mouton) تصف الاثنين معاً لكن الكلمة الفرنسية ليس لها نفس القيمة التى للكلمتين الانجليزتين ، لأنها تنتمى إلى قائمة من المفردات تشمل أسماء الحيونات الحية واللحم الذى تزودنا به . بينما تنتمى الكلمة Mutton إلى قائمة من المفرادات تشمل أسماء الأطعمة ."(٤٦)

ولنأخذ مثالاً آخر من العربية .

قد يكون للضمائر: أنتَ وأنتِ وأنتما وأنتم وأنتن فى العربية الفصحى نفس المعنى الذى للضمير you فى الانجليزية المعاصرة. إذ يشار به إلى كل مخاطب بغض النظر عن العدد أو الجنس، على حين يخاطب بالضمير الأول فى العربية المفرد المذكر، وبالثانى المفرد المؤنث، وبالثالث المثنى مذكراً ومؤنثاً، وبالرابع الجمع المذكر وبالخامس الجمع المؤنث. ومع ذلك يقال إن الضمير you ليس له نفس القيمة التى للضمائر الأخرى، وان كان يؤدى معناها، وذلك أن الضمائر العربية السابقة تمثل قائمة صغيرة تتحدد قيمة كل ضمير منها بالضمائر الأخرى المشتركة معه فى القائمة ذاتها، أما الضمير you فليس عضواً فى قائمة مماثلة. ومن ثم اختلفت قيمته عنها.

الشكل والمادة :

علاقة الكلمة بالفكرة شغلت أذهان اللغويين قديماً كما شغل بها (سوسير) وعند حديثه عن القيمة اللغوية يقرر أن دراستها ينبغى أن تكون من جانبين: الأفكار والأصوات، وعنده أن الفكرة إذا ما انعزلت عن العبارة تصبح شيئاً أو كتلة Mass * غير متميزة ولا شكل لها، ويكاد يتفق اللغويون والفلاسفة - على حد قوله - على أننا لا نستطيع أن نضع حداً فاصلاً واضحاً

بين فكرتين دون أن نستعين باللغة. ومن ثم لا يعترف بوجود أفكار سابقة على ظهور اللغة، وكذلك لا يعترف بوجود وحدات صوتية مستقلة عن الأفكار التى تتصل بها. وقد انتهى - من ذلك - الى أن السمة المميزة لعلم اللغة أنه يعمل فى منطقة الحدود حيث تندمج عناصر الصوت والفكرة، ومجموعهما ينتج ما يسميه الشكل Form * ولهذا كان يردد كثيراً قوله: إن اللغة شكل Form لا مادة Substance * وأن علم اللغة يدرس الشكل لا المادة .(٤٧)

ومع ذلك فمن الضرورى هنا أن نسأل - لنزيد الأمر وضوحاً - هل من الضرورى فى تحديد قيمة الوحدة أن ندرس بناءها الصوتى ؟

ليس ذلك ضرورياً عند (سوسير)، وذلك لأن قيمة الوحدة فى علاقتها بالوحدات الأخرى، ولتوضيح ذلك يتحدث عن لعبة الشطرنج قائلاً: لنأخذ قطعة منه ولتكن (الفرس) مثلاً، ونسأل أهذه القطعة فى ذاتها (من حيث هى فرس) عنصر فى اللعبة؟ لا بالتأكيد، لأنها (من حيث هى مادة مصنوعة) إذا أخذت بعيداً عن مربعها فى اللوحة ، وفى الظروف الأخرى للعبة لا تعنى شيئاً عند اللاعب، إن هذه القطعة تصبح عنصراً حقيقياً ملموساً فحسب عندما تكتسب قيمة (عندما توضع بين غيرها من القطع). هب أن هذه القطعة تحطمت أو فقدت فى أثناء اللعب فهل يمكن أن يحل محلها قطعة أخرى مشابهة؟ نعم بالتأكيد. ولايشترط فى هذه الحال أن تكون من نفس النوع. بل قد تكون على هيئة لاتشبه الفرس أبداً، وهى تكتسب نفس القيمة اذا ماقامت بنفس الدور (أى الدور الذى كانت تقوم به القطعة المحطمة أو المفقودة) .(٤٨)

قيمة قطعة الشطرنج نتبينها إذاً فى ضوء علاقتها بغيرها من القطع أى بدراسة كيف يختلف دورها ومكانها عن أية قطعة أخرى فى إطار النظام المحدد للعبة. والأمر كذلك فيما يتصل بقيمة العلامة اللغوية الذى يحدده علاقتها بغيرها من العلامات ولايحدده مادتها أو معناها. ولهذا قرر (سوسير) غير مرة أن قيمة أى وحدة يمكن تحديدها دون أن يكون لمعناها أو لأصواتها تأثير فى ذلك ، وانما تتحدد قيمتها بعلاقاتها بغيرها من الوحدات.(٤٩)

ولعلنا مما سبق من حديث عن الجوانب المتعددة للعلامة نتبين أنها أى العلامة وحدة تجريدية وأن تعريفها يعتمد أساساً على عناصر الخلاف بينها وبين العلامات الأخرى. وهذا هو السر فى أننا نعد لفظين مثلاً وحدة لغوية واحدة مع اختلاف نطقهما بعض الاختلاف .

لنفرض أن شخصاً حدث آخر عبر الهاتف قائلاً: (رأيت جملاً ؟) فأجابه قائلاً (أين رأيت الجمل؟). يبدو من هذا الحوار القصير أن المتحدثين قد استخدما علامة واحدة (جمل) مرتين، ولعل مايعزز ذلك أننا رسمنا هذه العلامة فى الحالتين بصورة واحدة (جمل) فما الذى نعنيه بادعائنا أننا استخدمنا علامة واحدة مرتين، وعلى أى أساس اعتمد هذا الادعاء ؟

الحق أن الأصوات التى نطقها المتحدثان - إذا أردنا التدقيق فى الوصف، كانت مختلفة من حيث الجانب الفيزيائى والسمعى. ومن اليسير جداً بعد بضع كلمات بين متحدثين أن يتعرف كل منهما على صوت الآخر. ففى صوته سمات خاصة تميزه عن أصوات معارفه الآخرين. وهذا مؤداه أن المتحدثين لفظا لفظين مختلفين، ولكنهما يدعيان - مع ذلك - أنهما استخدما علامة واحدة .

لقد تجاوزنا عن الفروق الصوتية الدقيقة التى تميز أحدهما عن الآخر، وادعينا أنهما استخدما وحدة واحدة. ولكن ما الحدود التى عندها لا نتجاوز عن تلك الفروق؟ أو بعبارة أخرى، الى أى مدى تختلف الأصوات الفعلية لدال معين ومع اختلافها نعدها مثالاً أوصورة للدال نفسه؟

لقد أوضحنا سلفاً أننا نعد اللون بنياً مع أن ما نراه قد يختلف الى حد ما من حالة إلى حالة أخرى . وهكذا تختلف أصوات الدال وتتجاوز عن اختلافها ما دامت لا تختلط بغيرها من الدوال الأخرى المقابلة. لدينا إذاً حرية فى أن ننطق (جمل) بطرق مختلفة ما دام نطقها لايختلط بجبل وأمل وجُمَل ... الخ وهذا معناه أن (جمل) بهذا الاعتبار وحدة تجريدية واحدة وان اختلفت من حيث تحققها الفيزيائى أو السمعى.

والحال مع المدلول كالحال مع الدال تماماً، فهو صورة مجردة. لنأخذ مدلول (سرير) مثلاً. لدينا نحن العرب صورة مجردة عنه قد تختلف سماتها فيما بيننا بعض الاختلاف (قد

تختلف السرر حجماً أو شكلاً أو مادة) بيد أن هذه الاختلافات نتجاوزها مادامت لا تحيل صورة السرير مثلاً إلى صورة أخرى مخالفة، صورة مقعد أو أريكة أو مائدة. فالذى جعل (السرير) (سريراً) هو العناصر المميزة له عن (المقعد أو الأريكة أو المائدة) وهذه العناصر ليست وجوه الشبه بينها بل وجوه الخلاف.

يقول (سوسير) "ونحن - فى كل الأحوال لا نكشف عن مفاهيم معطاة سلفاً، بل عن قيم منبثقة عن النظام، وعندما نقول إن هذه القيم مطابقة لمفاهيم ينبغى أن ندرك أن هذه المفاهيم ما هى إلا فروق خالصة، إنها ليست سمات إيجابية Positive * تتحدد بمضمونها أو محتواها، بل سمات سلبية Negative * تتحدد بعلاقاتها بالوحدات الأخرى فى النظام إن أدق سماتها هو ما يميزها عن غيرها ، أى ما ليس فى الوحدات الآخرى المخالفة لها" .(٥٠)

«النظرة الوصفية والتاريخية»

مما يميز علم اللغة الحديث عن علوم اللغة التقليدية أنه ينظر الى اللغة نظرة وصفية تقوم على أساس الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية المدروسة فى فترة زمنية محددة فى مكان محدد. وهى نظرة استفادها أساساً من (سوسير) فى أوربا ومن (بواز) و(سابير) فى أمريكا، وفى وقت متقارب جداً .

وقد ظهر (سوسير) والمنهج التاريخى قد بلغ أوجه على أنقاض البحوث المقارنة. ولقد تبين للباحثين آنذاك أن عليهم أن يفرقوا بينهما وأن يعترفوا بأنه لا يوجد علم يسمى بالقواعد المقارنه، فهذه القواعد ليست الا طرقاً للمقارنة، وهى فى الحقيقة شكل من أشكال علم اللغة التاريخى، فاذا ما أريد بحث القواعد المقارنة لإحدى اللغات درس تاريخ هذه اللغة على هدى الطريقة المقارنة .

وقد عارض (سوسير) هذا الاتجاه المقارن، واتهم المقارنين بأنهم لم يصلوا إلا إلى فروض متعارضة ومشوشة، وأن منهجهم لم يكن تاريخياً حقاً. كما أنه عارض النحويين الشبان فى زعمهم أن الدراسة العلمية هى الدراسة التاريخية وحدها، ورأى أنهم بالغوا فى الاعتماد على دراسة اللغة عبر الزمن حتى كادوا يهملون اللغات المعاصرة تماماً. وليس يعنى هذا دعوته الى إهمال الدراسة التاريخية، لأنه كان حريصاً أشد الحرص على التفريق بين هذين المحورين من الدراسة : محور الدراسة المتعاصرة * (الوصفية) والدراسة المتعاقبة * (التاريخية) .

وقد أوضح (سوسير) أن العلاقة بين المحورين تبادلية يفسرها الرسم البيانى الآتى :

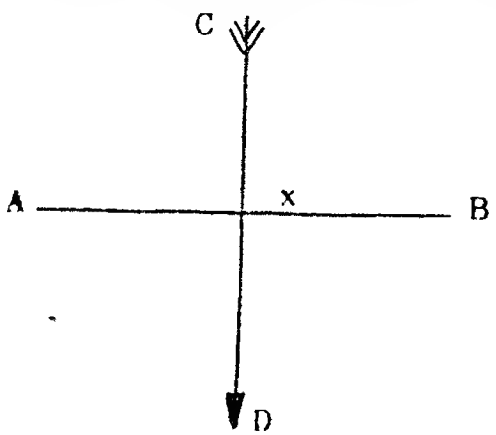

شكل (٨)

فالخط BA يمثل محور الدراسة المتعاصرة (الوصفية) ويمثل الخط DC محور الدراسة المتعاقبة (التاريخية) أى أن الخط BA يشير الى اللغة فى فترة زمنية محددة مختارة اعتباطاً عبر الخط CD أى عند X . أما الخط CD فيشير الى الزمن الذى تعبره اللغة والطريق الذى تمضى إليه .

وكل محور منهما لا يستبعد الآخر تماماً، فينبغى أن توجد نقطة تقاطع يلتقى عندها المحوران، فمن ثم أصبح من الضرورى لأية دراسة تاريخية أن تتطلب سلفاً والى حد ما دراسة وصفية .

إنه من المستبعد أن ندرس الطريقة التى تغيرت بها اللغة من حالة الى حالة دون أن نحدد ابتداء وصفاً للحالتين اللتين نعقد بينهما المقارنة

وفى ضرورة هذا التفريق يقول (سوسير) : "والتفريق بين محورى الدراسة فى العلوم المختصة بالقيم ضرورة عملية بل مطلقة أحياناً، وفى هذه المجالات لا يستطيع الباحثون تنظيم بحوثهم دون اعتبار لهذين المحورين، ودون أن يميزوا بين نظام القيم فى ذاته والقيم نفسها عندما ترتبط بالزمن، وعلى اللغوى أن يتنبه إلى هذا الفرق قبل غيره، لأن اللغة نظام من قيم خالصة لا يحددها إلا نظام عناصرها الآنى".(٥١)

ثم يقول محذراً من قيام الباحث بدراسة اللغة معتبراً المحورين فى الوقت نفسه" وكلما كان نظام القيم معقداً وصارماً كان ضرورياً - بسبب هذا التعقد البالغ - دراستُه وفقاً للمحورين السابقين، وليس ثمة نظام آخر يتضمن هذه السمة إلى هذا الحد سوى اللغة . وليس ثمة مجال آخر نجد فيه هذه القيم الدقيقة المتأصلة وهذا العدد العظيم والمتنوع من المفردات، وكلها يعتمد بعضها على بعض اعتماداً صارماً. إن تعدد العلامات يجعل من المستبعد تماماً دراسة العلاقات عبر الزمن والعلاقات فى إطار النظام فى الوقت نفسه" (٥٢)

ولكى يبين (سوسير) بصورة أوضح التقابل بين هذين المحورين المتقاطعين يفضل الحديث عن علم اللغة الوصفى (Synchronic Linguistics) وعلم اللغة التاريخى-Dia chronic Linguistics فكل ما يخص الجانب الثابت للعلم فهو وصفى Synchronic وكل ماله علاقة بالتطور فهو تاريخى Diachronic وعلى هذا النحو يفضل الحديث عن الوصفية لتشير إلى اللغة فى حالة ثبات وعن التاريخية لتشير الى اللغة فى حالة تطور .(٥٣)

ومما يؤكد أهمية الفصل بين هذين المظهرين من مظاهر اللغة، واعتماده على أساس متين أن (سوسير) يرى أن التسلسل التاريخى للحقائق اللغوية لا وجود له من حيث نظرة المتكلم الذى يواجه وضعاً لغوياً ثابتاً. وهذا هو السبب - كما يقول - الذى يجعل اللغويين الذين يرغبون فى فهم حالة ما يطرحون جانباً كل العوامل التى أدت إليها، ويتجاهلون الجانب التاريخى، إن اللغوى لا يستطيع الوصول الى عقل المتحدث الا باستبعاد الماضى تماماً. إن تدخل التاريخ يزيف أحكامه .(٥٤)

أو لنقل نحن بعبارة أبسط : على اللغوى إذا أراد أن يدرس لغة متكلم ما أن يتجاهل ماضيه اللغوى تماماً .

وقد قدم لنا (سوسير) مثالاً جيداً لعدم الخلط بين المظهرين حيث شبه اللغة بلعبة الشطرنج، ففى أثناء اللعب تتغير حالة اللوحة باستمرار، غير أننا فى أى وقت نستطيع أن نصف حالة اللوحة وصفاً كاملاً بتحديد المواقع التى تحتلها قطع الشطرنج المختلفة، ولا يعنينا والحال كذلك كيف وصل اللاعبان إلى الحالة الراهنة التى وصفناها آنفا، فقد وصفنا الحالة الراهنة للوحة دون التفات إلى أية حركة سابقة .

وهكذا يبدو لنا أن كل اللغات تتغير باستمرار مثل لوحة الشطرنج ، وكل اللغات يمكن وصفها فى وقت محدد دون الرجوع إلى أحوال سابقة كان لها تأثيرها فى الحالة المعينة الموصوفة فى الوقت المحدد، غير أن هذا لا يعنى أبداً انقطاع الصلة بين علم اللغة التاريخى

وعلم اللغة الوصفى، إذ تبين لنا مما ذكره (سوسير) نفسه اعتماد الدراسة التاريخية على الدراسة الوصفية ، لأننا لكى نتابع التطور التاريخى للغة نحتاج إلى وصف دقيق لمرحلة متقدمة ومرحلة متأخرة من تاريخ هذه اللغة .(٥٥)

وفى إطار التفريق الذى أوضحه (سوسير) بين المحورين : الوصفى والتاريخى يثير قضية التطور اللغوى والمجال الذى يحدث فيه ، أيحدث فى النظام أم فى عناصره ؟

ولعل المثال الآتى يوضح موقفه من هذه القضية .

فى الإنجليزية الحديثة بعض صيغ الجمع التى تتميز عن مفردها بتغير صوتى داخلى، فجمع Foot (Fūt) هو Feet (Fīt) وجمع goose (gūs) هو geese (gīs) وهكذا فى أمثلة أخرى . وأقدم صيغة معروفة لنا عن هذا التقابل بين الجمع والمفرد تعود إلى مرحلة مبكرة من تاريخ الأنجلو سكسونية. وهذه صورة التطور كما اقترحها (سوسير) :

مرحله أولى

الجمع	المفرد
fōti	fōt
gōsi	gōs

خضعت صيغة الجمع لتغير صوتى يعرف ب « I mutation »

عندما وقعت I بعد مقطع منبور تأثرت حركة المقطع وتأثرت الحركة الخلفية ، فتحولت الحركة الخلفية $\bar{O}$ إلى حركة أمامية $\bar{e}$ ، وهكذا أصبحت الصورة :

مرحله ثانية

الجمع	المفرد
fēti	fōt
gēsi	gōs

ثم وقع تغير ثان بمقتضاه سقطت الحركة الختامية i لتكون الصورة :

مرحلة ثالثة

الجمع	المفرد
fēt	fōt
gēs	gōs

ثم خضعت هذه الصيغ (الجمع والمفرد) لما يعرف بالتغير العظيم للحركات الإنجليزية (وقد وقع فى الإنجليزية الوسيطة) وبمقتضاه تحولت ō إلى ū و ē إلى ī ومن ثم كانت الصيغ الحديثة التى أشرنا إليها ابتداء .

ففى المرحلة الأولى ـ كما يقول كيولر ـ تميزت صيغة الجمع بوجود الحركة الختامية i ، وهذه واقعة وصفية : أى أن التقابل بين وجود وغياب i يميز الجمع عن المفرد، ثم أحدث تغيرٌ صوتى ـ لا علاقة له بالجمع أو بقواعد اللغة البته ـ تغييراً فى هذه الصيغ التى تضم الحركة الختاميه i ، هذا التغير ليس له علاقة بالجمع (لا علاقة له بالتقابل الوصفى بين الجمع والمفرد) حيث إنه وقع حين جاءت i بعد مقطع منبور. ما حدث إذاً هو أن عددا محدودا من صيغ الجمع قد تأثرت بهذا التغير، فظهرت واقعة وصفية جديدة فى مرحلة ثانية .

ثم إن بعض صيغ الجمع ـ نتيجة لحدث لا علاقه له بالجمع فى ذاته ـ نحت إلى أن تتميز بتقابل مضاعف : بين وجود وغياب الحركة الختامية i ـ كما حدث قبلا ـ وبين وجود e خاصة

بالجمع و o خاصة بالمفرد . ثم بسقوط الحركة الختامية i (التى لاعلاقة لها بالجمع فى ذاته) حدث موقف وصفى جديد. ثم إن صورة صيغ الجمع تغيرت فى أثناء حدث تاريخى . ونظراً لأنه كان ثمة فرق مازال بين صيغ الجمع والمفرد (ē للجمع ō للمفرد) فإن النظام اللغوى كان قادرا على استخدام هذا الفرق كتقابل حامل لمعنى (الجمع والافراد).

من هذا المثال يستخلص (سوسير) الحقائق الآتية :

(١) الوقائع التاريخية ـ على أية حال ـ لاتهدف إلى الإشارة إلى قيمة بواسطة علامة أخرى، فان تحول fōti مثلا إلى fēti لا علاقة له بجمع الأسماء .... إن أية واقعة تاريخية ما هى إلا حدث مستقل، والنتائج الوصفية الخاصة التى ربما تنشأ عنها ليس لها بها علاقة ألبتة .

(٢) الوقائع التاريخية لاتهدف إلى تغيير النظام ، فالمتكلمون لا يرغبون فى الانتقال من نظام من العلاقات إلى نظام آخر، ومن ثم فإن التغير لا يؤثر فى النظام ، إنه بالأحرى يؤثر فى عناصره ...

إن التقابل بين عنصرين لغويين ضرورى للتعبير عن الجمع : إما أن يكون :

ـ fōt مفرد و fōti جمع .

ـ fōt مفرد ، fēte جمع .

وكلا الإجراء ين ممكن . لكن المتكلمين انتقلوا من إجراء إلى إجراء آخر ـ إذا جاز التعبير ـ دون أن يكون لهم يد فيه . فلا أحدهما حل محل الآخر كلية ، ولانظام منهما نشأ عن الآخر، لقد تغير عنصر واحد فى النظام الأول، وهذا التغير كان كافيا لكى ينشأ نظام آخر .

(٣) وتكشف الملاحظة السابقة عن الطبيعة المستقرة للحالة الموصوفة (الظاهرة اللغوية موصوفة فى وقت محدد) .. ونحن نرى ـ على النقيض ـ بأن الحالة التى نتجت عن التغير لم يقدر لها أن تعبر عن المعنى الذى حُمِّلَتْه .

ففى الحالة المستقرة الموصوفة (fōt : fēt) استغل المتحدثون الفرق الموجود بين الصيغتين للتعبير عن الفرق بين المفرد والجمع . وليس استخدامهم fēt : fōt بأفضل من استخدامهم fēti : fōti لتحقيق هذا الغرض .(٥٦)

وينهى سوسير ملاحظاته السابقة محذراً من عواقب الخلط بين محورى الدراسة الوصفية والتاريخية ، إن محاولة توحيد الوقائع المختلفة فى علم واحد عمل غريب بالتأكيد، إن النظرة التاريخية تتعامل مع ظواهر لا ترتبط بالأنظمة وان كانت تخضع لها .(٥٧)

ثم يقول : اللغة نظام يجب دراسة عناصره فى حال بنائها الآنى: الوصفى (synchronic) وبما أن التغيرات لاتؤثر ألبتة فى النظام ككل، بل تؤثر فحسب فى عنصر من عناصره، فينبغى من ثم دراستها من خارج إطار النظام ... إن الفرق الأساسى بين العناصر المتعاقبة succesive * والعناصر المتصاحبة cooxisting * أى بين الظواهر الجزئية والظواهر التى تؤثر فى النظام يحول دون جعل هذين النوعين من الظواهر موضوعاً أساسياً لعلم واحد مستقل . (٥٧)

التغـــير اللغـــوى

المبدأ العام الذى يحكم هذا الموضوع هو أن اللغة فى تغير مستمر، لأن السكون المطلق لاوجود له ، وهذا مبدأ لا خلاف عليه، غاية ما هناك أن التغير ـ وهو أشبه بنهر يجرى ـ قد تشتد سرعته وقد تهدأ، وهذا فى ذاته ـ أمر ثانوى لا ينال من ذلك المبدأ .

وربما لا يبدو لنا التغير واضحاً، لأننا نهتم اهتماما بالغاً باللغة الأدبية * (المكتوبة) مما يجعلنا نميل إلى تحكيم قواعدها وأساليبها على اللغة العامية * (المنطوقه) واللغة الأدبية ـ بعد أن تظهر إلى الوجود ويتعزز مكانها ـ تبقى ثابتة إلى حد كبير ، وتجنح إلى أن تتماسك عناصرها . كما أن وجود نظام كتابى لها يحافظ على وجودها ويعمل على تجانسها، ومن ثم لا ينبغى أن نتوقع من اللغة الأدبية أن تساعدنا فى بيان مدى التغير الذى يمكن أن يحدث فى اللغات العامية الطبيعية متى تحررت من القيود الأدبية .(٥٨)

إن مفهوم « اعتباطية العلامة » يسيطر على كل مناحى التحليل اللغوى عند (سوسير) . وقد تبين ذلك بوضوح عند حديثه عن « العلامة اللغوية » وهو واضح أيضاً فيما نحن بصدده من حديث عن ثبات العلامة immutability * وتغيرها mutability * .

لقد انتهى (سوسير) فى حديثه المشار إليه إلى أنه لا توجد أية علاقة ضرورية مباشرة بين الدال والمدلول، فليس ثمة سبب جوهرى يفسر لنا لماذا اختير دال معين ليشير إلى مدلول معين ، وينبنى على هذا أن الجماعة اللغوية ـ من الناحية النظرية البحتة ـ يمكنها أن تستبدل بهذا الدال دالا آخر، ولكنها من الناحية الواقعية تكاد لا تفعل ذلك، فما السر؟

فى الإجابة عن هذا السؤال يقرر (سوسير) أن الدال أو اللفظ ثابت مستقر فى أذهان الجماعة التى تستخدمه ، وليس لديها الحرية فى تغييره مع أنه يبدو وكأنه اختير بحرية كاملة ، وهذا الموقف الذى يبدو فى ظاهره متناقضا أشبه بالموقف الذى تقال فيه العبارة الشائعة (الحرية المقيدة) حيث يقال: لك الحرية فى أن تختار، ثم يقال : ولكن عليك أن تختار كذا لا كذا.

وليس ثمة تناقض حيث يصف (سوسير) اللغة بهذين الوصفين ، لأنه يريد بهذا ـ كما يقول تلميذه (بالى) تأكيد أن اللغة تتغير مع أن المتكلمين غير قادرين على تغييرها. وسوف تتضح أبعاد هذا الموقف فى الفقرات التالية .

ليست اللغة مجرد اتفاق أو عقد بين أفراد الجماعة، هذا الاتفاق أشبه بالقانون الملزم منه بالعقد الحر، إذ القانون بعد أن يقبله المجتمع يصبح أمرا محتملا، وليس قاعدة يخضع لها الجميع طواعية . اللغة إذاً ليست أداة تملكها الجماعة تماماً وتسيطر عليها سيطرة كاملة، فما السبب فى ذلك ؟

كل ما نعرفه عن المجتمعات الإنسانية ـ مهما رجعنا إلى الوراء ـ أن اللغة نتاج موروث من الأجيال السابقة ينبغى قبوله . بيد أن القول بانتقال اللغة من جيل إلى جيل يثير سؤالا: ألا يمكن أن تتغير القوانين والأعراف الموروثة من وقت إلى آخر ؟

علينا ـ إذا ما أردنا الإجابة عن هذا السؤال ـ أن نضع اللغة فى إطار اجتماعى أى بعدها مؤسسة كغيرها من المؤسسات الاجتماعية ، وأن نصوغ السؤال بالطريقة الآتية :

كيف تنتقل المؤسسات الاجتماعية من جيل ألى جيل ؟

هنا يرى (سوسير) أن المؤسسات الاجتماعية ليست على سواء فيما تتمتع به من حرية، إذ تتفاوت فيما بينها تفاوتا ملحوظاً، وأقرب شىء إلى وضعها الحقيقى أنها فى حال من التردد بين العرف المفروض والفعل الحر، وهى على هذا أشبه بحال الميزان الذى لاتستقر كفتاه على حال. وهذا الوضع يحتم علينا أن نبحث فى كل حالة أو مع كل مؤسسة عن العلة التى من أجلها كان الثبات أو عامل التغير أقوى من قرينه. وفى النهاية علينا أن نرجع إلى اللغة ونسأل لماذا يسود العامل التاريخى الذى ينقل اللغة من جيل إلى جيل ويمنع حدوث أى تغير فجائى فيها ؟

ثمة أجوبة هامشية لها قيمة وإن كانت غير حاسمة، ومع ذلك يبدأ بها (سوسير) ويثنى بالأجوبة الفاصلة .

فقد قيل إن الأجيال التى تتوارث اللغة لاتتعاقب بالمعنى الدقيق بل تتداخل، ومن ثم يضم كل جيل أفرادا من الأجيال السابقة، وينبنى على ذلك أن التغير فى اللغة لايرتبط بتعاقب الأجيال، وهذا مما يرسخ الأعراف الموروثة ويحول دون تغييرها، فليست اللغة ملكا للجيل المعاصر فحسب.

وقيل إن تعلم لغة الأم يتطلب جهداً كبيراً ينبنى عليه استبعاد وقوع تغيير عام فيها .

وقيل إننا لا نستخدم اللغة على حال من التأمل فى خصائصها، فنحن بعامة لا نشعر بقواعدها، وكيف نستطيع تغييرها ونحن غير شاعرين بقواعدها ؟ وحتى إن شعرنا بها فقلما ينتهى هذا الشعور إلى موقف نقدى إزاءها حيث إن الناس بعامة قانعون باللغة التى يرثونها(٥٩) .

وهذه هى الأجوبة الفاصلة :

١- إن الطبيعة الاعتباطية للعلامة هى فى الحقيقة العامل الأول الذى يقى اللغة من أية محاولة لتغييرها، ومهما بلغ الإنسان فى إتقان لغته فلن يستطيع بحال التحدث عنها، لأن مناقشة أى موضوع تحتاج إلى أساس منطقى، قد يمكن مثلاً الجدال فى الزواج بواحدة أو بأكثر، وفى أيهما أفضل، ويمكن كذلك تقديم الأدلة لدعم هذا الجانب أو ذلك، بيد أن هذا لا يحدث فى اللغة، لأن اللغة نظام من علامات اختير اعتباطا، ومن ثم لايتوفر لها مثل هذا الأساس المنطقى ، فليس ثمة سبب يجعلنا نفضل لفظ (soeur أخت) فى الفرنسية على لفظ (Sister) فى الإنجليزية أو فى أية لغة أخرى .

٢- تتألف اللغة من نظام يضم عدداً لاحصر له من العلامات، ولوكان عدد العلامات اللغوية محصوراً لأمكن استبدال النظام بنظام آخر، كما يحدث أحيانا فى نظم الكتابة المحدودة الرموز

٣ - وليست اللغة نظاماً فحسب بل نظاماً مفرطاً فى التعقيد يخضع إلى حد ما للمنطق، ومن ثم لاسبيل أمام جماهير الناس لتغييره، إذ يتطلب التغيير فهما وتأملاً عميقين، والذين

يستخدمون النظام يجهلون أمره ولايتأملون فيه، ومن ثم لايمكن التغيير إلا بتدخل أهل الاختصاص من النحاة والمناطقة، ومع ذلك، فقد علمتنا الأيام أن مثل هذا التدخل محكوم عليه بالفشل .

٤ ـ اللغة فى كل وقت موضع اهتمام جميع الأفراد، فهى تنتشر فى المجتمع ويستخدمها الأفراد كل يوم ... ولذلك تقع دائماً تحت تأثير الناس، وهذه الحقيقة الجوهرية تكفى للبرهنة على استبعاد وقوع ثورة فى اللغة، فاللغة أقل الأنظمة اللغوية خضوعاً للتطور، فهى تمتزج بحياة المجتمع ، والمجتمع خامل بطبعه ، فهو أشد القوى محافظة .

وجماع الأمر أن اللغة خاضعة لعاملين متقابلين أحدهما يعمل على ثباتها، وهو أن اللغة ميراث العصور السابقة، ثانيهما : أن الارتباط بين القوى الاجتماعية واللغة واقع فى الزمن ومن ثم فلا مندوحة من افتراض امكانية التغيير، أو قل على سبيل التبسيط الماضى والحاضر .

«وهذان العاملان ـ كما يقول (سوسير) لا ينفصلان ، ففى كل لحظة تتقيد حرية الاختيار بفضل ارتباط اللغة بالماضى [فما زلنا نستخدم حتى اليوم الألفاظ التى استخدمها قبلنا أجيال وأجيال من الناس، فنقول بالعربية مثلاً : إنسان وكلب وماء ...] وهذا لايمنع من وجود علاقة وثيقة بين ماتين القوتين المتقابلتين فى الإطار الإجمالى لظاهرة العرف الاعتباطى الذى يتم به الاختيار الحر، والزمن الذى يجعل من الاختيار شيئاً ثابتاً، فالعلامة اعتباطية، ولهذا فهى لاتخضع لأى قانون سوى قانون العرف * ، ولما كانت تعتمد فى طبيعتها على العرف فهى اعتباطية » (٦٠)

مفهوم التغير :

لقد تبين لنا من تلك المناقشة المستفيضة لتأثير الزمن فى اللغة من حيث العمل على ثباتها باعتبارها ميراث السلف يستخدمه الخلف، ومن حيث العمل على تغييرها بفضل القوى الاجتماعية الفعالة، وأن ليس ثمة تناقص فى نسبة هذين الوصفين إلى اللغة . وقد اتضح مفهوم الثبات جيدا فى الفقرات السابقة فما المقصود بالتغير ؟

قد يعنى التغير الصوتى الذى يلحق الدال، وقد يعنى التغير فى المعنى الذى يلحق المدلول، ولكن (سوسير) يفضل الحديث عن التغير فى العلاقة بين الدال والمدلول على اعتبار أن أى تغير فى أحدهما يؤدى حتما إلى تغيرها .

واللغة لاحول لها بإزاء القوى التى تحدث التغيير بين وقت وآخر، وذلك لأنها تختلف عن النظم البشرية الأخرى - كالتقليد والقوانين التى قد تستند بدرجات متفاوتة إلى العلاقات الطبيعية للأشياء - بأنها لا تتقيد ألبتة فى اختيار وسائلها، إذ لايوجد سبب يمنع من قيام علاقة بين أية فكرة وأى لفظ .

إن اللغة - كما يقول (سوسير): تتغير أو تتطور تحت تأثير كل القوى التى يمكن أن تؤثر فى الألفاظ أو فى المعانى، فالتطور أمر لامحيد عنه، وليس ثمة لغة فى العالم تستطيع أن تقاومه.(٦١)

ومما يدعم نظرة (سوسير) إلى التغير باعتباره أمراً لامحيد عنه أن اللغات الاصطناعية تخضع له أيضاً، وقد تنبأ للغة (الإسبرانتو) * التى كانت قد بدأت تشيع فى عصره بهذا المصير، وقال عنها: وأغلب الظن أن (الإسبرانتو) بعد أن توضع قيد الاستعمال وتدخل فى إطار الحياة الكاملة للعلامة تخضع لقوانين جديدة تختلف عن تلك القوانين المنطقية التى وضعت لها ابتداء، إن الذى يقترح لغة ثابتة تستخدمها الاجيال المقبلة، وتقبلها على طبيعتها الأولى مثله كمثل الذى يضع تحت الدجاجة بيضة البط، فاللغة التى يبتدعها سوف يجرفها التيار الذى يجرف بقية اللغات.(٦٢)

الزمن إذا عامل فعال فى التغير، إن الزمن يغير كل شىء ، وليس ثمة سبب يجعل اللغة لا تخضع لتأثيره، بيد أن نظرتنا إلى التغيير لن تكون كاملة إلا إذا وضعنا اللغة فى إطار المجتمع الذى يستخدمها، فالطبيعة الاجتماعية للغة هى إحدى خصائصها الداخلية، ومن ثم يتطلب تعريفها الكامل عنصرين لا يمكن الفصل بينهما ، والرسم الآتى يوضح ذلك تماما .

شكل (٩)

وسوف يتضح الموضوع تماما إذا أضفنا إلى العنصر الاجتماعى عنصر الزمن، وفى ذلك يقول (سوسير): إن مايحول دون اعتبار اللغة مجرد عرف بسيط يمكن تغييره تبعاً لأهواء الجماعات المعينة ليس الطبيعة الاجتماعية للغة بل هو عمل الزمن مضافاً إليه القوى الاجتماعية، فإذا أهملنا الزمن أصبحت الوقائع اللغوية ناقصة. وصعب علينا الوصول إلى نتيجة، وإذا نظرنا إلى اللغة فى إطار الزمن وأهملنا مجتمع المتكلمين فربما لا نلاحظ أى تغيير، فالزمن لن يؤثر فى اللغة [وهذا هو الحال فيما لو افترضنا شخصا معزولا يعيش وحده منذ قرون]. أما إذا اعتبرنا مجتمع المتكلمين وأهملنا الزمن فلن نرى أثر القوى الاجتماعية فى اللغة، وإذا أردنا أن نذكر كل الحقائق فعلينا أن نضيف إلى الرسم السابق سهما يشير إلى الزمن على النحو التالى(٦٢)

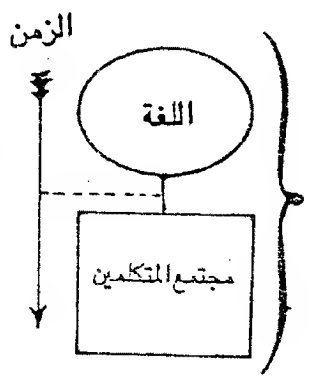

شكل (١٠)

وهكذا يتضح لنا أن اللغة خاضعة لعاملين متقابلين أحدهما يؤدى إلى ثباتها والآخر يؤدى إلى تغييرها وأن الأمر فى النهاية يتوقف على العامل الذى تكون له السيادة فى موقف دون موقف، وسوف تتضح أبعاد هذه المواقف عند الحديث عن أسباب التغير فى الفقرات القادمة .

مستويات التغير :

يلحق التغير عناصر اللغة المختلفة ، ولا يقتصر على العنصر الصوتى، فالألفاظ تتغير مدلولاتها، والأبواب النحوية تتغير كذلك، فقد يختفى بعضها وتختفى معه أبنيته وصيغه، كما حدث للمثنى فى اللغة اللاتينية، بيد أن التغير الصوتى له مكانة خاصة فى البحث التاريخى، لذا فالأصوات هى الموضوع الأول لهذا البحث.

وتغير الأصوات ـ فى الحقيقة ـ لا يلائم مفهوم الحالة اللغوية الثابتة التى هى موضوع الدراسة الوصفية الآنية. كما أن المقارنة بين الوحدات الصوتية أو مجموعاتها فى فترتين يعنى قيام دراسة تاريخية، ومن ثم فإن (سوسير) على خلاف الشائع بين اللغويين يجعل التغير الصوتى موضوعا لما يسمى (علم الاصوات Phonetics*) أما وصف الأصوات فى حالة لغوية ثابتة فمن اختصاص ما يسمى (علم الفونولوچى : وظائف الاصوات Phonology*)

وفى ذلك يقول : وغالبا ما يدعى الجانب الفسيولوچى للأصوات بعلم الأصوات Pho-netics ويبدو لنا أن هذا المصطلح غير مناسب ، وسوف أستعمل بدلا منه مصطلحا آخر هو علم الفونولوچيا phonology ذلك أن علم الاصوات إذن علم تاريخى يحلل وقائع وتغيرات عبر الزمن، أما الفونولوچيا فهى خارج الزمن، لأن عملية النطق الآلية تظل دائماً دون تغيير.(٦٤)

إن تغير الأصوات مع مرور الزمن يلائم تماما المبدأ القائل بأن كل ما هو صوتى ـ أى بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ـ ليس دلاليا ولا نحوياً، ومن ثم فنحن نستطيع ـ عند دراستنا لتاريخ الأصوات ـ أن نهمل هذا المعنى ، ونقتصر فحسب على دراسة الغلاف المادى للكلمة، ومن ثم يمكننا أن نجزئها إلى عناصر دون أن نهتم بما يعنيه كل عنصر منها .

والتغير الصوتى ـ وإن كان يؤثر فى التطور عادة ـ لا يمكن أن يفسر التطور اللغوى من جميع جوانبه، فإذا ما استبعدنا الجانب الصوتى من التغيير بقيت لدينا جوانب تسوغ لنا ما يمكن أن يسمى «تاريخ القواعد» وهنا تكمن المصاعب الحقيقية فى البحث اللغوى التاريخى.(٦٥)

التغير الصوتى وعلاقته بالنظام :

يبدو أن التفرقة بين ما هو دراسة وصفية آنية وما هو دراسة تزامنية تاريخية كان يتطلب من (سوسير) دراسة موسعة لم يجد لها مجالا فى محاضراته ، ومع ذلك فإن تلميذه (بالى) يضيف فى هامش من هوامش المحاضرات شيئاً آخر بالإضافة إلى ما ذكره (سوسير) ذلك أنه لم يتناول قط فى محاضراته مايتصل بعلم لغة الكلام، وينبه إلى أن أية صيغة جديدة تنشأ دائما من سلسلة من الوقائع الفردية ، ومن ثم فقد رفض أن يصنف هذه الوقائع على أنها جزء من القواعد، لأن الواقعة الفردية المعزولة هى - بالضرورة - حالة طارئة على اللغة وعلى نظامها الذى يعتمد على مجموعة من الأنماط الجماعية ، ومادامت هذه الوقائع جزءاً من الكلام فهى خاصة جداً ، وهى استعمالات خارجة على النظام القائم ، ولكن عندما تستقر صيغة أو واقعة جديدة فى الذاكرة بسبب استعمالها المستمر، تصبح جزءاً من النظام . وتحدث إذ ذاك تغيراً فى ميزان القيم ، ومن ثم تتغير اللغة بسبب هذه الواقعة ذاتها. ويمكننا كذلك أن نطبق ما قلناه عن التطور الصوتى على التطور فى القواعد، والنتيجة النهائية للتطور الأخير تكون خارج النظام ، لأن النظام لا يلاحظ أبداً فى أثناء تطوره بل يختلف من لحظة إلى أخرى .(٦٦)

التغير الصوتى مطرد * :

التغير الصوتى لا يؤثر فى الكلمات بل فى الاصوات، فالذى يتغير هو الوحدة الصوتية أو الفونيم Phoneme * وهذا التغير - مع أنه عملية مفردة منعزلة عن غيرها شأنها شأن بقية العمليات الواقعة فى فترات - يظهر أثره فى جميع الكلمات المماثلة التى تظهر فيها نفس الوحدة الصوتية، وبهذا تصبح التغيرات الصوتية منتظمة باطراد مطلق، ففى اللاتينية مثلاً تغير صوت S الواقع بين صائتين ليصبح فى فترة أخرى r كما فى genesis ← generis* (٦٧)

التغيرات الصوتية مطلقة أو مشروطة :

إذا تفحصنا المثال اللاتينى السابق تبين لنا أن التغيرات الصوتية ليست مطلقة * دائماً بل إنما تجىء فى أغلب الأحوال مشروطة * بشروط محددة ، فالذى تغير حقيقة هو الوحدة

الصوتية كما وردت فى موقع محدد بشروط محددة مرتبطة بالعناصر المحيطة به كالنبر * مثلاً فالصوت S فى اللاتينية لا ينقلب إلى r إلا إذا وقع بين صائتين * أما فيما عدا ذلك فيبقى على حاله دون تغيير كما فى Senex equos ... إلخ . أما التغيرات المطلقة التى لا تتقيد بشروط محددة فهى نادرة جداً ، ومثل هذه التغيرات التى قد تبدو مطلقة ليست كذلك ، وقد يرجع ذلك إلى أن طبيعتها غير واضحة أو أن شروطها غامضة، وهذا هو الحال فى الوحدة الصوتية i فى الألمانية التى أصبحت ei ثم أصبحت ai فى المقاطع المشددة * فحسب (٦٨) .

بيد أن (سوسير) لا يرتضى تصنيف التغيير إلى مطلق ومشروط ، لأنه يستند إلى نظرة سطحية للأمور ، ويقترح تصنيفاً آخر أكثر منطقية وملاءمة للاتجاه السائد فى عصره ، ذلك أنه يقول بصنفين من التغير أولهما التغير التلقائى Spotaneous* والتغير المترابط Combinatory* وتعد التغيرات تلقائية إذا كان سببها داخلياً internal ومترابطة عندما تنشأ عن وجود فونيم آخر أو أكثر .

مثال ذلك انتقال الفونيم o من الهندية الأوربية الأولى ليصبح a فى اللغات الجرمانية، وهذا تغير تلقائى ، أما انتقال الصوتين Pt, Ct من اللاتينية إلى الإيطالية وظهورها فى هيئة tt فتغير مترابط ، لأن الصوت الأول اندمج فى الثانى .

---

* من المعروف أن العامية المصرية فقدت فونيم (الثاء) وحل محله فونيم (التاء) فى الكلمات التى كانت تتضمنه فى الفصحى نحو : ثمن ← تمن وثلاثه ← وتلاته وثعبان ← تعبان .. الخ كما فقدت فونيم (الذال) وحل محله فونيم (الدال) فى الكلمات التى كانت تتضمنه فى الفصحى نحو : ذيل ← ديل وذراع ← دراع وذقن ← ودقن .. الخ.

وهذه الأمثلة توضح ما أسماه اللغويون بالتغير المطرد غير المشروط.

وثمة استثناءات على هذا التغير المنتظم المطرد لها تفسير علمى متفق عليه ، وانظر (٦٩)

ومن المعروف كذلك أن تاء الافتعال تقلب طاء إذا سبقها صوت مفخم نحو : اضترب ← اضطرب واصتبغ ← اصطبغ .. الخ هذا إذا اعتبرنا أن التاء كانت أصلاً واقعياً (لامفترضا) فى مرحلة من مراحل تاريخ العربية، وهذا مثال لماسماه اللغويون التغير الصوتى المشروط .

ثم يخلص من مناقشته لأمثلة متعددة للنوعين إلى أن الظاهرة المترابطة تكون مشروطة دائماً، أما الظاهرة التلقائية فليست مطلقة بالضرورة ، لأنها ربما تكون مشروطة بشرط سلبى مثل عدم وجود عامل من عوامل التغير .(٧٠)

وينبنى على تفرقة (سوسير) بين ماهو تلقائى ومترابط نتائج تتعلق بالدراسات اللغوية التاريخية، وعلى سبيل المثال يفرض (سوسير) على اللغوى أن يحلل مراحل التحول فى الأصوات ولا يخلط بين النتيجة الوسيطة والمباشرة . فمن الخطأ أن يفسر استخدام الصوت r فى genesis ـــــ generis اللاتينية بأن الصوت s أصبح r حين وقع بين صائتين، وذلك لأن الصوت s ليس حنجرياً * ، ومن ثم لا يمكن أن يتحول مباشرة إلى r إن هذا التغير يضم واقعتين: فقد تغير s إلى z أولاً تغيراً مترابطاً ثم حل محل هذا الصوت صوت آخر مقارب له وهو r ، وذلك لأن النظام الصوتى فى اللاتينية قد سقط منه صوت z وهذا تغير تلقائى، ومن ثم يكون خطأ خطيراً أن نعد الواقعتين المتغايرتين واقعة واحدة، فالخطأ - من ناحية - يرجع إلى خلط النتيجة الوسيطة بالنتيجة المباشرة أى بتغير s إلى r بدلاً من تغيرها إلى z ومن ناحية أخرى باعتبار الواقعة النهائية مترابطة على حين لايصح ذلك إلا فى الجزء الأول فقط .(٧١)

التغير الصوتى غير محدود :

إذا حاولنا أن نجزم إلى أى مدى يمكن أن تصل إليه التغيرات الصوتية فسوف ندرك فى الحال أن هذة التغيرات لاحد لها، ولايمكن قياسها. أى ، أننا لا نستطيع أن نتنبأ بالحد الذى تقف عنده. ومن السخف أن نتصور أن الكلمة تتطور إلى حد معين لا تتجاوزه كما لو كانت تتضمن شيئاً يمنعها من ذلك. إن التغيرات الصوتية تستمد طبيعتها من اعتباطية العلامة اللغوية التى ليس لها ارتباط بالمعنى على أية حال. قد يحدث أن نلاحظ تغيراً صوتياً فى مرحلة من المراحل ونحدد مداه، لكننا لا نستطيع أن نحدد سلفا ما سيكون عليه شكل الكلمة. ومما يُصعِّب الوصول إلى حدود للتغير أن الظاهرة اللغوية قد تلحق كل أنواع الرموز بغير تفريق بين الجذور* والزوائد* وليس للنحو أن يتدخل هنا، وإلا اختلطت الظاهرة الصوتية التاريخية بالحالة التزامنية، وهو أمر يستبعد من حيث الأساس، ومن ثم جاز لنا أن نقول إن للتطورات الصوتية طبيعة عمياء .(٧٢)

أسباب التغير الصوتى :

ازدهر علم اللغة التاريخى فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ازدهاراً ملحوظا، وكان موضوع التغير اللغوى محور البحث آنذاك ، فشغل اللغويون بالبحث فى طبيعته ومستوياته وآثاره ، وكان البحث فى أسباب التغير بعامة والصوتى بخاصة من أعقد جوانب هذا البحث، فقد اقترحت له تفسيرات متعددة وقدمت فيه نظرات مختلفة لم يكن أغلبها علميا بالمعنى الدقيق، ومع كثرة هذه البحوث وتنوعها ظل الموضوع غامضا لم تهتك حجبه ولم تتضح أسراره، لأن هؤلاء اللغويين كانوا يتطلعون إلى تقديم تفسير كامل ينطبق على كل اللغات، بيد أن اللغويين المحدثين استخلصوا من هذه البحوث ومما دار حولها من جدل مجموعة من المبادىء العامة التى تكشف عن طبيعته وتعين على فهمه فهما مقاربا للصواب، ومما قالوه فى ذلك :

١ ـ أن التغير الصوتى يسير ببطء وتدرج ، ومن ثم يستغرق وقتا طويلاً ، وقد يمضى جيل أو أجيال ولا يلاحظ فى اللغة تغير صوتى واضح، وهذا مؤداه أنه لايخضع تماما للملاحظة العلمية المباشرة . انظر ص ٥١ ، ٥٢

٢ ـ أنه يخضع لقوانين مطردة صارمة . انظر ص ٥٨ ، ٥٩

٣ ـ أنه يحدث بطريقة آلية لادخل فيه للإرادة الإنسانية ، أى أنه ليس عملاً فردياً مقصوداً . انظر ص ٥١ ، ٥٢

٤ ـ أنه فى غالب الأحوال مقيد بزمان ومكان محددين . ولانكاد نعثر على تطور صوتى تناول جميع اللغات الإنسانية فى صورة واحدة . انظر ص ٥٨ ، ٥٩

٥ ـ أنه إذا لحق صوتا معينا فى بيئة معينة امتد أثره إلى الكلمات التى تتضمن هذا الصوت وعند جميع أفراد الجماعة المعينة . انظر ص ٥٨ ، ٥٩

ولعله قد تبين من خلال هذه المبادىء أن (سوسير) قد عرض لها على نحو واضح فى تضاعيف بحثه عن التغير الصوتى ، وسوف يزداد هذا الأمر وضوحا فى الفقرات الآتية .

عرض (سوسير) فى الفقرة الرابعة من الفصل الثانى من الجزء الخاص بعلم اللغة التاريخى المقترحات التى كانت شائعة فى عصره لتفسير التغير الصوتى عرضا مفصلا ونقدها نقداً مستنيراً، وقد ظهرت آثار هذا النقد فى بحوث اللغويين الخالفين الذين استفادوا من ملاحظاته فائدة كبيرة لاسيما (جسبرسن) الذى اعتمد عليه اللغويون العرب المحدثون عند عرضهم لهذا الموضوع كالدكتور ابراهيم انيس فى (الأصوات اللغوية) والدكتور عبد الرحمن أيوب فى (اللغة والتطور) ، وهذه هى المقترحات كما عرضها ونقدها (سوسير) .

أولا : بعض الباحثين يزعم أن الخصائص العرقية تحددسلفا الاتجاه الذى يسير فيه التغير الصوتى، وهذا يقتضى أن يختلف الجهاز الصوتى من جنس إلى جنس، وليس هذا صحيحاً على أية حال، فالطفل الزنجى إذ ولد بين فرنسيين وعاش بينهم سوف يتكلم الفرنسية كما يتكلمها الفرنسيون، ومن ثم لا يجوز نسبة سمات معينة إلى جهاز صوتى فى شعب معين، أو الادعاء بأنه يستطيع أن ينتج أصواتا بعينها أو لا يستطيع أو يستحب أصواتا ويكره أخرى ألخ فالأمر مرده - فى النهاية - إلى عادات نطقية * وليس للجنس دور فى تغييرها .(٧٣)

ثانيا : ويزعم آخرون أن التغيرات الصوتية ناشئة عن التكيف مع ظروف البيئة الطبيعية والمناخ، ويقولون مثلا إن بعض اللغات الشمالية تكثر فيها الأصوات الصامتة * فى حين تكثر الصوائت فى بعض اللغات الجنوبية، وربما يكون لهذه الظروف تأثير عام فى اللغة، بيد أن المشكلة سوف تتعقد كلما توغلنا فى التفاصيل، فربما تتوفر الظروف الآنفة الذكر ولايحدث التغيير، وقد يحدث التغيير فى غير الظروف المقترحة .(٧٤)

ثالثا : فسر التغير بعض الباحثين بقانون الاقتصاد فى الجهد * ومؤداه أن اللفظتين قد يستبدل بهما لفظ واحد، وأن اللفظة الصعبة قد يحل محلها لفظة أخرى أسهل منها. وهذا التفسير - مهما قيل عنه - يستحق الدراسة فقد يوضح سبب التغير فى بعض الحالات أو يشير إلى الاتجاه الذى ينبغى أن يتخذه الباحث اللغوى .

هذا وقد نجح بعض الباحثين فى تفسير تحول بعض الأصوات المجهورة * إلى أصوات مهموسة * أو العكس لكى يتم التماثل فى الموقع المحدد، لكن ثمة حالات أخرى تخالف هذا المبدأ، كما أنه لا يمكن الإقرار بأن الصوت المجهور فى كل حال أسهل من المهموس أو يتطلب جهداً أقل ، ففى الألمانية مثلا تحولت الأصوات b d g وهى مجهورة إلى نظائرها المهموسة p t k . كما أن الاختصار فى طول الصوت يعنى الاقتصاد فى الجهد بالمفهوم الزمنى، وقد يقال أيضا إن الأصوات الطويلة ربما تكون حيث يقل الاهتمام على حين قد تتطلب الأصوات القصيرة جهداً أكبر . وعلى أية حال فهذا التفسير يتطلب دراسة شاملة تضع فى اعتبارها النواحى العضوية والنفسانية المتصلة بالتغير .(٧٥)

رابعا : وثمة تفسير آخر ينسب التغيير إلى ما يربى عليه الطفل من نطق معين، فقد ينجح الطفل فى استعمال لغته بطريقة صحيحة، ولكنه قد يخطىء فى نطق صوت معين، ويستمر استعماله له دون تصحيح ثم يتعزز هذا النطق ويثبت فى الجيل التالى. والحق - كما يقول (سوسير) أن هذا التفسير كغيره من التفسيرات السابقة يترك المشكلة من غير حل ، وليس لدينا فكرة واضحة عن الأسباب التى تؤدى بجيل من الأجيال إلى أن يترك ما اعتاده من نطق ويتبنى تلك الأخطاء، ولماذا يظهر ذلك فى وقت دون آخر، وهذا الأمر الأخير ينسحب على الأسباب الأخرى آنفة الذكر، فهذه الأسباب كلها عوامل ثابتة طويلة الأمد فلماذا تعمل فى فترة دون أخرى ؟ ولماذا تؤثر فى هذا الجانب من النظام الصوتى تارة وتؤثر فى جانب آخر تارة أخرى، وهذا هو أعقد ما فى المشكلة .(٧٦)

خامسا : ويعزو بعضهم التغيرات الصوتية إلى الفترات المضطربة فى تاريخ الأمة، وحاولوا بهذه الطريقة أن يجدوا صلة بين الاضطراب السياسى والاضطراب اللغوى، وبعضهم

يقول مثلا: إن أحفل فترة بالتغيرات الصوتية فى أثناء تطور اللاتينية إلى اللغات الرومانسية كانت فترة من أشد فترات تاريخ المنطقة اضطرابا، بيد أن (سوسير) لايرتضى هذا التفسير، وليس ثمة تأثير متبادل، وغاية الأمر أن الاستقرار السيـ سى قد يضعف من سرعة التطور، وهذا عامل إيجابى، والاضطراب السياسى قد يقوى من سرعته، وهذا عامل سلبى، وهذان العاملان خارجيان، وقد تنضم إليهما عوامل أخرى (مثل إنشاء المدارس والجامعات وابتداع نظم للكتابة ... الخ) وفى النهاية يقرر (سوسير) أنه لا صحة للاعتقاد القائل بأن التطورات الفجائية فى لغة معينة تتفق مع التغيرات المضطربة فى تاريخ الأمة ويؤكد أن التغير الصوتى يقع فى الفترتين كلتيهما على سواء .

ومع ذلك فإنه يقرر أن هذا العامل - إذا ما استبعدنا الجانب الصوتى - عامل مؤثر فى الجوانب اللغوية الأخرى. فالقواعد لها ارتباط وثيق بالفكر، ومن ثم سهل تأثرها بالثورات الخارجية التى لها رد فعل مباشر على العقل .(٧٧)

سادسا: وبعض التغيرات قد تنجم عن السكان الأصليين الذين خضعوا لسيطرة السكان الجدد، واستعملوا لغتهم ، غير أن أصحاب هذا التفسيروهو ما يعرف بـ Linguistic substratum* الطبقة اللغوية التحتية) يفترضون ظروفا قلما تجتمع، ومع ذلك فإن (سوسير) يعتد هذا التفسير تفسيرا مقبولا وطبيعيا إذا كان المقصود به أن السكان الأصليين يتقبلون اللغة الجديدة ويتحدثون بها ، ومن ثم تتأثر بعاداتهم النطقية. أما إذا عدنا إلى العوامل العرقية التى لا يمكن التنبؤ بآثارها فإننا نقع مرة أخرى فى خطأ كبير.(٧٨)

سابعا: نأتى إلى التفسير الأخير، وإن كان لايستحق - كما يقول (سوسير) أن ندعوه تفسيراً، يذهب أصحابه إلى تشبيه التغيرات الصوتية بتغيرات المودة أو الأزياء. هذا ولم يستطع أحد من هؤلاء أن يقدم لنا سببا لهذه التغيرات، وكل ما نعرفه أنها تعتمد على المحاكاة أو التقليد* ، وهذا مجال يختص به علماء النفس. وهذا التفسير - وإن لم يحل المشكلة التى نحن بصددها - يتميز بأنه وضعها فى إطار أوسع، ويفترض أساسا سيكلوجيا للتغير الصوتى، ولكن من أين يبدأ التقليد؟ وكيف يكون؟ هذا سر غامض فى الأمرين معاً: التغير الصوتى والمودة.(٧٩)

(السيميولوچيا (علم العلامات

خص (سوسير) علم السيميولوچى (Semiology علم العلامات *) بفقرات قليلة جداً من كتابه الشهير (محاضرات فى علم اللغة العام) . وهذا ـ بلاشك ـ من الأسباب التى جعلت اللغويين بعامة يهملون اقتفاء خطواته فى تطوير هذا العلم الجديد، لكى يحدد ويوجه علم اللغة. ومع ذلك فإن نظراته التأملية فى علم العلامات تعد مركزية لأية دراسة هامة للغة .

لقد بدأ علماء اللغة وعلماء الأنثروبولوچيا يدركون أهمية هذه النظرات بعد ربع قرن من نشر محاضراته، وبدوا وكأنهم يكتشفونها لأول مرة. والحق أن مايسمى الآن بنيوية Structu-ralism قد نشأ وتطور عندما رأى علماء الأنثروبولوچيا ونقاد الأدب وغيرهم أن علم اللغة يمكن أن يساعدهم فى تطوير علومهم الخاصة، وعندما رأوا أن علم اللغة يعد مثالاً صالحاً لهذا التطوير. وإلى الأنثروبولوچى الشهير (ليفى ستروس) يعود الفضل فى إرساء الاتجاهات المعاصرة لعلم العلامات حين كتب مقاله الشهير عن "التحليل البنيوى فى علم اللغة وعلم الأنثروبولوچيا عام ١٩٤٥، وفى هذا المقال رسم بالفعل وحدد مفاهيم ومناهج علم اللغة التى على أساسها أرسى قاعدته الخاصة بالبنيوية .

وفى عام ١٩٦١ ألقى محاضرة فى (الكوليج دى فرانس) عرّف فيها علم الأنثروبولوچيا بأنه فرع من علم العلامات، وأظهر تقديراً خاصاً بالغاً لسوسير ـ وعده واضع الأصول الخاصة بالمفهوم الصحيح للأنثروبولوچيا.(٨٠)

وقد رأيت تعميماً للفائدة أن نبدأ هذا الفصل بترجمة كاملة لتلك الفقرات السابقة التى خص بها (سوسير) علم العلامات والتى سيدور حولها البحث أساساً فى هذا الفصل، أما ملاحظاته الأخرى والتى جاءت عرضاً فى كتابه فسوف نستشهد بها فى مواضعها.

يقول (سوسير) فى الفقرة الثالثة من حديثه عن "هدف علم اللغة" :

"إن الخصائص السالفة تكشف عن خصيصة بالغة الأهمية ، فاللغة - لا الكلام - من بين الظواهر الإنسانية هى مايمكن وصفه وتصنيفه. لقد رأينا أن اللغة جهاز اجتماعى، لكن ثمة خصائص متعددة تفصلها عن الأجهزة الأخرى: السيـ سية أو القانونية ..الخ وعلينا أن نبحث عن نوع جديد من الظواهر لكى نوضح الطبيعة الخاصة باللغة".

اللغة نظام من علامات يعبر عن أفكار، ولهذا فهى مماثلة لنظام الكتابة * ، لأبجدية الصم البكم * ، للطقوس الرمزية * ، لصيغ المجاملة والتأدب * ، للاشارات العسكرية * ... لكنها - مع ذلك - أهم هذه الأنظمة .

لقد أصبح ممكناً الآن الحديث عن علم يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، قد يكون هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعى ومن ثم جزءاً من علم النفس العام، وسوف أسميه السيميولوچيا Semiology (علم العلامات). (من الكلمة اليونانية Semeion بمعنى علامة) والسيميولوچيا أوعلم العلامات ربما يوضح لنا ماهية العلامات والقواعد التى تحكمها . ولأن هذا العلم لم يكن بعد، فلا أحد منا قادر على أن يتوقع ماسيكون عليه، ولكنه علم له الحق فى الوجود، ولقد وُضعت لبنة من لبناته. وعلم اللغة ليس إلا قسماً من علم العلامات العام وسوف تنطبق القوانين التى يكتشفها على علم اللغة، وهذا العلم الأخير: علم العلامات سوف يُحدد مجاله تحديداً جيداً فى إطار مجموع الظواهر الانسانية. وسيكون من مهام عالم النفس تحديد المكان الصحيح لعلم العلامات* ، أما مهمة اللغوى فهى اكتشاف ما يجعل من اللغة نظاماً خاصاً متميزاً بين مجموع الظواهر السيميولوچية. وهذه المقولة سوف نتعرض لها فيما بعد، وحسبى هنا أن أوجه الانتباه الى أمر واحد: إذا ما كنت قد نجحت فى وضع علم اللغة بين العلوم فهذا - فحسب - عائد الى أننى قد ألحقته بعلم العلامات .

لماذا لم يعرف علم العلامات حتى الآن كعلم مستقل له موضوعه المتميز كغيره من العلوم؟ لقد كان اللغويون يدورون فى حلقات مفرغة، فاللغة - من جانب - تقدم - بصورة أفضل من أى

---

* لا ينبغى أن يختلط مفهوم علم العلامات Semiology بمفهوم علم الدلالة Semantics الذى يدرس تغيرات المعنى . وهذا العلم لم يعالجه سوسير منهجياً (وادباسكين) .

شيء آخر - أساساً لفهم القضية العلاماتية ، ولكنها - من جانب آخر - ينبغى أن تدرس فى ذاتها إذا ما أريد وضعها فى موضعها الصحيح، لقد كانت تدرس غالباً من حيث علاقتها بظواهر أخرى ، ومن اتجاهات مغايرة لهذه النظرة .

لدينا - هنا - مفهوم سطحى عن اللغة يتبناه عامة الناس، فاللغة عند هؤلاء ليست إلا نظاماً لتسمية الأشياء (انظر P, 65) وتحول هذه النظرة دون البحث فى طبيعتها الحقيقية.

ثم إن هناك نظرة عالم النفس الذى يدرس آلية العلامة Sign - mechanism* عند الفرد، وهذه النظرة أيسر منهجاً ، ولكنها لا تتجاوز مجال الأداء الفردى ولا يتعرض عالم النفس للعلامة التى هى فى طبيعتها اجتماعية. وحتى عندما تدرس العلامة من وجهة نظر اجتماعية ، فان السمات المشتركة بين اللغة والأنظمة الاجتماعية الأخرى - والتى هى بشكل أو بآخر من اختيارنا سمات مؤكدة .وكنتيجة لذلك فقد كان تحقيق هذا الهدف بعيد المنال، إذ تجوهلت تماماً السمات الخاصة بالأنظمة العلاماتية بعامة وبالأنظمة اللغوية بخاصة. ذلك أن السمة المميزة للعلامة - وإن لم تكن واضحة لأول وهلة - هى أنها - بطريقة ما - تستبعد دائماً الارادة الفردية أو الاجتماعية. وباختصار السمة التى تميز الأنظمة العلاماتية من بين كل الأنظمة الأخرى لاتظهر بوضوح إلا فى اللغة فحسب، حيث تَتَبَدَّى ذاتُها أيضاً فى أشياء لم تدرس دراسة كافية، ومن ثم فلم نتبين بوضوح القيمة الضرورية أو المميزة لعلم العلامات .

وعندى أن قضية اللغة قضية علاماتية أساساً، وكل التطورات استمدت أهميتها من تلك الحقيقة الهامة. واذا ما اكتشفنا الطبيعة الحقيقية للغة فعلينا أن نعرف الجوانب المشتركة بين كل الأنظمة العلاماتية، ومن ثم فإن العناصر التى قد تبدو هامة - لأول وهلة - (مثل دور أعضاء النطق) سوف تحظى باهتمام ثانوى إذا ما أدت الى عزل اللغة عن الأنظمة الأخرى . وهذا الاجراء يقوم بدور أكبر من مجرد توضيح القضية اللغوية، فبدراسة الطقوس والعادات كعلامات سوف تلقى ضوءاً جديداً - فيما أعتقد - على تلك الظواهر وتبرز الحاجة إلى إدخالها فى مجال علم العلامات ونفسرها بقوانينه".(٨١)

ويقول فى الفقرة الثانية من حديثه عن «طبيعة العلامة اللغوية» :

وثمة ملاحظة عابرة نذكرها هنا: عندما يصبح علم العلامات علماً مستقلاً بذاته يظهر السؤال الآتى: هل يضم هذا العلم طرق التعبير التى تعتمد كلية على العلامات الطبيعية مثل الإشارات المستعملة فى (التمثيل الصامت Pantomime *) ؟

ولنفرض أن العلم الجديد ارتضى أن يضم إليه مثل هذه الإشارات، فإن هذا يؤدى إلى أن يظل الاهتمام الأول له موجهاً إلى جميع الأنظمة التى ترتكز على مبدأ اعتباطية العلامة. والحق أن كل وسيلة من وسائل التعبير التى يستخدمها مجتمع ما تعتمد فى جوهرها على السلوك الجمعى أو ما يشبهه كالعرف (أو الاتفاق أو المواضعة) مثلاً .

فعلامات التأدب (أو صيغ التجمل) مثلاً غالباً ما تحمل مضموناً تعبيرياً محدداً (كما فى حالة الصينى الذى يحيى مليكه بالسجود إلى الأرض تسع مرات) ، ولكن هذه العلامات ليست فى ذاتها محكومة بقانون ، إن القاعدة التى تحكمها هى التزام المرء بها لا قيمتها الجوهرية .

إن العلامات الاعتباطية المطلقة هى تلك التى يتحقق فيها أكثر من غيرها المفهوم العلاماتى، وهذا يفسر لماذا تعد اللغة - وهى أعقد وأوسع الأنظمة التعبيرية - خير مثال للعملية العلاماتية، ومن هنا قد يقدر لعلم اللغة أن يصبح مثالاً لكل فروع علم العلامات بعامة مع أن اللغة ما هى إلا نظام واحد من انظمة العلامات» (٨٢)

* * *

البشر جميعاً يتكلمون ويستخدمون الاشارات، بل ويوظفون عناصر أخرى من أشياء وأحداث لنقل المعانى، ومن ثم فليس غريباً أن يقول (إميل بنفنست) إذا تأملنا سلوكنا أو ملابسات الحياة الفكرية والاجتماعية أو ملابسات العلاقات أو الانتاج والتبادل لاحظنا أننا نستخدم مجموعة من نظم العلامات معاً .. ويبدو بجلاء وبدون تجاوز لحدود الملاحظة الامبيريقية - أن حياتنا بأسرها محصورة داخل شبكة من العلامات تشكلنا إلى الدرجة التى تجعل إلغاء علامة يخل بتوازن المجتمع والفرد معاً، ويبدو وكأن هذه العلامات تتوالد وتتكاثر بفعل ضرورة داخلية تتجاوب - فيما يظهر - مع ضرورة نابعة من نظامنا العقلى" (٨٣)

واذا صح هذا - وهو صحيح إلى حد بعيد - أفلا يكون من المتوقع ظهور علم يدرس هذه المجموعة من النظم ؟

إن علم العلامات يكتسب مشروعيته من حيث إنه يعتمد على فرض مؤداه أن أفعال الإنسان ونتائجها تحمل دلالة وتعمل كاشارات، ومن ثم وجب أن يكون ثمة نظام دلالى من قواعد وفروق يجعل تفسير هذه الدلالة محتملاً، وهكذا نصل إلى القاعدة التى تقول حينما تكون علامات يكون نظام، وهذه السمة هى ما تشترك فيه كل الأنشطة الدلالية المتعددة. واذا ما اعتزم المرء أن يعرف طبيعتها، فعليه أن يعالجها لافى حال انفصالها بعضها عن بعض، بل باعتبارها أمثلة لأنظمة علاماتية. وبهذه الطريقة سوف نتبين جوانب كثيرة كانت خافية ولاسيما إذا وضعنا فى اعتبارنا كل الممارسات ذات الدلالة لغوية أو غير لغوية . (٨٤)

ولكن لماذا يعتقد (سوسير) وغيره أن علم اللغة - مع أنه دراسة لنظام خاص - يزودنا بمثال أو نموذج لدراسة الأنظمة الأخرى ؟

يقدم (إميل بنفنست) الاجابة عن هذا السؤال بقوله : إن المبدأ الذى يربط علم اللغة بالسيميولوچيا هو أن العلامة اللغوية اعتباطية ، وهذا المبدأ هو أساس علم اللغة ، ومن ثم نستطيع أن نقول بصورة عامة أن المادة الأساسية التى تتناولها السيميولوچيا هى (مجموعة الأنظمة التى تقوم على اعتباطية العلامة) . وينبنى على ذلك أن اللغة تحتل مكان الصدارة بين أنظمة التعبير جملةً (٨٥)

وتقول (أمينة رشيد) : رأى (سوسير) أن نظام اللغة الطبيعية أكثر النظم تطابقاً مع مثال علم العلامات، ويرجع هذا الى طبيعة العلامة اللغوية الاعتباطية، والى أن اللغة يمكن أن تختزل فى عدد محدود من العلامات المستقلة والمختلفة . وقد انبنى على ذلك أن اللغة تصلح أن تكون نموذجاً لكل الأنظمة الدالة غير اللغويةً (٨٦)

وفى ذلك يقول (سوسير) : كل وسيلة من وسائل التعبير التى يستخدمها مجتمع ما تعتمد من حيث المبدأ - على سلوك جمعى* ، أو بعبارة أخرى على عرف أو اصطلاح واتفاق .. إن العلامات الاعتباطية المطلقة هى تلك التى يتحقق فيها أكثر من غيرها المفهوم العلاماتى، وهذا يفسر لماذا تعد اللغة - وهى أعقد وأوسع الأنظمة التعبيرية - خير مثال للعملية العلاماتية، ومن هنا قد يقدر لعلم اللغة أن يصبح مثالاً لعلم العلامات بعامة ، مع أن اللغة ما هى إلا نظام واحد من أنظمة العلامات الكثيرة".(٨٧)

ولاشك أن الطبيعة العرفية للعلامة اللغوية واضحة لاسيما بعد أن تحدثنا عنها باستفاضة قبلاً. بيد أن العلامات غير اللغوية قد تبدو للذين يستخدمونها طبيعية . ولا شك فى أن المرء يجد مشقة حين يراد إلى أن يفهم أن الحكم على سلوك ما (وليكن مثلاً الانحناء عند التحية) بأنه مهذب أو غير مهذب ليس راجعاً إلى شىء ضرورى أو جوهرى فيه، بل هو راجع إلى دلالة عرفية ألزمنا إياها مجتمعنا. فاذا ما قسنا هذه العلامات غير اللغوية بالعلامات اللغوية الاعتباطية تبينت عرفيتها، وأصبح ضرورياً على الباحث أن يراعى الجانب الاعتباطى فى هذه العلامات.

ولا يعنى هذا - كما يقول كيولر - أن كل العلامات اعتباطية تماماً ، فثمة قيود جوهرية على المعانى التى يمكن للحدث أن يحملها تبادلياً ، وعلى نوع الأحداث المناسبة للتعبير عن معنى خاص . إنه من الصعب أن نتخيل مجتمعاً تعد فيه (لكمة فى الوجه) مثلاً تحية أخوية . وفى هذا الإطار يمكن لنا أن نتصور مجالاً واسعاً لأشكال معينة لتكون تحية (السلام باليد ، وتقبيل الوجة أو الكتف ... الخ) .(٨٨)

وفى ذلك يقول (سوسير): علامات التأدب (أو صيغ التجمل) مثلاً ، غالباً ما تحمل مضموناً تعبيرياً طبيعياً محدداً (كما فى حالة الصينى الذى يحيى مليكه بالسجود إلى الأرض تسع مرات)، ولكن هذه العلامات ليست فى ذاتها محكومة بقانون . إن القاعدة التى تحكمها هى التزام المرء بها لاقيمتها الجوهرية) (٨٩)

لقد ذكرنا عند الحديث عن طبيعة العلامة اللغوية أن تعريف العلامة ينبنى على العلاقات بين العلامات الأخرى المشتركة معها فى السياق، وأن الأساس فى التعريف هو الخلاف، أى مايميز الوحدة عن أية وحدة أخرى، وهذا المبدأ هو ما يحكم العلاقات غير اللغوية، ولعل هذا ما يجعل الباحثين فى علم العلامات يؤكدون على الطبيعة العرفية للعلامات بعامة. ولو كانت العلامات طبيعية ما كان ثمة شىء يمكن تحليله. ربما يقول المرء: إن فتح باب لسيدة عمل مهذب، وهذا كل ما هنالك. بيد أنه لو افترض أن هذا السلوك علامة من المحتمل أن تكون عرفية، لبعثه هذا إلى أن يبحث جاداً عن ذلك العرف الذى اعتمد عليه هذا السلوك ، ولاكتشف النظام الدلالى الذى يجعل هذه العلامات دالة. ولقد تبين لنا أن الأمر هكذا تماماً فى اللغة. فالطبيعة الاعتباطية للعلامة تقود المرء إلى أن يتأمل فى نظام من لقيم الخلافية الوظيفية Functional Differ-ences هو الذى يحكم العلامات. ولهذا ينبغى على الباحث أن يوجه اهتمامه فى الحالات الأخرى غير اللغوية، الى القيم الخلافية الدالة، أى الفروق والتقابلات التى تحمل معنى. ما الذى يميز تحية مهذبة عن تحية غير مهذبة ؟ أو ثوباً أنيقاً من ثوب غير أنيق ؟ والحق أن الباحث لايدرس علامات منفصلة بل نظاماً من فروق .

أنواع العلامات

يدعى علماء العلامات أن علم العلامات يدرس كل الأشكال العرفية الدالة لغوية وغير لغوية، وأنهم يعملون على اكتشاف النظام الذى يحكم هذه الأشكال جميعاً. بيد أن بعض الباحثين يعترض على هيمنة هذا العلم على الظواهر الدالة جميعاً ويقولون : قد تبدو الظواهر فى الحياة متشابهة، وقد تتمثل لنا فى علامات ، بيد أنها ليست علامات من نمط واحد .

وهذا اعتراض وجيه حقاً ـ كما يقول (كيولر) ومن ثم أصبح من مهام علم العلامات أن يميز بين الأنواع المختلفة من العلامات ، وأن يقترح الطرق المختلفة المناسبة لدرسها.(٩٠)

والمبدأ الذى يحكم أنواع العلامات جميعاً أنها تتألف من دال Signifier ومدلول Signified أو شكل ومعنى يتعلق به ، بيد أن العلاقة بين الدال والمدلول تختلف بالقياس إلى الأنواع المتعددة من العلامات، وقد اقترح (بيرس) مثلاً ثلاثة أنواع أساسية منها :

الأيقونة Icon ويحكمها مبدأ التشابة بين الدال والمدلول. ومن أمثلة (بيرس) عليها الصورة الفوتوغرافية والصورة التمثيلية الشخصية، وتكون الصورة أيقونة إذا حلت محل المشار إليه وأشبهته إلى حد يجعلنا نفقد الاحساس بأن ما نشاهده هو الشيء نفسه، إنه علامة تحل محله. ويميز (بيرس) بين ثلاثة أنواع من الأيقونات: الصورة والرسم البيانى والاستعارة، وكلها تعتمد على المشابهة بين الدال والمدلول.

المؤشر Index والعلاقة هنا سببية. فالدخان يعنى النار، لأن النار هى سببه، ويعرفه (بيرس) بقوله: علامة تحيل إلى الشيء الذى تشير إليه لوقوع هذا الشيء عليها فى الواقع". ويمثل لها بالأعراض الطبية التى تشير إلى مرض، والآثار على الرمال التى تشير إلى أناسى أو حيوانات ... إلخ .

الرمز Symbol والعلاقة هنا عرفية محض وغير معللة، فلا يوجد بين الدال والمدلول تشابه أو صلة فيزيقية أو علاقة تجاور. يقول (بيرس): الرمز علاقة تحيل إلى الشيء الذى تشير إليه بفضل قانون غالباً ما يعتمد على التداعى بين أفكار عامة". وهذا النوع هو العلامة الحق عنده . وهى عنده أكثر العلامات تجريداً.(٩١)

ولكن ما فحوى هذا التقسيم، وما النتيجة التى تنبنى عليه ؟

النتيجة الرئيسية أن نجعل الرمز هو الهدف المركزى لعلم العلامات، وأن نجعل دراسة النوعين الآخرين عملاً ثانوياً متخصصاً. قد تكون صورة حصان مثلاً علامة وقد تعد جزءاً من علم العلامات. ولكنها لن تكون بحال أكثر ملاءمة لنظرية فلسفية فى العلامات من اللغة التى هى مركز علم العلامات. فعلم العلامات يدرس ويحدد سمات الاشارة الأيقونية حقاً لكن هذا النوع من الدراسة لن يكون من أنشطته المركزية.

أما دراسة المؤشرات فهى أكثر إشكالاً، لأنها تعنى أنه يخاطر بحسبان كل المعرفة الانسانية موضوعاً لدراسته، وبحسبان أى علم يحاول ارساء علاقات سببية بين الظواهر دراسة للمؤشرات ومن ثم موضوعاً لعلم العلامات. فالطب مثلاً يحاول بيان علاقة الأمراض بالأغراض،

واكتشاف أعراض مرض ما هو إلا تحديد علامات تفسر وجود هذا المرض ، ومن ثم فإن كنه هذه الأعراض علامات. والحق أنه ليس ثمة سبب يجعلنا نعتقد أن مجموعة العلوم التى تحاول أن تفسر ظواهر العالم الطبيعى والاجتماعى يتحقق تحصيلها بانضوائها تحت لواء علم واحد مسيطر هو علم العلامات . ومع ذلك ـ كما يقول (كيولر) لا يمكن استبعاد المؤشرات كلها وفى كل الأحوال من مجال العلاقات لأنها تؤلف حالات حدودية هامة ومثيرة . (٩٢)

وتقول (سيزا قاسم) إن المؤشرات تكون علامات عندما تتجاوز العلة المباشرة لوجودها الفيزيقى، أو فلنقل إنها تصبح علامات مزدوجة الدلالة، ولنضرب مثلاً على ذلك بالمثل التقليدى للمؤشر وهو الدخان، فانه يدل على وجود نار، غير أنه يكتسب دلالة إضافية عرفية فى حالة حمله رسالة تتجاوز العلاقة السببية التى تربط وجوده بموضوعه، فالدخان يدل على وجود نار ولكنه يدل أيضاً عند الهنود الحمر مثلاً على مدلولات محددة مُشَـفَّرة مسبقاً وموضوعة من قبل الجماعة.(٩٣)

أما الرموز فهى المجال المركزى لعلم العلامات ، وهى تتطلب بحثاً علامتياً متفحصاً إذا ما اعتزم المرء فهم آلياتها. ففى غياب رباط سببى يُقدِرنا على معالجة كل إشارة علاجاً فردياً، على المرء أن يحاول باعادة بناء النظام العلاماتى: نظام الاعتراف الذى اشتق منه مجموعة كاملة من الرموز، ولأن العلامات الفردية غير معللة فعلى المرء أن يحاول بناء النظام الذى هو وحده قادر على تفسيرها.

مجال علم العلامات :

تقرر (أمينة رشيد) أن نظرات (سوسير) قد تفرع عنها اتجاهان أساسيان لعلم العلامات اليوم . الأول يستند الى علم الدلالة، والثانى يركز على علم الاتصال. وهى تؤكد أن (بارت) قد كان له فضل التمييز بين الاتجاهين حين قرر أن اللغة تمثل نموذجاً يجب أن يحتذى فى دراسة جميع الأنظمة الدالة، لأن العمل الأدبى عنده علامة ذات دلالة.(٩٤)

ويحدد (كيولر) مجال علم العلامات بتحديد الأنواع المختلفة للحالات التى يواجهها الباحث على النحو الآتى:

١) يضع فى قلب العمل العلاماتى الأنظمة العرفية التى تستخدم للاتصال المباشر، وهذه تشمل:

أولاً ـ مختلف الشفرات المستخدمة فى نقل رسائل، ومن أمثلتها: اللغات الطبيعية كالانجليزية والعربية ... الخ وشفرة (مورس) وشفرة أضواء السكك الحديدية، وشفرة (برايل) وكل الشفرات المبتكرة لإخفاء الأسرار ويمكن استخدامها فى نقل الرسائل، وعلى نحو ثانوى ثمة مجموعة أخرى كاملة من شفرات متخصصة تستخدم فى نقل نمط معين من المعارف إلى جماعات لاتشترك فى نفس اللغة الطبيعية مثل: رموز الكيمياء، إشارات المرور، علامات الطريق، الرموز الرياضية، الرموز المستخدمة فى المطارات والقطارات .. إلخ وتتضمن كل هذه الحالات علامات عرفية معتمدة على شفرات صحيحة، ولأنها مصممة لاتصال سهل غير غامض فثمة اجراء ضرورى يتمثل فى وضع شفرة وفى حلها، وهكذا يتيسر للمرء أن يفتح كتاب الشفرة ليبحث عن مدلول العلامة قيد البحث. وهذه الشفرات أمثلة خالصة للأنظمة العلاماتية، ولكن لأنها واضحة القصد فمن الميسور جداً وصف القواعد التى بنيت على أساسها، ومن ثم فهى أقل إثارة لعالم العلاقات من الأنظمة الداخلة فى إطار القسم التالى وهى أنظمة أقل وضوحاً وأكثر تعقيداً.

٢) وهذا النوع من العلامات أكثر تعقيدا من سابقه، ومع أنه يتضمن أنظمة اتصال من غير شك فإنه يصعب تحديد شفراته، حيث تبدو بالغة الغموض عصية على التحديد. ومن أمثلة هذا النوع الأدب، إن المرء ـ لكى يقرأ الأدب ويفهمه حقاً ـ عليه أن يعرف شيئا أكثر من معرفة اللغة التى بها يكتب، ومن الصعب جدا أن تقرر بدقة ما المعرفة المكملة المطلوبة لايجاد تفسير مُرْضٍ للأعمال الأدبية. وهنا لا يعالج المرء ـ بالتأكيد نوعا من الشفرات يمكن معها استخدام مفاتيح للشفرة أو معجم لحلها. إن الدراسة العلاماتية للأدب وللشفرات الجمالية الأخرى (مثل شفرات الرسم والموسيقى) مثيرة غاية فى الاثارة، لأن الدارس يعالج فى الحقيقة نظاما

اتصاليا بالغ الغنى والتعقيد. والسبب فى تعقيد هذه الشفرات يَسيرُ توضيحه، إن الشفرات من النوع الأول مصممة لتوصيل رسائل بطريقة مباشرة وغير غامضة ولتوصيل مضامين معروفة قبلا، إن الشفرة من هذا النوع تزودنا بمجموعة كاملة من رموز مختزلة للتعبير عن مضامين موجودة قبلا. لكن التعبير الجمالى يهدف إلى توصيل مضامين، براعات، مُعَقَّدات لم تقنن بعد. ومن ثم فما أن تشيع الشفرة الجمالية ويتيسر فهمها بعامة (فتصبح شفرة تعبر عن مضامين أعلنت قبلا) حتى تتوجه الأعمال الفنية إلى أن تتجاوز هذه الشفرة.

إن الأعمال الأدبية ـ كما يقول (كيولر) تشكك وتقوض الشفرة، بينما ترود مجاهلها وتوسعاتها المحتملة، وقد يقال أيضا أن ما يثير فى الأعمال الفنية يكمن فى الأساليب التى بها تنكشف الشفرة وتتغير، وهذا حق، ويجعل البحث العلاماتى لهذه الأنظمة غاية فى الوثاقة وغاية فى الصعوبة.(٩٥)

٣) وهذا النوع يشمل ممارسات اجتماعية لا تبدو وكأنها تتضمن اتصالا، وهى بالغة التنظيم، وتوظُّف ـ بالتأكيد ـ مجموعة كاملة من الفروق لخلق معنى. فالطقوس الدينية وأساليب التجمل (إتيكيت) على اختلاف أنواعها، والأنظمة العرفية التى تحكم تناول الطعام أو ارتداء الثياب.. هذه كلها أنظمة من علامات. فارتداء ثوب معين دون آخر هو بالتأكيد اتصال من نوع ما وإن كان غير مباشر ، وتقديم باقة زهور فى موقف ما: حين ترسل للتهنئة أو للتعزية فى جنازة، علامة تحمل رسالة لها معنى ... وهكذا.

إن مهمة عالم العلامات الذى يعالج هذه الأشكال من الممارسات الاجتماعية هى أن يحدد المعانى الصريحة والضمنية التى تحملها، وأن يعيد بناء نظام المضامين الذى تعتمد عليه هذه المعانى(٩٦)

وثمة مجالات أخرى أقل أهمية لا نجد ضرورة للاشارة إليها هنا.(٩٧)

التحليل العلاماتى :

لقد كان علم اللغة مثلا احتذاه علم العلامات على اختلاف الباحثين فيه من علماء الانثروبولوچيا ونقاد الأدب إلى علماء الاتصال .. الخ، ولعل (ليفى ستروس) كان أسبق هؤلاء إلى اكتشاف نظرات (سوسير) فى العلامة، وإلى استخدامها فى دراسة الظواهر الثقافية فى المجتمع، وفى هذا يقول محمود حجازى : إن محاولة (ليفى ستروس) الافادة من المنهج البنيوى تقوم أساسا على الأسس النظرية والمنهجية التى تطورت فى البحث اللغوى، وقد أشار (ستروس) إلى الروافد التى استقى منها منهجه فى التحليل ، فاللغوى السويسرى (سوسير) هو صاحب المنطلق الأساسى للنظرية المعاصرة فى اللغة ، واللغويان الروسى (تروبيسكوى) والبولندى الأمريكى (ياكبسون) هما رائدا البحث الفونولوچى الذى انطلق من نظرية (سوسير) فى اللغة.(٩٨)

وجوهر البنيوية عند (ستروس) هو النسق أو النظام، والبنية مركب من عناصر إذا ما حدث لأحدها تغير تغيرت بقية العناصر (وهذا هو مفهوم سوسير فى النظام وانظر ص ٢٤ ـ ٢٧) والعبرة فى دراسة الظواهر أو النظم الاجتماعية هى الوصول إلى العلاقات القائمة بينهما، والواقع أن حقيقة الظواهر لا تتمثل فى ظاهرها على نحو ماتبدو عيانا للملاحظ ، بل تكمن على مستوى أعمق بكثير ألا وهو مستوى دلالتها.(٩٩)

وقد ركز (ستروس) اهتمامة على قضية العلاقات بين أجزاء الظاهرة الانسانية قيد البحث وهو ينطلق من هذا ـ كما يقول محمود حجازى ـ من دراسات الفونولوچيين الهادفة إلى تحديد الوحدات الصوتية ثم بيان السمات المحددة لها حتى تتضح ملامح النظام الفونولوچى، وفى تحليلة هذا اعتمد على البحث الذى نشره (تروبتسكوى) ١٩٣٣، وبين فيه الأساس النظرى لمراحل التحليل الفونولوچى، وهذه هـى :

١ ـ الظواهر الواعية (الكلام)
٢ ـ البنية غير الواعية (اللغة)
٣ ـ العلاقات
٤ ـ النظام ..

وبهذا يرى (ستروس) أن علم الفونولوچى هو أول العلوم الاجتماعية التى نجحت فى بيان طبيعة الظاهرة قيد البحث وفى بلورة المنهج المناسب .

إنه يلاحظ فى موضوع القرابة أن الآحاد أو الأفراد أو الأطراف الداخلين فى علاقة القرابة شأنهم شأن الوحدات الصوتية. فهم عناصر لها وظائفها المتميزة ولا تكتسب هذه العناصر وظائفها إلا بتكاملها فى أنظمة، ليس الباحث هنا بصدد البحث البيولوچى لكل طرف من أطراف القرابة، بل إن الدراسة الاجتماعية لأنظمة القرابة هى دراسة للعلاقات القائمة بين هذه الأطراف.

وأنظمة القرابة شبيهة بالأنظمة الفونولوچية تتكون لا فى الطبيعة بل فى مستوى الفكر غير الواعى، هى مستقرة فيه على نحو وجود النظام اللغوى يتصرف الانسان منظلقاً منها كما يصدر (الكلام) عن (اللغة).(١٠٠)

والحق أن (تروبيسكوى) فى بحثه المشار إليه كان قد خطط بالفعل العناصر المنهجية لنظريته فى العلوم الاجتماعية ، ومن ثم طور علم العلامات الذى اقترحه (سوسير)، وعلى حين يختص عالم الأصوات بخصائصها الكلامية الفعلية يختص عالم الفونولوچيا بالسمات التفريقية (القيم الخلافية) التى هى وظيفية فى لغة معينة. ولقد برز أمامه أسئلة: ما الفروق الصوتية التى ينبنى عليها خلاف المعنى؟ وكيف تتعلق العناصر التفريقية (الخلافية) بعضها ببعض؟ وكيف تجتمع لتؤلف كلمات وعبارات؟

من الواضح - كما يقول تروبيسكوى - أن هذه المهام لايمكن إنجازها بمناهج العلوم الطبيعية التى تختص بالسمات المادية للظواهر الطبيعية ذاتها، ولاتختص بالسمات التفريقية (الخلافية) التى هى حوامل للدلالة الاجتماعية. بعبارة أخرى: فى العلوم الطبيعية ليس ثمة ثنائية شبيهة بثنائية (اللغة) و(الكلام) ليس ثمة هيئة أونظام عرفى يمكن أن تدرس.أما العلوم الانسانية والاجتماعية - من الناحية الأخرى - فتختص بالاستعمال الاجتماعى للأشياء المادية، وينبغى لذلك التمييز بين الأشياء ذاتها ونظام من السمات التمييزية أوالتفريقية يعطيها معنى أو قيمة.

والمثال الذى قدمه هو دراسة الثياب كما يقوم بها عالم الأنثروبولوچيا وعالم الاجتماع. فكثير من سمات الثياب المادية ذاتها والتى ربما يكون لها أهمية عظيمة عند اللابسين ليس لها أهمية عند عالم الأنثروبولوچيا الذى يختص بتلك السمات التى تحمل مدلولا اجتماعيا. ومن ثم فإن طول (الجونلة) مثلا ربما يحمل قدرا من الدلالة فى النظام الاجتماعى فى ثقافة ما، بينما المادة التى تصنع منها لا تحمل مدلولا، وبعبارة أخرى. قد يكون ثمة مدلول اجتماعى بارز لارتدائى بدلة صفراء لا رمادية. وربما يكون تفضيلى البدلة الرمادية أو كراهيتى للأقمشة الصوفية اختياراً شخصياً لا يحمل مضمونا اجتماعيا.

ثم يبين (تروبيسكوى) وجه الشبه فى العمل بين الفونولوچيا والأنثروبولوچيا قائلا: وكما أن عالم الفونولوچيا يحاول تحديد أى الفروق الصوتية يحمل معنى وأيها لا يحمل، فان عالم الأنثروبولوچيا أو عالم الاجتماع الذى يدرس الثياب ربما يحاول عزل هذه السمات الخاصة بالثياب والتى تحمل دلالة اجتماعية عن تلك السمات التى لا تحمل مثل هذه الدلالة ، ومن ثم فهو يحاول إعادة بناء نظام من العلاقات والفروق استوعبه أعضاء مجتمع ما، وهو يكشف - باتخاذ ثياب محددة كمؤشرات عن نمط خاص من الحياة أو عن دور أو اتجاه اجتماعى. ولنقل بعبارة مختصرة انه يعنى بتلك السمات التى بها تكون الثياب رموزا.(١٠١)

ويحاول الانثروبولوچى وعالم الاجتماع - كاللغوى - أن يقدم معرفة صريحة أو ضمنية تُقْدِر الناس فى مجتمع معين على الاتصال وعلى التفاهم المشترك. والوقائع التى يحاول توضيحها هى وقائع عن معرفة الناس الضمنية: أى أن عملا معينا يعد سلوكا مهذبا، بينما عمل آخر يعد غير مهذب، أن ثوبا خاصا يعد مناسبا فى موقف محدد وغير مناسب فى موقف آخر. وحيثما وجدت معرفة من أى نوع وجد نظام يمكن تفسيره، وهذا مبدأ أساسى يوجه الباحث فى علم اللغة أو فى العلوم الاجتماعية الأخرى. وينبغى من ثم أن يكون ثمة نظام علاماتى من فروق وأقسام وقواعد بناء يمكن للباحث وصفه مادامت المعانى التى ينسبها أعضاء مجتمع معين إلى أشياء أو أحداث ظواهر غير عشوائية خالصة.

وبهذه النظرة الواسعة فإن علم العلامات يتوجه إلى أن يضم إليه معظم فروع المعرفة الانسانية والاجتماعية. إن الأنشطة الانسانية التى تدخل فى اطار الموسيقى والمعمار والطبيخ والاعلان .. الخ كلها موضوعات لعلم العلامات.(١٠٢)

ونجيء إلى علم آخر من أعلام البنيوية المعاصرة هو الناقد الأدبى (رولان بارت) وقد أسهم (بارت) مع غيره من المفكرين الفرنسيين فى وضع أسس البنيوية الفرنسية التى تحتل فى الوقت الحاضر مكانة مرموقة فى الفكر الفرنسى. ولقد كانت أداة (بارت) فى موقفه البنيوى هى اللغة .. وقد استمد مثل (ستروس) أسس منهجه التحليلى من نظرات (سوسير) فى اللغة.(١٠٣)

وقد كان هدف (بارت) أو منهجه - هو تحليل « المركبات الثقافية » بدراستها على أنها أنساق من العلامات تعبر عن معان، أو على الأصح تنقل معانى معينة وتقوم بتوصيلها، فنظام معين بالذات لارتداء الملابس مثلا أو تناول الطعام يمكن أن تعبر عن فئه معينة من المعانى ويتولى توصيلها، ومن هذه الناحية تعتبر تلك النظم للبس أو للأكل أنساقا من العلامات تكون بمثابة شفرات للتعبير أو الاتصال عن طريق الملابس أو الطعام.(١٠٤)

وقد استخدم (بارت) بعض المقولات اللغوية فى تحليل المركبات الثقافية ، وفى ذلك يقول أحمد أبو زيد « لقد أراد (بارت) أن يعالج المركبات الثقافية على نهج (ليفى ستروس) وأن يمد بعض المقولات التى أرسى قواعدها علم اللغويات إلى الأبعاد غير اللغوية فى الثقافة الانسانية. وكانت نقطة الانطلاق بطبيعة الحال هى التفرقة بين اللغة من حيث هى نسق للعلاقات أو الشفرات codes و الكلام parole . ففى نسق الأكل مثلا اعتبر تتابع تقديم أطباق الطعام وألوانه أثناء وليمة كلها هى « الكلام » بينما اعتبر التقاليد العامة المتعارف عليها والتى تحكم الوليمة كلها «اللغة» وبذلك تكون لغة أو لسان (الأكل) هى النسق العام لإمكانات واحتمالات اختيار ألوان الطعام التى تتماشى ويتلاءم بعضها مع بعض لتكون وجبة ملائمة ومتجانسة . أما كلام (الأكل) فهو أى تطبيق واقعى يمكن تحقيقة من هذه الامكانات والاحتمالات.. فالسيميولوچيا العامة تؤلف إذاً (برنامجا) يهدف إلى فك رموز وشفرات معنى أى مركب ثقافى سواء أكان لغويا أم غير لغوى .* (١٠٥)

وليس من شك فى أن المظاهر الثقافية غير اللغوية مفعمه هى أيضا بالمعانى لأن كل مركب ثقافى هو آخر الأمر مركب له معنى، وهذه المعانى هى أمور مصطلح عليها ومقررة اجتماعيا، وذلك بصرف النظر عما إذا كانت هذه المعانى متعلقة بالمظاهر اللغوية (أى الكلمات) أو المظاهر غير اللغوية، كما أن اكتساب المظهر الثقافى معنى معينا بالذات هو أمر متعلق بتكوين وقيام المجتمع نفسه، أى أن قيام أى مجتمع يؤدى بالضرورة إلى تحويل أى تصرف إلى علامة.(١٠٦)

لقد فسر (سوسير) النظام بالعلاقات التى بين الوحدات على المحور الأفقى السياقى syntagmatic وعلى المحور الرأسى الاستبدالى paradigmatic وقد أصبح هذا المنهج اللغوى أساسا لتحليل المركبات الثقافية . وفى ذلك يقول (كيولر) : بالنسبة لمعظم الأنظمة قد يبدو ثمة علاقات أفقية وتقابلات رأسية ، وأنواع من معانٍ يمكن التعبير عنها بتقابلات وعلاقات. فى نظام الطعام مثلا يمكن أن تؤلف وجبات من أنواع مختلفة، وكل طبق أو نوع slot يمكن أن تملأ بطبق من الأطباق التى تكون فى حالة تقابل رأسى بعضها ببعض (فالمرء لايجمع الروزبيف مع ضلوع الغنم فى وجبة واحدة : فهى تتبادل فى قائمة الطعام) *

هذه الأطباق التى تتبادل على المائدة غالبا ماتحمل معانى مختلفة فى أنها تدل على درجات مختلفة من الرفاهية والذوق ... إلخ.(١٠٧)

بيد أن (كيولر) يلاحظ بحق أن الأنظمة - ربما لا تكون على درجة واحدة من الوضوح عند التحليل، بحيث نتبين فيها العلاقات الأفقية والرأسية كما نتبينها فى تحليل اللغة، وبحيث تنكشف فيها عناصر خلاف كافية تعين على التمييز. وفى معظم الحالات يكون الباحث قادرا على تعريف علاقات أفقية ورأسية، العلاقات بين عناصر يمكن أن تندمج لتكون وحدات من مستوى أعلى، والعلاقات بين عناصر يمكن أن يحل أحدها محل الآخر، ومن ثم يمكن أن يخالف أحدهما الآخر لانتاج معنى، وفى بعض الأنظمة يكون النُّظم syntax أضعف من أن يصور علاقات أفقية، فعلامات المرور مثلا - لاتتضمن مجموعة رمزيةمركبة من غير وحدة، وإذا حدث

* هذا مرتبط بثقافة معينة ، وهى بالطبع فى مثالنا الثقافة التى ينتمى إليها الكاتب .

(كما فى العلامات التى يشير الشكل فيها إلى وجود خطر والشكل الذى يحدد نوع الخطر) فإن العلاقات الأفقية تكون بسيطة جداً وغير مثيرة ... وفى بعض الأنظمة نجد أن قائمة الخلافات أو الفروق الرأسية الأولية محدودة جداً، ففى شفرة مورس - عنصرا خلاف فحسب، صوت noise بإزاء صمت pause وقصير بإزاء طويل.(١٠٨)

وثمة أنظمة لغوية أخرى معقدة ومثيرة من حيث إنها تعتمد على أنظمة أخرى ولاسيما اللغة، ومن ثم فهى أنظمة ذات رتبة ثانية، والأدب من هذه الأنظمة، له لغة هى أعمدته وأعرافه المكملة، وليست هذه اللغة إلا أعرافا لاستخدام خاص للغة. ومن ثم يمكن اعتبار الاستعارة والكناية والمجاز والمبالغة عمليات لشفرة أدبية .. ولكن على المرء حين يقرأ أو يفسر عملا أدبيا أن يعرف أنه يعالج نظاما لايتضمن شفرة صريحة مثل إشارات المرور أو قواعد التأدب، وربما يعرف الكثير عن الطرق المختلفة لتفسير اللغة التصويرية مثلا، وعن الأعراف التى تنتظم الأساليب الأدبية المختلفة، وعن أنماط البنية أو الهيكل الأدبى ، ولكن العمل الأدبى يقوض هذه الطرق باستمرار، ويتهكم بها بل ويروغ من أى شىء قد ينتهى إلى أن يكون شفرة صارمة أو قواعد صريحة للتفسير، إن اشارات المرور لا تنتهك قواعد العلامات المقررة فى نظامه. بيد أن الأعمال الأدبية تنتهك باستمرار الشفرات. وذلك لأن الأدب فى الأساس اكتشاف إمكانات التجربة، وهو فى أحوال كثيرة يعمق ويشكك فى الأنماط التى من خلالها ننظر إلى أنفسنا وإلى العالم. الشفرات الأدبية لها دور هام حيث تجعل عمليات التشكيك والتعميق ممكنة، مثل قواعد التأدب التى تجعل من الممكن أن يقال عن سلوك ما إنه مهذب أو غير مهذب، لكن الأعمال الأدبية لاتكمن أبدا وتماما فى شفرات نحددها، وهذا هو ما يجعل الدراسة العلاماتية للأدب مشروعا يكابده من يعالجه.(١٠٩)

ولانستطيع حقا أن نترك التحليل العلاماتى للأدب دون أن نتكلم عن (بارت)، عن بعض مواقفه النقدية البارزة، بالاضافة إلى ماعرضناه منها آنفا.

نشير هنا أولا إلى عنايته البالغة بالنص الأدبى وبالقارىء على خلاف ماكان شائعا بين النقاد من اهتمام بالمؤلف وبالعصر، وقد أدى به هذا الموقف من «النص» وضرورة الاعتناء

بدراسته وأعطائه الأولوية فى النقد الأدبى إلى المناداة بعدم جدوى التركيز على «المؤلف» وتعرف ما يعنيه أو يفكر فيه، وأن من الأفضل الاهتمام بالقارىء، وذلك على اعتبار أن الأدب الذى يستحق الاهتمام هو الذى يساعد القارىء على أن يقوم بدور إبداعى وايجابى وفعال.

والاهتمام بالنص مدخل بنيوى سوسيرى أساسا، إنه كما يقول (أحمد أبوزيد) مدخل يعطى أهمية قصوى للغة .. ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الاهتمام باللغة إلى إعطاء أولوية مطلقة للنص من حيث هو بناء أى دراسة (الدال signifier بدلا من الاهتمام بدراسة الرسالة التى ينقلها النص أو يحاول توصيلها (المدلول signified) وهذا يتفق تماما مع التقليد البنيوى الذى وضع (سوسير) أسسه فى كتابه المعروف.(١١٠)

ولعلنا نذكر الآن ما أوضحناه آنفا من أن اللغة عند سوسير شكل form لامادة sub-stance ، ويحدد (بارت) الهدف من (النشاط البنائى) بأنه إعادة تكوين أو إعادة تركيب شىء ما object بطريقة تبين قواعد عمله ووظيفته ، وأن البنائية تهتم فى المحل الأول بالشكل أو بالصورة form وليس بالمضمون أو المحتوى ، وأن النشاط البنائى حين ينظر فى صور وأشكال المعنى أو الدلالة فإنه يبحث فى الحقيقة عن الدوافع والحوافز التى تختفى وراء الأشياء التى نسلم بها والتى نقبلها بغير مناقشة ، فكأن التحليل البنائى يساعد على التغلغل وراء الظواهر الواضحة والغوص فى أعماقها .. إن وجود الأدب يكمن فى عمليات الدلالة التى يقوم بها الأدب وليس فى (المدلول) أو ما يراد الاشارة إليه ، فالمسألة إذاً ليست مسألة «موضوع» الوظيفة أو المحتوى ، وانما هى أنساق الوظيفة ، وهذا أمر يتعلق بطبيعة الكتابة ذاتها ، وبعبارة آخرى : إن وجود الأدب بالنسبة لبارت يتمثل ليس فى الرسالة التى يحملها ذلك الأدب أو ما يطلق عليه تبعا للمصطلح السويسرى كلمة (المدلول signified) وإنما يتمثل فى النسق system ككل.

وللعالم اللغوى (رومان ياكوبسون) عبارة تعبر عن هذا الرأى أصدق تعبير حيث يقول: إن ماهو «أدبى» يشير إلى ذلك النوع من الرسالة التى يعتبر شكلها - لامضمونها - هو موضوعها الحقيقى.(١١١)

ونعود مرة أخرى إلى علم العلامات وإلى ما يقدمه للنص الأدبى، وفى ذلك تقول (سيزا قاسم): لا تفصل الدراسة السيميوطيقية بين الظواهر التجريبية الواحدة والمحيط العام الذى تظهر فيه بل تفرض شبكة من الأنساق المتداخلة تضع هذه الظواهر فى وحدة كبرى تتألف من كلية هذه الأنساق المختلفة. فتتداخل وتتعارض وتتقاطع فى بعض المواضع وتتباعد فى بعض المواضع، والسميوطيقا - فى إطار البعد الأول - الظواهر التجريبية - تنظر إلى الأدب على أنه مجموعة من العناصر المكونة (اللغة الطبيعية) تتآلف وتتسق طبقا لقوانين محددة، فلابد من تحليل تلك العناصر والكشف عن ماهيتها، وقد يؤدى هذا التحليل إلى استخلاص العلاقات التى تربط هذه العناصر بعضها ببعض، أى إلى معرفة النظام الكامن وراء النص .. وفى إطار البعد الثانى - المحيط العام الذى يوجد فيه النص - فإنه يُعْنَى بالكشف عن العلاقات التى تربط النص الأدبى بوصفه نسقا أو نظاما وغيره من الأنظمة الأخرى . فالنص الأدبى نظام له خصوصيته ومقوماته ، ولكنه ليس بمعزل عن غيره من الأنظمة الأخرى .

ومن ثم يمكن دراسة كل هذه الأنظمة فى تشابكها وترابطها ، وتتم عملية وضع العمل الأدبى فى سياقه من خلال كشف ترابطه بالأنظمه المختلفة ، وهذا السياق هو السياق المعرفى العام للثقافة البشرية ، ويمثل كل جانب من جوانب هذا السياق نظام له وحداته وعناصره وقوانينه .. ولذلك يدرس علماء السيميوطيقا الثقافة على أساس أنها النظام السيميوطيقى الأشمل الذى يحوى كل الأنظمة الأخرى.(١١٢)

هوامش القسم الأول

(١) See - Culler, Jonathan . Saussure . P.P 13-17

- Ivic, Milka . Trends in Linguistics . P.P 122-123

(٢) - Culler, Saussure . P 16

Saussure, Course in general LinguisticsTranslated by (Wade Baskin) P.P xxxix-xxxi

(٣) انظر فى قصة هذه النشرة مقدمة (بالى) و (سيشهاى) للكتاب :

Culler, Saussure . P 17

Wells, De Saussure's System,of Linguistics. P 1

(٤) Ivic' Trend. P.P 124-125

Wells,De Saussure's System. P 1

(٥) Culler, Saussure. P 17

(٦) Ivic' Trend. P.P 124-125

(٧) انظر: قنيبى ص 14-15 وعزيز ص ٢٤. ٤٠ وغازى ص ١٧ Saussure, Course. P.P 6-7

(٨) انظر: قنيبى ص 31-32 وعزيز ص ٣٩. ٤٠ وغازى ص ٣٥. ٣٦ Saussure, Course. P.P 22-23

(٩) انظر: قنيبى ص 32-33 وعزيز ص ٤٠ وغازى ص ٣٦ Saussure, Course. P 21

(١٠) انظر: قنيبى ص 33 وعزيز ص ٤٠ وغازى ص ٣٦ Saussure, Course. P 22

(١١) انظر: قنيبى ص 33 وعزيز ص ٤٠ وغازى ص ٣٧ Saussure, Course. P 22

(١٢) انظر: قنيبى ص 34 وعزيز ص ٤١ وغازى ص ٣٧ Saussure, Course. P.P 22-23

(١٣) انظر: قنيبى ص 14 وعزيز ص ٢٤ وغازى ص ١٧ Saussure, Course. P 6

(١٤) انظر: قنيبى ص 14 وعزيز ص ٢٤ وغازى ص ١٧ Saussure, Course. P 6

(١٥) بنفست (إميل) : سيميولوجيا اللغة، انظر مدخل الى السيميوطيقا إشراف سيزا قاسم ونصر حامد ص ١٧٤

(١٦) بنفست (إميل) : سيميولوجيا اللغة ص ١٧٥

(١٧) انظر : قنيبى ص 295 وعزيز ص ٢٥٣ وغازى ص ٢٨٠ Saussure, Course. P 232

(١٨) انظر: قنيبى ص 17 وعزيز ص ٢٤ وغازى ص ١٧ Saussure, Course. P 6

(١٩) انظر: قنيبى ص 18 وعزيز ص ٢٤ وغازى ص ١٧ Saussure, Course. P 9

(٢٠) انظر: قنيبى ص 23 وعزيز ص ٣٢ وغازى ص ٢٥ Saussure, Course. P 14

(٢١) Dinneen, P.P., An Introduction to general Linguistics. P196

(٢٢) انظر: قنيبى ص 24 وعزيز ص ٣٢ وغازى ص ٢٦ Saussure, Course. P 14

(٢٣) انظر: قنيبى ص 29 وعزيز ص ٣٧ وغازى ص ٣١ Saussure, Course. P 18

(٢٤) انظر: قنيبى ص 29 وعزيز ص ٣٧ وغازى ص ٣١ Saussure, Course. P 18

(٢٥) انظر: قنيبى ص 30 وعزيز ص ٣٨ وغازى ص ٣٢ Saussure, Course. P 20

(٢٦) انظر: قنيبى ص 24 وعزيز ص ٣٣ وغازى ص ٣٦ Saussure, Course. P 15

(٢٧) انظر: قنيبى ص 30 وعزيز ص ٣٨ وغازى ص ٣٢ Saussure, Course. P 19

(٢٨) انظر: قنيبى ص 24 وعزيز ص ٣٣ وغازى ص ٢٦ Saussure, Course. P 15

(٢٩) انظر: قنيبى ص 18 وعزيز ص٢٧ وغازى ص ٢١ Saussure, Course. P 9

(٣٠) Dinneen, An Introduction. P.P198-199

وانظر يسبرسن (اوتو) اللغة بين الفرد والمجتمع ترجمة د/ عبد الرحمن ايوب

(٣١) انظر: قنيبى ص 88 وعزيز ص ٨٧ وغازى ص ٩٠ Saussure, Course. P 68

(٣٢) انظر: قنيبى ص 21-20 وعزيز ص ٣٠-٣١ وغازى ص ٢٣ Saussure, Course. P.P 11-12

(٣٣) انظر: قنيبى ص 86 وعزيز ص ٨٥ وغازى ص ٨٨ Saussure, Course. P 66

(٣٤) انظر: قنيبى ص 87 وعزيز ص ٨٧ وغازى ص ٨٩ Saussure, Course. P 67

(٣٥) انظر: قنيبى ص 89 وعزيز ص ٨٧، ٨٨ وغازى ص ٩٠، ٩١ Saussure, Course. P.P 68-69

(٣٦) انظر: قنيبى ص 89 وعزيز ص ٨٨ وغازى ص ٩١ Saussure, Course. P 69

(٣٧) Culler, Saussure. P.P 21-22

Gleason, An Introduction to descriptive Linguistics. P4

(٣٨) انظر: قنيبى ص 85 وعزيز ص ٨٤ وغازى ص ٨٧ Saussure, Course. P.67

(٣٩) بتصرف Culler, Saussure. P.P 22-23

(٤٠) انظر: قنيبى ص 158 وعزيز ص ١٤٣ وغازى ص ١٥٠ Dinneen An Introduction. P 205

(٤١) انظر: قنيبى ص 158 وعزيز ص١٤٣ وغازى ص ١٥٠ Saussure, Course. P 124

(٤٢) انظر: قنيبى ص 159-160 وعزيز ص ١٤٤، ١٤٥ وغازى ص ١٥٢، ١٥٣ Dinneen An Introduction. P 203

Saussure, Course. P.P 125-126

Dinneen An Introduction. P 205

(٤٣) انظر: قنيبى ص 160 وعزيز ص ١٤٥وغازى ص ١٥٢ Saussure, Course. P 126

(٤٤) انظر: قنيبى ص 146 وعزيز ص ١٣٤ وغازى ص ١٤٠ Saussure, Course. P.P 114-115

(٤٥) انظر: قنيبى ص 146 وعزيز ص ١٣٤ وغازى ص ١٤٠ Saussure, Course. P 115

(٤٦) Dinneen, An Introduction.P 210. Saussure, Course. P.P 115-116

(٤٧) Dinneen, An Introduction.P.P 208-209. Saussure, Course. P.P 111-113

(٤٨) بتصرف Dinneen, An Introduction.P 110

(٤٩) انظر: قنيبى ص 153 وعزيز ص ١٣٩ وغازى ص ١٤٥ Saussure, Course. P 120

(٥٠) انظر: قنيبى ص 149 وعزيز ص ١٣٦ وغازى ص ١٤٢ Saussure, Course. P 117

(٥١) انظر: قنيبى ص 103-104 وعزيز ص ٩٨، ٩٩ وغازى ص ١٠٢ Saussure, Course. P 80

(٥٢) انظر: قنيبى ص 104 وعزيز ص ٩٩ وغازى ص ١٠٢ Saussure, Course. P 81

(٥٣) انظر: قنيبى ص 105 وعزيز ص ١٠٠ وغازى ص ١٠٣ Saussure, Course. P 81

Saussure, Course. P. P 42-42

(٥٤) انظر: قنيبى ص 105 وعزيز ص ١٠٠ وغازى ص ١٠٣ Saussure, Course. P 81

(٥٥) انظر: قنيبى ص 113-114 وعزيز ص ١٠٦، ١٠٧ وغازى ص ١١٠، ١١١ Saussure, Course. P 88

(٥٦) انظر: قنيبى ص 107-110 وعزيز ص ١٠٢، ١٠٤ وغازى ص ١٠٥، ١٠٧ Saussure, Course. P.P 84-85

(٥٧) انظر: قنيبى ص 112 وعزيز ص ١٠٥ وغازى ص ١٠٩ Saussure, Course. P 87

(٥٨) انظر: قنيبى ص 178 وعزيز ص ١٦٣ وغازى ص ١٧١ Saussure, Course. P 140

(٥٩) انظر: قنيبى ص 85 وعزيز ص ٩١ وغازى ص ٩٤ Saussure, Course. P 72

(٦٠) انظر: قنيبى ص 96 وعزيز ص ٩٢ وغازى ص ٩٥، ٩٦ Culler, Saussure. P.P 73-74

(٦١) انظر: قنيبي ص 98 وعزيز ص ٩٤ وغازي ص ٩٧ Saussure, Course. P 75

(٦٢) انظر: قنيبي ص 99-98 وعزيز ص ٩٤، ٩٥ وغازي ص ٩٩ Saussure, Course. P 76

(٦٣) انظر: قنيبي ص 101-100 وعزيز ص ٩٦ وغازي ص ١٠٠ Saussure, Course. P 78

(٦٤) انظر: قنيبي ص 178-179 وعزيز ص ١٦٣، ١٥ وغازي ص ١٧١، ١٧٢، ٤٩ Saussure, Course. P.P 140-23-33

(٦٥) انظر: قنيبي ص 181 وعزيز ص ١٦٥ وغازي ص ١٧٤ Saussure, Course. P 142-143

(٦٦) وانظر: عزيز ص ١٦٥ هامش (١) Saussure, Course. P 143

(٦٧) انظر: قنيبي ص 182 وعزيز ص ١٦٧ وغازي ص ١٧٥ Saussure, Course. P 143

(٦٨) انظر: قنيبي ص 183 وعزيز ص ١٦٧ وغازي ص ١٧٦ Saussure, Course. P 144

(٦٩) عبد العزيز (محمد حسن) مدخل الى اللغة ص ١١٥، ١١٧

(٧٠) انظر: قنيبي ص 183 وعزيز ص ١٦٨ وغازي ص ١٧٦، ١٧٧ Saussure, Course. P 145

(٧١) انظر: قنيبي ص 183 وعزيز ص ١٦٩ وغازي ص ١٧٨ Saussure, Course. P 146

(٧٢) انظر: قنيبي ص 194 وعزيز ص ١٧٥ وغازي ص ١٨٤، ١٨٥ Saussure, Course. P 152

(٧٣) انظر: قنيبي ص 187 وعزيز ص ١٧٠ وغازي ص ١٧٩، ١٨٠ Saussure, Course. P 147

(٧٤) انظر: قنيبي ص 188 وعزيز ص ١٧١ وغازي ص ١٨٠ Saussure, Course. P 148

(٧٥) انظر: قنيبي ص 188-189 وعزيز ص ١٧١، ١٧٢ وغازي ص ١٨١، ٨٢ Saussure, Course. P.P148-149

(٧٦) انظر: قنيبي ص 190 وعزيز ص ١٧٢ وغازي ص ١٨٢ Saussure, Course. P 149

(٧٧) انظر: قنيبي ص 191 وعزيز ص١٧٣ وغازي ص ١٨٢، ١٨٣ Saussure, Course. P. P 150-151

(٧٨) انظر: قنيبي ص 192 وعزيز ص ١٧٤ وغازي ص ١٨٣ Saussure, Course. P151

(٧٩) انظر: قنيبي ص 192 وعزيز ص ١٧٤ وغازي ص ١٨٤ Saussure, Course. P 151

(٨٠) وابراهيم (زكريا) : مشكلة البنية ص ٨٤ Saussure, Course. P.P 93

وحجازي (د محمود فهمي) اصول البنيوية ص ١٠٥

وهوكز (ترنس) البنيوية وعلم الاشارة ص ٣٠

(٨١) انظر: قنيبي ص 178 وعزيز ص ٣٤، ٣٦ وغازي ص ٢٧، ٢٩ Saussure, Course. P.P15-17

(٨٢) انظر: قنيبي ص 88 وعزيز ص ٧٨ وغازي ص ٩٠ Saussure, Course. P 68

(٨٣) بنفنست (إميل) سيميولوجيا اللغة ص ١٧٦ انظر: سيزا قاسم : مدخل الى السيميوطيقا

(٨٤) Culler, Saussure. P 91

(٨٥) بنفنست (إميل) سيميولوجيا اللغة ص ١٧٦ انظر: سيزا قاسم : مدخل الى السيميوطيقا

(٨٦) رشيد (امينة) السيميوطيقا فى الوعى المعرفى المعاصر ص ٥٢ انظر سيزا قاسم: مدخل الى السيميوطيقا

(٨٧) انظر: قنيبى ص 88 وعزيز ص ٧٨ وغازى ص ٩٠ Saussure, Course. P 68

(٨٨) Culler, Saussure. P.P 91-92

(٨٩) انظر: قنيبى ص 88 وعزيز ص ٨٧ وغازى ص ٩٠ Culler, Saussure. P 68

(٩٠) Saussure, Course. P 96

(٩١) قاسم (سيزا) السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والابعاد ص ٣١ ، ٣٤ النظر مدخل الى السيميوطيقا

(٩٢) Culler, Saussure. P.P 97-98

(٩٣) قاسم (سيزا) السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والابعاد ص ٣٣

(٩٤) رشيد (امينة) السيميوطيقا فى الوعى المعرفى المعاصر ص ٥٢ ، ٥٣

ابو زيد (أحمد) النصوص والاشارات : قراءة فى فكر رولان بارت . عالم الفكر ج١١ ع٢ ص ٢٤٧

هوكز (ترنس) البنيوية وعلم الاشارة ص ٨٠

(٩٥) Culler, Saussure. P.P 100-101

هوكز ترنس) البنيوية وعلم الاشارة ص ١٠٥ ، ١١٢

(٩٦) Culler, Saussure. P 101

ابو زيد (أحمد) النصوص والاشارات : ص ٢٣٩ ، ٢٤٠

ابو زيد (أحمد) لعبة اللغة . عالم الفكر ج ١٦ ع٤ ص ٨

(٩٧) Culler, Saussure. P.P 102-103

(٩٨) حجازى (محمود فهمى) اصول البنيوية .. ص ١٥٦

(٩٩) إبراهيم (زكريا) مشكلة البنية ... ص ٣٥

(١٠٠) حجازى (محمود فهمى) اصول البنيوية .. ص ١٦٧ ، ١٦٨

إبراهيم (زكريا) مشكلة البنية ... ص ٨٦ ، ٨٧

هوكز (ترنس) البنيوية وعلم الاشارة ص ١٠٥ ، ١١٢

(١٠١) Culler, Saussure. P.P 94-95

(١٠٢) Culler, Saussure. P.P 96-96

(١٠٣) أبو زيد (أحمد) النصوص والاشارات .. ص ٢٥٣

هوكز (ترنس) البنيوية وعلم الاشارة ص ٨٠

(١٠٤) ابو زيد (أحمد) لعبة اللغة . عالم الفكر ص ٩

(١٠٥) ابو زيد (أحمد) لعبة اللغة . عالم الفكر ص ٩. وانظر ايضا البنيوية وعلم الاشارة ص ١١٩

(١٠٦) ابو زيد (أحمد) لعبة اللغة . عالم الفكر ص ٨

(١٠٧) Culler, Saussure. P.P103-104

هوكز (ترنس) البنيوية وعلم الاشارة ص ٧٠، ٧٢

قام (جاكسون) وهو لغوى ينتمى الى مدرسة براغ بدراسة بنيوية نقدية رائدة عن الشعر تعتمد على اسس لغوية سوسيرية. وقد ربط فى هذه الدراسة الاستعارة بمفهوم سوسير للعلاقة الرأسية، والكناية بمفهومه عن العلاقة الأفقية .

(١٠٨) Culler, Saussure. P 103

(١٠٩) Culler, Saussure. P 104

(١١٠) ابو زيد (احمد) لعبة اللغة ص ١٠

(١١١) ابو زيد (احمد) لعبة اللغة ص ١٢

هوكز (ترنس) البنيوية وعلم الاشارة ص ٦١، ٦٢، ٦٩ يقول :"يمكن القول بوجود وظيفة سادسة للغة هى الوظيفة الشعرية أو الجمالية، وتكشف هذه الوظيفة عن نفسها بشكل التفوه نفسه وليس بمعنى أو مضمون كلماتها المنفصلة فقط "

(١١٢) قاسم (سيزا) السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والأبعاد ص ١٧، ١٨

القسم الثاني

نظرية سوسير بين النظريات السابقة

أ ـ علم اللغة قبل سوسير ..

ب ـ النحويون الشبان ..

جـ ـ المفكرون المعاصرون ..

والآن بعد أن استوفينا الحديث عن نظرية (سوسير) فى اللغة ، قد يكون من الضرورى - إذا أردنا أن نحدد الدور الحقيقى الذى أسهم به سوسير فى تأسيس علم اللغة أن نتحدث عن علاقة نظريته بالنظريات التى كانت معروفة قبله أو معاصرة له .

على أنه مما هو جدير بالذكر أن (سوسير) قد كان على معرفة جامعة بالاتجاهات الفكرية العامة قبله أو فى عصره . وقد كان لها آثار فى نظريته ، كما أن نظريته فى اللغة كان لها آثار حاسمة فى علم اللغة بخاصة وفى العلوم الإنسانية بعامة، ولهذا فنحن نتفق مع (كيولر) حين رأى أن أهمية (سوسير) لا نتبينها فحسب من إسهاماته اللغوية ، بل نتبينها كذلك من الدور الذى أسهم به فكره فى اقتراح منهج أو مخطط للدراسة فى العلوم الإنسانية ، وبدراسة الدور الذى أسهم به فى تأسيس علم اللغة فى أيامه ، والأسس النظرية التى اقترحها لتطويره نكتشف النظريات الأساسية التى تتصل بدراسة السلوك الانسانى وغاياته الاجتماعية.(١)

أ ـ علم اللغة قبل سوسير :

فى صدر المحاضرات المنشورة لمحة موجزة عن تاريخ علم اللغة، ذكر فيها (سوسير) أن علم اللغة ـ قبل أن يتحدد موضوعه وتستبين حقيقته ـ قد مر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى : وهى مرحلة النحو اليونانى الذى قام على أسس منطقية كانت لا تعتمد فى الغالب على أساليب علمية ، وكانت منفصلة عن اللغة ذاتها ، وقد كان الغرض منها وضع القواعد التى تميزالأساليب الصحيحة من الخاطئة ، ولقد كان نحواً معيارياً * بعيداً عن ملاحظة الواقع اللغوى .

المرحلة الثانية : وهى مرحلة ما يعرف بفقة اللغة Philology* وهى مرحلة قديمة الجذور كسابقتها، ظهرت مبكرة فى الاسكندرية، بيد أنها سادت فى القرن الثامن عشر، وقد كانت أنظار فقهاء اللغة آنذاك متجهة إلى ضبط النصوص المكتوبة وتوثيقها وشرحها والتعليق عليها ، ومن ثم كانوا معنيين أيضاً بتاريخ الأدب والأعراف والتقاليد.(٢)

ولم يقف (سوسير) طويلاً عند هاتين المرحلتين، لأنه ـ كما يقول (كيولر) ـ كان مهتماً بمناهج التحليل اللغوى، وبتعريف الظواهر اللغوية أكثر من اهتمامه بالقضايا العامة للتاريخ الفكرى .

أما المرحلة الثالثة : فهى مرحلة ما يعرف بفقة اللغة المقارن Comparative* Phylology والفضل فيها يعود فى المقام الأول الى أعمال (بوب ١٨١٦) الذى أنجز بحثاً رائداً قارن فيه نظام تصريف الأفعال فى السنسكريتية والألمانية واليونانية واللاتينية، وفى الشطر الثانى من هذه المرحلة حوالى ١٨٧٠ أصبح فقه اللغة المقارن تاريخياً، وآنذاك بدأ اللغويون يبحثون فى قضايا هامة تتصل بطبيعة اللغة وبمنهج البحث فيها، وكان على رأس هؤلاء (موار) و(شلايشر).(٣)

إن اللغوى الذى يهدف إلى وضع نظرية فى اللغة يقوم بعمل يستحق الاهتمام حقاً . بيد أنه لا يبدأ من فراغ أو من حيث بدأ أسلافه ، بل يبدأ من حيث انتهوا. إن الأفكار السابقة أو الاتجاهات السابقة لها أهمية فى تشكيل النظرية. إن البحث اللغوى الذى ينشأ فى عصر يهتم بالبحث فى خصائص الأمة والجنس سوف يكون له سمات تختلف عن علم اللغة الذى ينشأ فى عصر يعنى بالفكر وبطبيعة العقل ذاته. وان كان هذا لا يقلل من أهمية الأفكار التى تختلف عن الاتجاهات الفكرية العامة.

لقد كان البحث فى الفكر الانسانى وبطبيعته هو شغل العلماء الأول فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد كان البحث اللغوى يتغيا هذا الهدف أيضاً.

وقد مثل منهج القرن السابع عشر أوضح تمثيل - رهبان دير (بور رويال)، لقد وضعوا الأساس لما يسمى القواعد اللغوية العامة والمعللة تعليلاً عقلياً، واللغة عندهم انعكاس للفكر، والعلاقة بين الجملة فى النحو والقضية فى المنطق علاقة وثيقة، ومن ثم فتحليل الجملة ينبغى أن يقوم على أساس منطقى ، وأجزاء الكلام وأنماطه وأنواعه ينبغى أن تفسر تفسيراً عقلياً.(٤)

بيد أن نحو (بور رويال) الذى كان يستلهم المناهج التقليدية لم يكن - عند سوسير - معيباً من كل الوجوه، إن أعمالهم - كما يقول - تشهد بانهم حاولوا بوضوح أن يصفوا اللغة على حالها، ومن ثم كان منهجهم وصفياً بكل دقة. ولم يجدوا ضرورة ألبتة - حين أرادوا أن يصفوا اللغة الفرنسية فى عهد الملك لويس الرابع عشر - إلى دراسة اللغة فى العصور الوسطى مثلاً. وهذا يعنى أنهم طبقوا المحور الأفقى بكل إخلاص ودون انحراف، لقد كان المنهج آنذاك صحيحاً بيد أن تطبيقهم له لم يكن وافياً. فالنحو التقليدى يهمل بعض الجوانب العامة فى اللغة مثل صوغ الكلمة، وهو نحو معيارى يفرض القواعد ولا يسجل الظواهر، لقد كانت تنقصه النظرة الكلية، وهو لا يستطيع غالباً أن يفرق بين اللغة المنطوقة والمكتوبة.(٥)

واستمرت النزعة العقلية لمفكرى القرن السابع عشر سائدة فى القرن الثامن عشر وإن كانت فى اتجاه آخر. فعند علمائه أن المرء إذا أراد أن يفهم الفكر فعليه أن يدرس تكون أو

تطور الأفكار ولا يكتفى بدراسة القواعد المنطقية . وهذا عمل ضرورى عند (لوك) وأتباعه، لكى تفهم العقل الانسانى فعليك أن تعرف كيف تطورت الأفكار من الأحاسيس والمشاعر. وقد شغل بهذه القضية عالم القرن الثامن عشر اللغوى (كوندلياك) فى بحثه المعروف بـ (مقال فى أصل المعرفة الانسانية). لقد مضى ببحثه هذا إلى أبعد مما انتهى إليه علماء القرن السابع عشر بتقريرهم أن اللغة صورة للفكر، لقد قرر أن الأفكار المجردة هى نتائج لعملية يتم بها ابتداع الرموز اللغوية. وقد كان عليه أن يقول بوجود عملية طبيعية تنشأ عنها لغة من رموز عرفية أى من تجربة بدائية غير عقلية، وهكذا اضطر إلى أن يحصر نفسه فى البحث فى أصل اللغة .

وهكذا أصبح موضوع أصل اللغة هو القضية المركزية لفكر القرن الثامن عشر، بيد أنه درس كموضوع فلسفى لاكقضية تاريخية، فالباحث يدرس نشأة اللغة ليلقى الضوء على طبيعة اللغة، ومن ثم على طبيعة الفكر. فبتفسير أصل شىء من الأشياء يفسر المرء طبيعته، ولهذا تركز تفكير علماء القرن الثامن عشر على ما يمكن أن يسمى الأصل الايتمولوچى الفلسفى Philo-sophic etymology وهو محاولة تفسير العلامات اللغوية والأفكار المجردة بتصور أصولها فى الاشارة والحدث والاحساس وقد افترض (كوندلياك) مثلاً أن حروف الجر كانت فى الأصل أسماء لإشارات تدل على الاتجاه .(٦)

إن الرغبة فى التعرف على طبيعة العقل بدراسة اللغة أدت باللغويين الى البحث فى الجذور الأصلية أو الأولية. أى العناصر الدلالية الضرورية المشتركة فى كل العلامات التى تتضمن هذه الجذور. لقد كان الجذر اسماً بدائياً (معنى أساسياً)، ثم حدثت له تطورات تالية ربما تكون توسعات مجازية أو زيادات - إن لم تكن تحريفات لهذه العلامات الأساسية - وهذا مثال طريف للجذر (Bar) :

تدل (Bar) فى كل استعمالاتها على الدفاع Defence أو الدعم أو التحصن والتقوى، ومن ثم تشير Barn إلى مبنى من حوائط مسقوفة تحفظ فيها الحنطة أو غيرها لتحميها من المطر أو السرقة . وتشير Baron إلى رجل مسلح قوى مدافع ، و Barge إلى قارب قوى و Bargain إلى عهد موثق أو اتفاقية مدعومة، و Bark إلى لحاء الشجرة الذى يحميها ...إلخ.

والمثال السابق يوضح القضايا الآتية :

أولها : إن دراسة اللغة قائمة على مفهوم التمثيل Representation فالكلمات تعد علامات تمثل الأنواع أو العناصر الأساسية للتجربة التى تعبر عنها، مواقف كانت أو أشياء أو أشخاص .

ثانيها : على المحلل ـ لكى يلقى ضوءاً على الفكرة ـ أن يدرس العلامات واشتقاقها فالكلمة Baron ليست فحسب وحدة عرفية اعتباطية : علاقة بين الشكل والمعنى ، لأن اشتقاقها المفترض من جذر أولى يعد فى ذاته أساساً طبيعياً لها، ولكل الكلمات الأخرى التى تشترك معها فى الجذر بشكل عام. ويَفْتَرض الاجراء الايتمولوچى أن الكلمات فى لغتنا لها أساس عقلى يمكن دراسته من خلال الجذر الأولى.

ثالثها : عنصر الزمن معتبر، كما هو الحال عند علماء القرن الثامن عشر لا على أنه مركز الاهتمام للعمل أو الاجراء التاريخى بل على أنه محاولة مفترضة للتفسير وهذا فتح الطريق لبحث تاريخى أكثر فهماً للتطور اللغوى .

رابعها : أن العلاقة بين اللغة والعقل عبر عنها جزئياً أو ذرياً Atomistically فالعلامات ـ التى درست مفردة أو فى مجموعات مفردة ـ توضح طبيعة العقل والعمليات العقلية، والربط بين اللغة والعقل هنا لن يكون من خلال البنية المنطقية لنحو القرن السابع عشر المنطقى، ولكن من خلال مفاهيم طبيعية تمثلها الجذور الأولية .

ولهذا فقد بدا لعلماء القرن الثامن عشر المتأخرين أن العلاقات بين الجذور الفعلية للغات القديمة علاقات كثيرة يؤمل أن تقودنا إلى افتراض أصل مشترك لهذه اللغات .(٦)

لقد رجع (سوسير) إلى قضية العلامة وعد اللغة نظاماً تمثيلياً (Representative System) لقد اعتقد أن اللغوى إذا لم يعالج الأشكال اللغوية كعلامات فلن يستطيع تعريفها بدقة ، ولكنه ـ حين يضع قضية العلامة فى إطار منهجه ـ يتجنب النظرة الجزئية نظرة أسلافه

من علماء القرن الثامن عشر، العلامات مجموع مؤلف يقوم على علاقات تنعقد بين مفرداته، ولهذا فإن دراسة العلامات فى حال انفرادها أى كوحدات مفردة تمثل الأنواع أو الأشياء أو الأشخاص دراسة ينبغى هجرها.

وقد نجح (سوسير) - بالاضافة الى ما سبق - فى أن أعاد القول بوضوح ودقة فى شأن العلاقة بين دراسة اللغة والعقل، ولكن على مستوى آخر وفى إطار منهجى مختلف. فالذى تكشفه دراسة اللغة عن العقل ليس عدداً من المفاهيم الأولية أو الأفكار الطبيعية، بل البنية العامة والعمليات الخلافية. وذلك عندما قرر (سوسير) أن المعنى تمييزى أو خلافى أى قائم على الفروق أو أوجه الخلاف بين العناصر، لا على الصفات الجوهرية للعناصر ذاتها. (وانظر ص ٣٦ ، ٣٧ من هذا البحث).

لقد كانت نظرة لغويى القرن الثامن عشر نظرة مادية واقعية أخطأت مجالها. أما (سوسير) فقد كانت نظرته عقلانية .

لقد كان اكتشاف اللغة السنسكريتية فى نهاية القرن الثامن عشر. أعلن هذا النبأ (وليم جونز) عام ١٧٨٦ م، أعلن آنذاك أن السنسكريتية لها علاقة باليونانية واللاتينية، وأن هذه العلاقة مرجعها إلى جذور الأفعال والصيغ النحوية بحيث لايمكن أن نعزو ما بينها من قرابة إلى مجرد الصدفة، ولا يسع أى لغوى بعد تفحصه هذه اللغات الثلاث إلا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك زال من الوجود.

بيد أن الملاحظات القليلة التى قدمها (جونز) لم تكن كافية لقيام المنهج المقارن، وكان (فرانزبوب) ١٨١٦م أول من سجل التشابه بين اللغات، وقرر أنها جميعاً تنتمى إلى عائلة لغوية واحدة. ويقرر (سوسير) أن (بوب) هو الذى أثبت أن المقارنة بين اللغات يمكن أن تكون الموضوع الرئيسى لعلم مستقل، كما أن أحداً لم يسبقه إلى القول بامكانية تفسير صيغ وأشكال لغة ما بتفسير صيغ وأشكال لغة أخرى، وماكان له أن يصل إلى ماوصل إليه إلاباكتشاف السنسكريتية لأنها - كما يقول سوسير- "صورة فريدة مناسبة تساعد على توضيح العلاقة بين هذه اللغات.

فإذا ماقورنت اللاتينية باليونانية فلن نتبين شيئاً ذا بال، ولكن الصورة ستتغير تماماً إذا أضيفت إليهما السنسكريتية. وبافتراض أن الصيغة فى السنسكريتية تمثل المرحلة الأولية، سوف نتبين التغيرات التى حدثت فى كل لغة، ومن ثم نتبين بالتأكيد العلاقات القوية بينها، لأن السنسكريتية قد احتفظت بالصورة الأصلية لهذه المجموعة من اللغات".(٧)

وهكذا أصبحت مهمة علم اللغة - بعد توفر هذه المعلومات الجديدة الموحية - هى المقارنة لكنها لم تكن تلك المقارنة بين الأشكال المفردة التى حظيت باهتمام علماء اللغة فى القرن الثامن عشر، لقد كان الهدف هو اكتشاف أنماط القرابة، لااكتشاف المعنى الأولى الذى ربما يحمله الجذر (راجع ما قلناه آنفا عن الجذر Bar ومشتقاته). لقد اتجهت العناية إلى الجداول التصريفية - وهى العناصر التى استبعدتها النظرة الاشتقاقية الفلسفية التى تهدف إلى الوصول إلى الجذور - أو بعبارة أخرى - إلى العناصر القابلة للانفصال ، والتى ربما ترجع إلى جذور أخرى .

ومع أن (شليجل) ١٨٠٨ قد سلم بوجود الجذور المشتركة، فإنه قد قرر أن النقطة الحاسمة فى الموضوع هى البنية الداخلية للغات أوهى النحو المقارن الذى سيقدم إلينا معلومات جديدة تماماً عن أصل اللغة .

إن تحول الاهتمام من الجذور الى الأنماط التصريفية يعكس تغيراً واضحاً فى مفهوم اللغة، فليست اللغة تمثيلاً أى صورة للفكر الذى تمثله، إنها نظام من أشكال محكومة بقانونها الخاص، أى لها نظامها الشكلى المستقل. إن مفهوم المقارنة بين اللغات - لا على ضوء الجذور التى تستخدم للتعبير عن المفاهيم الأساسية أو أنماط التجربة بل على ضوء الأنماط الشكلية للعناصر النحوية التى من خلالها تترابط الكلمات وتتخالف - كان خطوة رئيسية نحو مفهوم اللغة كنظام شكلى مستقل. واللغة كما اقترح (شليجل) تفهم على أنها غاية للمعرفة، شىء يمكن تشريحه أو فصل عناصره بعضها عن بعض مثل النبات أو الحيوان وما كانت لتدرس على أنها صورة للفكر ذاته أو كتمثيل لعلاقة العقل بالعالم.(٨)

لقد كان منهج الدراسة اللغوية هو المقارنة، وكان الهدف هو البرهنة على القرابة بين اللغات، وكان المعيار الأساسى للقول بالقرابة هو وجوه التماثل بين الأنظمة التصريفية. ولقد انتهى هذا إلى صياغة ما عرف بالقوانين الصوتية وهى قواعد عامة أو (جداول التماثل) التى تقرر أن قائمة ما من الأصوات فى لغة ما تطابق قائمة أخرى فى لغة أخرى. وأشهر هذه القوانين قوانين (جريم) الذى كان من أشهر النحاة المقارنين فى عصره مثل (بوب) و(راسك). والقانونان الآتيان مثل لذلك. حيثما نجد T فى اللغات الجرمانية نجد D فى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية. وحيثما نجد F فى اللغات الجرمانية نجد P فى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية .

وهذا واضح من الصور المختلفة للكلمة (Foot)

الألمانية القديمة	Futus
اليونانية	Podos
اللاتينية	Pedos
السنسكريتية	Padas

وثمة قوانين أخرى يرجع اليها فى مصادرها.(٩)

ولم يكن (سوسير) راضياً عن تلك البحوث المقارنة، وفى ذلك يقول: إن مدرسة المقارنة التى يرجع إليها الفضل دون جدال فى اكتشاف مجال جديد ومثمر للبحث اللغوى لم تنجح فى إقامة أصول العلم الحقيقى الذى يدرس اللغة، لقد أخفقت فى التعرف على طبيعة موضوعها. ومن غير هذه الخطوة الأولية لا يستطاع تطوير المنهج. إن خطأهم الأول - وكان أيضاً مصدر أخطائهم الأخرى أنهم - فى أبحاثهم التى تناولت اللغات الهندية الأوربية فقط لم يسألوا أنفسهم عن معنى أو فائدة مقارناتهم أو عن أهمية العلاقات التى اكتشفوها، لقد كان منهجهم مقارنياً

ولم يكن تاريخياً. إن المقارنة ـ فى الحقيقة ـ لازمة لكل من يعيد بناء التاريخ ولكنها ـ بشكل منفرد ـ غير قاطعة . لقد كانت النتيجة محيرة الى أبعد حد حين نظر المقارنون إلى تطور لغتين كما ينظر عالم التاريخ الطبيعى إلى نمو نبتتين.

وأوضح مثل لذلك (شليجل) الذى يدعونا دائماً إلى أن نبدأ المقارنة من الهند وأوربية الأولى Proto-Indo- European * . وهكذا يبدو أنه يتعامل معها وكأنها ثابتة تاريخياً ـ لم يتردد فى القول بأن E , O فى اليونانية درجتان فى النظام الصوتى، وذلك لأن السنسكريتية لها نظام من البدائل الصوتية يتحقق فيه مفهوم الدرجات. وقد افترض (شلايشر) أن كل لغة ينبغى أن تمر بهذه الدرجات منفردة وبالطريقة نفسها مثلما يحدث تماماً للنباتات من نفس النوع حين تمر بنفس المراحل التطورية مستقلاً بعضها عن بعض".(١٠)

وهكذا يتحدث هؤلاء المقارنون كما لو كان ثمة نمط لغوى عالمى مجرد يتمثل فى مجموعة من المواقع Slots على كل لغة أن تشغلها ببعض العناصر، ولهذا خلطوا بين النظرية الوصفية الآنية والنظرية التاريخية. والحق أن العناصر التى اكتشفوها نتيجة المقابلة بين اللغات تشير إلى علاقة تاريخية، والمهمة التاريخية ربما تكون ـ وعلى نحو مفصل ـ إعادة بناء الخطوات التى أصبحت بمقتضاها عناصر فى اللغة الهند وأوربية الأولى عناصر فى السنسكريتية واليونانية واللاتينية ... الخ. أما المهمة الوصفية ـ من الناحية الأخرى فقد تكون كيف انتظمت العناصر التاريخية المعطاة صدفة فى مرحلة خاصة من تطور اللغة ـ فى نظام خاص بهذه اللغة. والخلط بين هاتين المهمتين كما أوضح (سوسير) نتبينه عند (جريم) الذى لم يكن عالماً لغوياً تاريخياً مناسباً. "لقد أخفق فى التفريق بين التغيرات التاريخية ووظيفة العناصر اللغوية التى يكتسبها كل عنصر من النظام اللغوى. لقد رأينا أن تغير الحركة كما فى Foot : Feet كان نتيجة تغير صوتى بحت ليس له أدنى اتصال بالنظام النحوى ، لكن (جريم) رأى أن تغير الحركة له دلالة فى ذاته إن الحركة فى Foot أصبحت الحركة فى Feet لتدل على الجمع . إن الأمر يبدو وكأن ثمة موقعا ينبغى شغله، وأن اللغة ينبغى أن تُنمّىَ أو تطور شكلاً جديداً لكى تشغله. وثمة سبب لهذا النوع من التفكير، إنه أسلوب الكائن الحى : كائن ينمو ويتطور ذاتياً وباستقلال وفقاً لقوانين عامة.(١١)

لقد ربط (شليجل) النحو المقارن بعلم التشريح المقارن، والتشريح المقارن وجه البحث نحو البنية العضوية للكائنات الحية. فالنباتات أو الحيوانات يتعلق بعضها ببعض من حيث الأساليب المختلفة التى بها تقوم الأعضاء بوظائفها الرئيسية مثل التنفس والتكاثر والهضم والتنقل والدورة الدموية. وهذه العلاقات بدورها تؤدى إلى عمل مصنفات تاريخية (تصنيف النباتات والحيوانات إلى طوائف ورتب وفصائل وأجناس وأنواع) أى مخططات تطورية يستخدم فيها مفهوم التاريخ لتقويم وشرح الفروق بين النظام العضوى لكل نوع كما تظهره المقارنة.

والأرضية المشتركة بين علم اللغة وعلم الأحياء Biology فى مطلع القرن التاسع عشر هى أن كليهما مشغول بالابتعاد عن مفهوم الاستمرارية التاريخية المتخيلة الذى كان متأصلاً فى بحوث القرن الثامن عشر. والطريقة الوحيدة لكى يكتب التاريخ بطريقة سليمة أن نقطع الصلة بالتاريخ فى المرحلة الأولى ، لكى نعالج اللغات الفردية أو الفصائل اللغوية ككائنات مستقلة يمكن وصفها والمقارنة بينها ككل، وعندئذ يصبح من المحتمل - بتنفيذ ذلك على الكائنات المستقلة - إعادة اكتشاف التاريخ ، ولكن على مستوى آخر .

وبما أن الكائن الحى قد حلل كنظام عضوى له وسائل لتحقيق الوظائف الأساسية فقد حلل فى ضوء الظروف التى أقدرته على أن يكون له تاريخ . إنه كقولك إن تاريخ العضوية Or-ganism أو الأنواع يصير رواية للوسيلة التى تتحقق بها هذه الوظائف، أى رواية للتغيرات التى خضع لها لكى يحافظ على وجوده . فالوظائف الأولية تصبح الأساس لحلقات أو مسلسلات تاريخية. ولهذا فان العمل اللاتاريخى لعلم التشريح المقارن هو الذى جعل نظرية (دارون) فى التطور ممكنة.

وبالمثل فان المنهج المقارن فى اللغة يختلف عن علم الاشتقاق الفلسفى من حيث إنه يدرس اللغة كأنظمة يمكن المقارنة بينها. والمقارنة توضح الوسائل المختلفة التى بها تقوم اللغة بوظائف مماثلة (مثل الأنظمة التصريفية المختلفة للاسم)، ووجوه التماثل بين هذه الفروق يستدعى من ثم تفسيراً تاريخياً، يستدعى تصوراً لشجرة التطور. ويبدو هنا أن علم اللغة يتبنى نظرية (لامرك) فى التطور لا نظرية دارون.(١٢)

ب ـ النحويون الشبان :

وما إن حل عام ١٨٧٠ حتى كتب (سوسير) مقرراً أن علماء اللغة قد بدأوا بالفعل فى وضع الأسس السليمة للبحث اللغوى . لقد كان تطوران مهمان: كان لسوسير نفسه دور فيهما .

أولاً: ظهور مجموعة اللغويين التى عرفت بالنحويين الجدد، ومن بينهم أساتذة (سوسير) فى (ليبزج) .

ثانياً: ظهور علم اللغة التاريخى، وقد كان رد فعل للبحوث المقارنة التى شاعت فى بداية القرن التاسع عشر.

لقد رغب النحاة الجدد فى أن يجعلوا من علم اللغة علماً تاريخياً دقيقاً له مناهج العلوم الطبيعية، تلك العلوم التى حققت تقدماً واضحاً فى القرن التاسع عشر. وقد تمسك علماء هذا القرن بقوة بعمومية القوانين وبإدراك الظواهر إدراكاً واقعياً وبنظرتهم الواعية إلى النظام والتناسق فى العالم. وفى هذا الإطار نفسه كتب (أوستهوف وبروجمان) عن قوانين صوتية ناشئة عن الضرورة البحتة، قوانين مطردة لا تعرف الاستثناء، قوانين مستقلة عن إرادة الأفراد. وليس معنى هذا أن اللغة لها حياتها المستقلة ، بل هى ذات وجود لدى الأفراد الذين يؤلفون جماعة لغوية، والتغيرات اللغوية ماهى إلا تغيرات فى العادات اللغوية للأفراد. وفى ضوء فهمهم للقوانين الصوتية الصارمة فسروا بعض المستثنيات التى خرجت على قانون (جريم). لقد اكتشفوا أن مكان النبر هو العامل المؤثر فى تحول T فى الكلمة السنسكريتية Pitar إلى D فى القوطية ... إلخ.(١٣)

وقد كان هذا تقدماً علمياً أساسياً، ولكن مبدأ التغير المطرد بدون استثناء مبدأ حاسم لأسباب ربما لم يفهمها أحد غير (سوسير) . فالطبيعة المطلقة للتغير الصوتى هى نتيجة للطبيعة الاعتباطية للعلامة، فما دامت العلامة اعتباطية فليس ثمة سبب للتغير فى صوت ما لاينطبق على كل أمثلة هذا الصوت، على حين لو كانت الأصوات منبعثة طبيعياً (كالعبارات التى تعد تقليداً لأصوات الطبيعة Bow - wow) لكان ثمة مقاومة للتغير معتمدة على درجة الحث أو

الاستثناءات، لأن التغير - ما دام للصوت ولتحققاته الصوتية طبيعة اعتباطية - لاينطبق مباشرة على العلامات ذاتها بل ينطبق على الأصوات أو بالأحرى على صوت مفرد فى وسط خاص. إن الموقف - كما يقول (سوسير) أشبه بوتر فى بيانو أُوْخى أو شُدَّ، سوف نسمع نغمة نافرة فى كل وقت يضرب فيه اللاعب على المفتاح المتصل به. ولكن أين سبب هذا التنافر ؟ أهو فى المعزوفة ؟ لا. بالتأكيد إن المعزوفة لم تتأثر. كل ما هنالك أن البيانو فاسد. والشيء ذاته يقال عن الأصوات. نظامنا من الوحدات الصوتية Phonomes هو الآلة التى نستخدمها لكى ننطق بكلمات اللغة، فإذا ما تغير أحد عناصره اختلفت النتائج، ولكن التغير نفسه ليس له علاقة بالكلمات التى هى - إذا صح التعبير - معزوقات من محفوظنا".(١٤)

أما التطور الثانى - وفقاً لما رآه (سوسير) فكان نتيجة للبحوث المقارنة التى انتهت إلى مفهوم التسلسل التاريخى . وقد أوضح (مايه) الفرق بين القواعد المقارنة وعلم اللغة التاريخى فقال: حقيق بنا أن نقر ونعترف بأنه لايوجد علم يسمى بالقواعد المقارنة .. اذ لاتوجد إلا طريقة للمقارنة، وأن ما ندعوه خطأ بالقواعد المقارنة ليس إلا شكلاً من أشكال علم اللغة التاريخى، فإذا ما أردنا بحث القواعد المقارنة لإحدى اللغات درسنا تاريخ هذه اللغة على هدى الطريقة المقارنة.(١٥)

وقد أسهم (سوسير) نفسه بدور رئيسى فى علم اللغة التاريخى فى رسالته التى أنجزها عام ١٨٧٨ عن نظام الحركات فى اللغات الهندية الأوربية، وهو العمل الذى كشف عن ثراء نظرته إلى اللغة على انها نظام من العناصر العقلية الخالصة حتى وإن كان هدف العمل هو إعادة بناء اللغة تاريخياً. كان (سوسير) مهتماً بقضية تغيير الحركات فى اللغات الهندية - الأوربية. وكان المطلوب هو بيان نظام الحركات الذى ينبغى أن يكون فى اللغة الهندية الأوربية الأولى ، ويفسر أنماط التغير فى الحركات الموجودة فى اللغات المعروفة التى تفرعت عنه. وكان أصعب جانب فى القضية هو الحركة a . لقد افترض العلماء الآخرون وجود أنواع مختلفة من هذه الحركة عند محاولتهم تفسير النتائج المتنوعة فى اللغات الأخرى، ولقد رأى (سوسير) أن حلولهم غير مرضية، وافترض - بالاضافة إلى نوعين من الحركة a وجود فونيم آخر قد يمكن وصفه بعبارات شكلية، وهذا الفونيم لاعلاقة له بـ e او 0 (المأخوذين من شكل الحركة a) هذا الفونيم

قد يجيء وحده ليكون مقطعا مثل أى حركة، ولكنه يجيء أيضا مصاحبا لحركة أخرى مثل أى صامت. ولم يحاول (سوسير) أن يحدد مادته ولكنه سماه sonant coefficient وقد عامله كما لو كان وحدة عقلية (علاقية relational) وشكلية خالصة فى نظام الحركات. وقد كان فرض (سوسير) هذا فعالاً، فبعد حوالى خمسين سنة من إعلانه - عندما فكت رموز اللغة الحيثية - وجد أنها تتضمن فونيما يرسم مثل h ويعمل بالطريقة التى تنبأ بها (سوسير). لقد اكتشف - بتحليل شكلى بحت - مايعرف اليوم بحنجريات الهندية الأوربية).(١٦)

لقد أسهم النحاه الجدد كما يقول (سوسير) بوضع البحوث المقارنة فى إطار البحث التاريخى، وبهذا لم يعد أحد ينظر إلى اللغة على أنها كائن عضوى يتطور مستقلاً بل أصبحت نتاجاً للعقل الجمعى للجماعات اللغوية.(١٧)

لقد أعلن (بروجمان) معارضته الصريحة لنظرية (شلايشر) وقال: أتمنى على كل لغوى أن يحزم أمره ويمتنع عن استخدام تلك التعابير الضارة مثل (شباب اللغة) أو (شيخوختها) التى لم ينجم عنها إلا الأذى فى أيامنا وقليل جداً من الفائدة.(١٨)

بيد أن غلطتهم الحقيقية أنهم أخفقوا فى أن يسألوا أنفسهم أسئلة أساسية عما يدرسونه، أسئلة عن طبيعة اللغة ذاتها وأشكالها الفردية، أسئلة منهجية هامة عن حقيقة علم اللغة الوصفى والتاريخى. ولم يفعل النحويون الجدد ذلك إلا لأنهم هجروا قضية التمثيل (أو المعنى) كأساس لعلمهم. لم يفكروا فى العلاقات وقد رأينا عند - سوسير - أنه بالبحث فى العلاقات وطبيعتها يمكن للباحث أن يبدأ فى التمييز بين الجوانب الوظيفية وغير الوظيفية للغة، وأن نصل - بطريقة مناسبة - الى مفهوم عقلى (علاقى) للوحدات اللغوية.(١٩)

لقد كان النحاة الجدد معنيين بالأشكال Forms لا بالعلامات Signs فإذا ما سأل المرء تحت أية ظروف تصبح الأشكال اللغوية موضوعاً للمعرفة أو مادة لعلم فإنه يصل إلى القلب من موقف النحاة الجدد. لقد تشبث علماء المقارنة الأوائل - مثل بوب - بالمعنى والتمثيل كشروط للمقارنة، فالباحث يدرس الكلمات التى تستخدمها اللغات المختلفة للتعبير عن مفهوم معين ، ثم

يستدل باستمرارية المعنى كوسيلة للربط بين الكلمات والقيام بالمقارنة. وعندما سأل هؤلاء اللغويون أنفسهم : ماأهمية هذه المقارنات انتهوا الى أن علمهم يهدف الى مفهوم الاستمرارية التاريخية، فإذا لم تكن الكلمات المتماثلة فى الشكل قد وقعت مصادفة فانهم يشيرون الى أصل مشترك ، وتصبح مهمتهم افتراض أشكال أصلية واتباع التطور التاريخى الذى يربط الأشكال الأصلية بالأشكال التالية فى سلسلة متدرجة غير مقطوعة. ولو استخدمنا المقابلة بين المقارنة وعلم البيولوچى هنا لقلنا إن من نتائج ذلك استبعاد قضية التمثيل، فالنبات لايرمز إلى شىء، إنه لايحمل معنى، إنه شكل ينمو وفقاً لقوانين ينبغى اكتشافها.(٢٠)

والحق أن النحاة الجدد قد تخلوا عن الربط بين اللغة والبيولوچى وهو من مفاهيم علماء منتصف القرن التاسع عشر، ولكنهم بتخليهم عن هذا المفهوم احتفظوا بنتيجتين من نتائجه الطبيعية، إهمال قضية التمثيل أو المعنى، والادعاء بأن علمهم ينبغى أن يكون تاريخياً وينبغى أن يدرس التطور التاريخى. وقد كان (سوسير) متشككاً فيما يتصل بمفهوم الاستمرارية التاريخية، ورأى أن دراسة التطور التاريخى للأشكال قد تقودنا إلى إساءة فهم قضايا الوظيفة اللغوية واهمالها. إن النظرة التاريخية تصرفنا عن الانتباه إلى القضايا التى تتصل بالوصف الآنى للغة.(٢١)

بيد أن التطور الرئيسى فى معالجة قضية اللغة علاجاً مناسباً قد حدث حين بدأ اللغوى الأمريكى (ويتنى Whitney) يثير من جديد قضية العلامة . فاللغة ـ عنده ـ منظمة قائمة على عرف اجتماعى، وهى مجموعة من الاستعمالات شائعة بين جماعة معينة ، إنها ذخيرة من كلمات وأشكال، كل منها علامة اعتباطية وعرفية، وبتركيز (ويتنى) على الطبيعة النظامية والعرفية للغة يكون ـ كما يقول سوسير ـ قد وضع علم اللغة فى موضعه الصحيح " (٢٢) لكنه لم يدرك نتائج وتطبيقات هذه النظرة الجديدة، فمازال يؤكد أن علم اللغة لابد أن يكون علماً تاريخياً، مهمته البحث عن الأسباب، وتفسير لماذا نتكلم عندما نتكلم. وقد استخف كثيراً بمهمة علم اللغة الوصفى الآنى حيث كتب قائلاً: إن فهم وتفسير ظاهرة اللغة ـ من كلماتها وأشكالها وقواعد استعمالها هو عمل النحاة وواضعى المعاجم. ومن ثم فقد قرر أنه غير مهتم بقضية التعريف أو

الهوية أو بقضية طبيعة العلاقة بين الوحدات اللغوية، وقد كان له اهتمام قليل بالقضايا التى تتعلق بالأصول أو الأسس وهى القضايا التى عنى بها (سوسير) ولكن (ويتنى) دفع (سوسير) إلى مجال أبعد حين وجهه إلى الرجوع إلى قضية العلامة وإلى أنها تقوم بدور تمثيلى لا بدور تاريخى، وهذا الدور هو أساس العلم الذى يمكن الباحث من أن يفرق بين ما هو منه وماليس منه، أو بين ماهو وظيفى وماليس وظيفياً.

وقد عاد (سوسير) إلى مفهوم التمثيل، ولكنه فهمه ووظفه بطريقة مختلفة فما عاد علم اللغة قائماً على أساس وجود معنى ضرورى ثابت مشترك فى مجموعة كاملة من الأشكال كما كان الحال عند الاشتقاقيين فى القرن السابع عشر، بل على العكس من ذلك ربما كان عدم الثبات أساس مفهوم التمثيل. فالمعانى موجودة فحسب لوجود فروق فى الدلالة، ولأن هذه الفروق الدلالية هى التى تجعلنا قادرين على تقنين عملية التمييز بين المنطوقات. فالأشكال يمكن التعرف عليها - لا بوساطة ثبات فى الاستمرارية التمثيلية أو التاريخية، ولكن بوساطة وظائفها التفريقية: أى قدرتها على التمييز ومن ثم على انتاج معان محددة .

وهذا الادراك الواعى الأساسى - الذى لم يوجد عند (ويتنى) أو عند معاصرى (سوسير) الآخرين - له دلالته الثورية، فالمعنى يعتمد على فرق فى الدلالة. ومن خلال المعنى فحسب يمكن للمرء أن يحدد الأشكال ويبين صفاتها الوظفية . فالأشكال ليست أشياء مادية بل هى عناصر تحدد من خلال تحليلنا لنظام من علاقات وفروق .

ويؤكد (كيولر) أن مفهوم (سوسير) للتمثيل سيعبد الطريق لدراسة السلوك الانسانى والأهداف الانسانية، وباعادة النظر والتركيز على قضية التمثيل مع القول بانفصاليتها وعدم ثباتها يساعد (سوسير) فى تأسيس الفكر الحديث.(٢٣)

جـ : المفكـــرون المعاصـــرون :

يقول (كيولر) لكى نفهم بوضوح أكبر حداثة الأفكار التى جاء بها (سوسير) سوف نهجر علم اللغة فترة، لنضع مؤسس علم اللغة الحديث بين معاصريه العظيمين : (إميل دور كايم)

مؤسس علم الاجتماع الحديث و(فرويد) مؤسس علم النفس الحديث. هؤلاء المفكرون الثلاثة أحدثوا ثورة فى العلوم الاجتماعية، بابتداعهم مجالات جديدة للعلوم التى يدرسونها، قل إنهم فهموا أهداف هذه العلوم بطرق مختلفة عمن سبقهم. ووفروا نمطاً جديداً من التفسير".(٢٤)

أولاً : إميل دور كايم

كانت القضية الأولى لعلم الاجتماع هى طبيعة ومكانة الظواهر التى يدرسها أو بعبارة أخرى موضوع البحث، وكانت هذه القضية بخاصة هى شغل علماء القرن التاسع عشر الأوائل، وكان المبدأن السائدان فى التراث الفلسفى للعصر وهما المثالية الألمانية والوضعية التجريبية قد التقيا فى نقطة واحدة هى اتجاههما إلى الاعتقاد بأن المجتمع ليس شيئاً أساسياً، بل هو نتيجة لشىء آخر، أو هو ظاهرة ثانوية. لقد فصل الوضعيون الحقيقة المادية الموضوعية للأشياء والأحداث عن الادراك الفردى الذاتى للحقيقة. ومن ثم لا يمكن أن يوصف المجتمع بأنه حقيقة مادية موضوعية، ولهذا عولج على أنه نتيجة أو عرض لشعور وأفعال الأفراد. وقد كتب (بنتام) قائلاً : المجتمع كيان متخيل يؤلفه كل الأفراد الذين يمثلونه. ومن الواضح أن الادعاء بأن المجتمع هو نتاج الأفراد، كل فرد فيه يعمل وفقاً لاهتمامه الذاتى ادعاء يقوم على أساس مذهب المنفعة".

وفى المقابل فان (هيجل) يعد القوانين وأنماط السلوك والتقاليد بل والشعور ذاته تعبيرات عن العقل الذى ينشئها، ومن ثم فهى تدرس كمظاهر أو نتائج لا كظواهر أساسية .(٢٥)

والاتجاهان كلاهما لا يلائمان تطور العلوم الاجتماعية، وقد أدرك (سوسير) و (دوركايم) و(فرويد) أنهما يدوران فى المجال الخاطىء. فالمجتمع حقيقة أولية، وليس هو مجموع النشاطات الفردية وليس ظواهر عارضة للعقل، واذا ما أراد المرء أن يدرس السلوك الانسانى فعليه أن يعترف بوجود حقيقة اجتماعية، فالانسان لا يعيش بين أشياء وأحداث فحسب، بل بين أشياء وأحداث لها دلالة، وهذه الدلالات لا يمكن أن تعالج كمجموع إدراكات ذاتية. إنها الأساس الصريح للعالم، ولا يمكن استبعاد الدلالة الاجتماعية للأحداث ومعانى المنطوقات ومشاعر الحب

والغضب والذنب ... الخ، إنها ظواهر اجتماعية، وهكذا يقرر (دور كايم) - ويقرر معه معاصراه (سوسير) و(فرويد) أن علم الاجتماع قائم على أساس الحقيقة الموضوعية للظواهر الاجتماعية.(٢٦)

وقد عارض (دور كايم) نظرية المحاكاة أو التقليد عند (تارد) الذى يرى أن كل الظواهر الاجتماعية إنما ترجع - بصفة نهائية - إلى العلاقة بين شخصين يمارس أحدهما تأثيراً عقلياً على الآخر، بل إن المجتمع يأخذ فى الظهور حينما يتجه الفرد إلى جعل سلوكه على نمط سلوك الآخرين .. أما المجتمع فهو جماعة من الأفراد لديهم القدرة على محاكاة بعضهم، أو تتحقق بينهم - على الأقل - سمات مشتركة تعد نسخاً متكررة لنموذج واحد.(٢٧)

ويؤكد (دور كايم) أن المحاكاة ليست ظاهرة اجتماعية حقيقية كما ذهب (تارد) ذلك أنها عملية فردية تكمن فى الفرد ذاته برغم ما قد يترتب عليها من نتائج اجتماعية، وقد تكون المحاكاة ظاهرة عامة إلا أنها مع ذلك ليست ملزمة وهذا بدوره يجعلها غير اجتماعية، أما حين نتصور النظم على أنها معتقدات وضروب من السلوك نتجت عن الحياة الجمعية للجماعة حينئذ فقط تصبح ظواهر اجتماعية حقيقية، لأن لها وجوداً خارجاً مستقلاً عن الفرد، وتمارس قهراً عليه، وهكذا ينتهى (دور كايم) إلى أننا نستطيع أن نعرف علم الاجتماع بأنه علم النظم من حيث نشوءها ووظائفها.(٢٨)

وكان (دور كايم) يعارض أن تدرس الظواهر الاجتماعية اعتماداً على منهج الاستبطان، ذلك أنه ليس هناك مايدل على أن أفكارنا عن الأشياء تطابق الأشياء ذاتها، والغاية الأساسية لعلم الاجتماع هى تحقيق الموضوعية بمعنى أن عالم الاجتماع حينما يدرس - ابتداء - المجتمع، عليه أن يتخذ موقفاً يماثل موقف العالم الطبيعى الذى يفترض أنه يرتاد ميداناً غير معروف وغير مكتشف، وحين يقوم - باجراء بحثه على هذا النحو - يستطيع أن يتعرف على الظواهر من خلال المظاهر الخارجية الملموسة مثل: الولاء الدينى والزواج ومعدل الانتحار والمهنة..الخ. ويؤكد (دور كايم) أن هذه الظواهر التى أمكن ادراكها عن طريق التحليل المتعمق انما هى بمثابة انعكاس لظروف اجتماعية معينة.(٢٩)

وقد كان وصف (دور كايم) للظواهر الاجتماعية بأنها أشياء موضع اعتراض كثير من معاصريه الذين ظنوا أنه يريد أن يجعلها مادية، فيرد عليهم بأنه لايقول إنها أشياء مادية، ولكنه يقول إنها جديرة بأن توصف بأنها أشياء كالظواهر الطبيعية ثم يعرف الشيء بقوله : الشيء يقابل الفكرة بمعنى أن معرفتنا له تأتى من الخارج على حين أن معرفتنا بالفكرة تأتى من الداخل.. وليس معنى أننا نعالج طائفة خاصة من الظواهر على أنها (أشياء) هو أننا ندخل هذه الظواهر فى طائفة خاصة من الكائنات الطبيعية، بل معنى هذا أننا نسلك حيالها مسلكاً عقلياً خاصاً. أى أننا نأخذ فى دراستها ونحن متمسكون بأننا نجهل كل شيء عن حقيقتها، وأننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية أو عن الأسباب المجهولة التى تخضع لها عن طريق الملاحظة الداخلية مهما بلغت هذه الطريقة مبلغاً كبيراً من الدقة.(٣٠)

فالانفاق على الأبناء وتربيتهم وانجاز الوعود وغيرها من الواجبات التى يحددها الدين أو العرف أو القانون ظواهر اجتماعية وهى تتحدد بمجموعة من الخصائص :

ـ فهى واجبات خارجية يحددها الدين أو العرف أو القانون على الرغم من أن القيام بها ربما لا يتعارض مع عواطف الفرد ، وقد يشعر بها شعوراً داخلياً (وكأنه منطلق من ذاته) إن الفرد فى الحقيقة لم يلتزم نفسه بها ، وانما ألزمته قوة خارجة عنه .

ـ وهذه الواجبات سابقة على وجود الفرد أى أنها تامة التكوين قبل أن يصبح الفرد عضواً فى المجتمع الذى يلقنها إياه، فالمجتمع يباشر قهراً على أفراده لكى يتمسكوا بها، ولو حاول الفرد الخروج عليها لوجد معارضة قوية تعمل على إعادته إلى حظيرته.(٣١)

ـ ومن الواضح أيضاً أن هذه الواجبات الاجتماعية ظاهرة عامة يشترك فى التمسك بها معظم أفراد المجتمع على أقل تقدير، بيد أن عموم الظاهرة الاجتماعية له معناه الخاص عند (دور كايم) : فالظاهرة الاجتماعية عامة لأنها اجتماعية، لا أنها اجتماعية لأنها عامة، أى أن الظاهرة موجودة لدى أفراد المجتمع لأنها موجودة فى الكل المركب الذى هو مجموع هؤلاء الأفراد وهو المجتمع.(٣٢)

ـ والخاصة الأخيرة للظاهرة الفردية هى أنها تختلف عن تجسداتها الفردية، فالإتفاق على الأبناء مثلاً ظاهرة من ظواهر المجتمع برمته وإن اتخذت أشكالاً وصوراً أو انعكاسات مختلفة عند كل فرد من أفراد المجتمع . وعالم الاجتماع إنما يدرس الظاهرة فى شكلها العام لا فى صورها أو تجسداتها الفردية.(٣٣)

وبهذا ينتهى (دور كايم) إلى التعريف الآتى :

"إن الظاهرة الاجتماعية هى كل ضرب من السلوك ثابتاً كان أم غير ثابت يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجى على الأفراد أو هى كل سلوك يعم المجتمع بأسره وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التى يتشكل بها فى الحالات الفردية".

وبهذا التحديد الواضح للظاهرة الاجتماعية ينتهى (دور كايم) إلى ما أسماه العقل الجمعى. وإليك المثال الآتى لتوضيحه .

ماذا أفعل لو دعيت إلى غداء مع جمع من الأساتذة فى مأدبة عامة، وجلست إلى المائدة، ولم أجد ـ لسبب من الأسباب ـ أدوات المائدة أمامى، وأحببت أن أتناول شيئاً من المرق من الطبق الذى بإزائى؟ ربما فكرت فى أن آخذ الطبق بين يدى وأرفعه الى فمى واحتسى منه ما أشاء ثم أعيده إلى موضعه. يبدو لى أيها القارىء أننى لن أرتضى هذا الحل، ويبدو لى أيضاً أنك تتوقع منى ذلك. ويرجع عدم رضاى عن هذا الحل إلى أننى خاضع لقوة تفرض على تناول الحساء بالملعقة. وهذه القوة ليست قوة مادية لها وجود خارجى. وربما أشعر فى الحقيقة بأن العلاقة الاعتباطية بين تناول المرق واستخدام الملعقة قد تبدو لى غير مُرضية ، ومع ذلك فأنا أذعن لها وأرضى بها. إن القوة التى منعتنى من تناول المرق بفمى مباشرة ظاهرة متأصلة فى المجتمع كنظام أو عرف مستقل عن شعورى هذا، إنها فى الحقيقة مظهر لما استقر فى العقل الجمعى للمجتمع الذى أعيش فيه.

والعقل الجمعى - عند دور كايم - هو المجموع الكلى للمعتقدات والعواطف العامة بين معظم أفراد المجتمع، والتى تشكل نسقاً له طابع متميز .. ويؤكد أن الضمير الجمعى يعيش بين الأفراد ويتخلل حياتهم، ويتحقق ويشتد تأثره واستقلاله بتحقق نوع من التماثل الواضح بين أفراد المجتمع. ذلك أن الضمير الجمعى هو نتاج التماثل الانسانى. وتتجلى قوته فيما يثيره انتهاك نظم الجماعة من رفض ومقاومة. وللضمير الجمعى وجود مستقل عن الأفراد ذلك أن الجماعة تمارس أنماطاً من التفكير والشعور والسلوك مختلفة تماماً عن الأفراد الذين يكونونها، وهذا هو الذى يجعل من الضرورى أن يبدأ تحليل سلوك الجماعة بدراسة ظواهر جمعية لا بدراسة الأفراد.(٣٤)

وهكذا يوضح (دور كايم) أن مهمة علم الاجتماع هو أن يدرس ويصف الظواهر الاجتماعية على أنها متميزة تماماً فى نوعها عن الظواهر المادية فى العالم الخارجى، وعن الظواهر السيكلوجية التى يعالجها علم النفس.(٣٥)

وقد حاول (دور كايم) أن يدرس بدقة، وبقدر كبير من الفطنة الاحصائية فى وقته معدلات الانتحار فى قطاعات مختلفة من سكان أوربا.. وقد خلص من دراسته هذه الى نتيجة مؤداها أن اختلاف معدلات الانتحار - التى تتميز عن الحالات الفردية التى يبحثها علم النفس - يرجع فى المحل الأول الى تباين البناء الاجتماعى وبخاصة الفروق فى درجة التضامن الاجتماعى ونمطه.(٣٦)

لقد تبين لنا مما سبق أن الواجبات الاجتماعية (كالإنفاق على الأبناء وتربيتهم ورعاية الآباء.. الخ) واجبات يحددها الدين أو العرف أو القانون، هذه الواجبات ظواهر اجتماعية، لأنها وقائع موضوعية ذات وجود خارج عن شعور الأفراد، فليست هذه الظواهر من صنع الفرد بل يتلقاها من المجتمع الذى نشأ فيه، ولايمكن أن يقال إنها وليدة تفكير ذاتى بل يفرضها عليه المجتمع فرضاً، وإن كان الفرد فى كثير من الأحيان لا يشعر بهذا الإلزام، لأنه يستجيب له بحكم العادة.

واذا كانت هذه الظواهر موضوعية أى ذات وجود خارج عن شعور الأفراد فدراستها دراسة علمية يمكن أن تتحقق تحققاً كاملاً مثلما يتحقق لعالم الطبيعة أن يدرس الظواهر الطبيعية دراسة علمية.

لقد كان (سوسير) يريد أن يجعل من دراسة اللغة عملاً علمياً، وقد رأى ضالته فى تلك القواعد التى أعلنها (دور كايم) وحدد بها موضوع علم الاجتماع، وحدد بها القواعد التى ينبغى اتباعها فى دراسة الظواهر الاجتماعية.

فاللغة عند (سوسير) ظاهرة اجتماعية يمكن النظر إليها على أنها شىء منفصل عن صور استخدام الأفراد لها، ونحن نكتسب اللغة من أفراد المجتمع المحيطين بنا، وهم يلقنوننا إياها، ونحن نتعلمها منهم ، وليست - بهذا الاعتبار - من إنتاجنا.

واللغة ظاهرة عامة في مجتمع معين، وهذا المجتمع يفرضها على أعضائه فرضاً، فليس لديهم اختيار فى اكتسابها، ولا يملكون بديلاً عنها، والمجتمع يفرضها فى مجالات مختلفة، حين يكتسبها الطفل فى البيت أو حين يتعلمها فى المدرسة، وإن كان لا يتنبه إلى أنها مفروضة عليه من المجتمع الذى ينتسب إليه.

واللغة ظاهرة اجتماعية يمكن أن تدرس دراسة علمية، ويتحقق هذا عندما ندرسها مستقلة عن مظاهرها أو تحققاتها الفردية، وهذا ما فعله (سوسير) بتفرقته الشهيرة بين اللغة والكلام.

ثانياً: سيجمند فرويد:

أما (فرويد) فقد خرج على الناس بنظريته الشهيرة فى التحليل النفسى، لقد كان ينسب السلوك إلى عوامل مكبوتة موجودة فى اللاشعور. وقد أوجد طريقة للتعرف على هذه العوامل المكبوتة اللاشعورية هى طريقة التداعى الحر، وقد تشدد (فرويد) فى أهمية الغريزة الجنسية الطفولية المكبوتة. وهو صاحب المصطلح الشهير (عقدة أوديب) وهو يدل على تعلق الصبى بأمه تعلقاً جنسياً، وهو التعلق الذى يكبته الطفل ويخفيه بطرائق عدة، ويكون مصحوباً فى رأى (فرويد) بالغيرة من الأب الذى ينال من الأم مالا يناله الطفل .

وقد عرض فى كتابه (Totem and Taboo) (الطوطم والمحرم) أحداثاً تاريخية مفترضة فى الأزمان البدائية لكى يفسر أحداثاً أخرى، كالمحرمات مثل غشيان المحارم وغيرها. لقد افترض أن الناس عاشت فى تلك الأزمان فى عشائر صغيرة كل منها يحكمها ذكر قوى، هو سيد العشيرة وأبوها، لا حدود لقوته وبطشه، وكانت كل أناث العشيرة ملكه، واذا ما أثار الأبناء غيرته أو حاولوا مشاركته فيهن قتلهم أو خصاهم أو طردهم من العشيرة . بيد أنه حين تتقدم به السن قد ينجح أحد الأبناء فى أن يمثل دوره فى العشيرة الأصلية مستعيناً بأخوته الآخرين المطرودين فيحل محله بعد موته، وحين يموت يقتسمون جسده (لم يكن أكل لحوم البشر غريباً آنذاك) وبالتهامه يستحدون قوته ويقومون بدوره. وقد أدرك هؤلاء الأبناء أن صراعهم على خلافة أبيهم لن يجدى ومن ثم تفاهموا على وحدة تجمعهم. وهنا ظهر نوع من العقد الاجتماعى وهو شكل من النظام الاجتماعى للأعراف والتقاليد، وكان ذلك بداية للقانون والأخلاق والدين. وذلك أن الإحساس بالذنب وبالندم هو الذى خلق المحرمات. ويستخدم (فرويد) هذا الفرض فى تفسير كثير من طقوس الديانة اليهودية والمسيحية التى يعدها تطوراً للطقوس البدائية للاحتفال بالطوطم (حيوان أو نبات أو أى شىء آخر تبجله جماعة معينه وتعده رمزاً وحامياً لها) الذى يعده بديلاً عن الأب ورمزاً له، بل ويستخدم كذلك فى تفسير بعض العقد النفسية التى يرجعها إلى الغيرة من الأب أو الخوف من سطوته.(٣٧)

وتتبين مما سبق أن محاولة (فرويد) كانت قائمة على أساس أن الماضى يبعث إلى الحياة ويعود بعد فترة نسيان طويلة.

وقد ظهر مفهوم اللاوعى فى علم اللغة فى أوضح وأوثق أشكاله ، إنه يُقْدِرنا على تفسير ظاهرة لا مجال للجدل حولها هى أننى مثلاً أعرف لغةً (بمعنى أننى قادر على انتاج وفهم منطوقات جديدة، وقادر على الحكم بأن منطوقاً ماهو فى الواقع جملة من لغتى أو ليس منها) ومع ذلك فأنا لا أعرف ما أعرف. أى أننى أعرف لغتى مثلاً بيد أننى محتاج إلى لغوى لكى يفسر لى بدقة ما اللغة التى أعرفها أو بعبارة أخرى فإننى أعرف كيف استخدم لغتى وأميز ماهو منها ومالبس منها ولكننى لا أعرف ما يمكن أن يعرفه اللغوى حين يضع قواعد هذه اللغة

ويحدد خصائصها. إن مفهوم اللاوعى يربط بين هاتين الظاهرتين ويفتح الباب للعلماء كى يفسروهما تفسيراً واضحاً. إن علم اللغة، مثل علم النفس، سوف يفسر ما أقوم به بتقديم معرفة واضحة مفصلة عن عمليات ما أعدتها بنفسى إلى الوعى.

ولنوضح ذلك بمثال. إن المتكلم العربى يعرف أن السين غير الصاد لأن (سار) عنده غير (صار)، فالتقابل بين السين والصاد هو الذى فرق، عند المتحدث العربى - بين الكلمتين وهذا الفرق جزء من نظام كامل يعرف بالنظام الفونولوجى للعربية. إن المتكلم العربى لايعى النظام الفونولوجى أو النحوى للغة العربية وإن كنا نفسر - نحن اللغويين - قواعده وأحكامه وفقاً لاستخدامه له. وأشبه شىء بذلك قصة النحوى الذى سأل أعرابياً فصيحاً. أتجر فلسطين؟ فأجابه قائلاً : إنى إذا لقوى . فالأعرابى يجر فلسطين حقاً فى كلامه، ولكنه لا يعرف الجر الذى يتحدث عنه النحوى، بل وليس من الضرورى أن يعرف ذلك.

وثمة ملاحظة ضرورية نختم بها هذا الجزء من البحث. إن حديثنا عن المفاهيم التى قد تبدو مشتركة بين هؤلاء المفكرين الثلاثة (دور كايم) و (فرويد) و (سوسير) لا يعنى أبداً أننا نجزم بالتأثير، فليس لدينا كما يقول (كيولر) دليل على أن أيا منهما قد عرف شيئاً عن أعمال الآخر، ومع أننا قد افترضنا تأثير (دور كايم) بخاصة على (سوسير) فثمة أمر يبدو أكثر أهمية من ذلك أى من تلك الاستعارات المفترضة هو تلك الصلات الوثيقة بين المخططات أو المشروعات التى اختطها هؤلاء المفكرون الثلاثة لاسيما تلك الأشكال المعرفية للعلوم التى اكتشفوها: علم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة.(٣٨)

...

هوامش القسم الثانى

(١) Culler, Saussure. P 53

(٢) انظر: قنيبى ص 8 - 9 وعزيز ص ١٩ وغازى ص ١١ Saussure, Course. P.P 1-2

(٣) انظر: قنيبى ص 23 وعزيز ص ١٩، ٢٠ وغازى ص ١٢ Saussure, Course. P.P 2-3

(٤) مونين (جورج) تاريخ علم اللغة ترجمة د بدر الدين قاسم ص ١٣١، ١٣٧

(٥) انظر: قنيبى ص 106 وعزيز ص ١٠١ وغازى ص ١٠٤ Saussure, Course. P 82

(٦) Culler, Saussure. P.P 57-60

(٧) انظر: قنيبى ص 9 - 10 وعزيز ص ٢٠ وغازى ص ١٢ Saussure, Course. P.P 2-3

(٨) Culler, Saussure. P.P 60-61

(٩) Culler, Saussure. P 62

عبد العزيز (محمد حسن) : مدخل الى علم اللغة ص ٢٨١، ٢٨٣

(١٠) انظر: قنيبى ص 11 - 12 وعزيز ص٢١، ٢٢ وغازى ص ١١ Saussure, Course. P.P 3-4

(١١) انظر: قنيبى ص 109 - 110 وعزيز ص ١٠٣، ١٠٤ وغازى ص ١٠٥، ١٠٧ Saussure, Course. P 85

Culler, Saussure. P 62

(١٢) Culler, Saussure. P 64

(١٣) Robins, Ashort history of Linguistics. P 146

(١٤) انظر: قنيبى ص 120 - 121 وعزيز ص ١١٢ وغازى ص ١١٧ Saussure, Course. P 94

Culler, Saussure. P.P 65-66

(١٥) مونين (جورج) تاريخ علم اللغة ص ١٨٣، ١٨٧

(١٦) Culler, Saussure. P 66

(١٧) انظر: قنيبى ص 13 وعزيز ص ٢٣ وغازى ص ١٥، ١٦ Saussure, Course. P 5

(١٨) مونين (جورج) تاريخ علم اللغة ص ١١٦، ١١٧

(١٩) Culler, Saussure. P.P 67-68

(٢٠) Culler, Saussure. P 68

(٢١) Culler, Saussure. P 67

(٢٢) انظر: قنيبى ص 98 وعزيز ص ٩٤ وغازى ص ٩٨ Saussure, Course. P 76

(٢٣) Culler, Saussure. P 70

(٢٤) Culler, Saussure.P 70

(٢٥) Culler, Saussure. P.P 70-71

(٢٦) Culler, Saussure. P 71

(٢٧) تيماشيف (نيقولا) نظرية علم الاجتماع .. ترجمة د.محمد عودة وآخرين ص ١٦٣ . ١٦٤

(٢٨) تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ص ١٦٩ . ١٧٠

(٢٩) تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ص ١٧٠

(٣٠) دوركايم (إميل) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ترجمة د.محمود قاسم ص ٢٣ . ٢٤

(٣١) دوركايم : (إميل) قواعد المنهج .. ص ٥١ . ٥٤

(٣٢) دوركايم : (إميل) قواعد المنهج .. ص ٦٢

(٣٣) دوركايم : (إميل) قواعد المنهج .. ص ٥٨ . ٥٩

(٣٤) دوركايم : (إميل) قواعد المنهج .. ص ٦٧ . ٦٨

(٣٥) تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ص ١٧٤

وانظر في علاقة مفهوم سوسير للغة بمفهوم العقل الجمعى فى علم الاجتماع : بيسبرسن (اوتو) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٢

(٣٦) تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ص ١٧٥

(٣٧) صدر كتابه هذا عام ١٩١٢، وقد لخصه فى فصلين وقعا فى آخر كتبه (موسى والتوحيد) وعلى هذا الكتاب الأخير اعتمدنا وقد ترجمه د.عبد المنعم الحفنى ص ١٦٤

(٣٨) Culler, Saussure. P 71

وانظر فى تأثير (دوركايم) على (سوسير)

Dinneen, An Introduction to general Linguistics. P.P 192-195

القسم الثالث

سوسير مؤسس علم اللغة الحديث

أولاً ـ مكانة سوسير فى الفكر الأنسانى ..

ثانياً ـ مكانة سوسير فى الفكر اللغوى ..

ثالثاً ـ المفاهيم الأساسية عند سوسير

وتطورها فى علم اللغة الحديث ..

أولاً - مكانة سوسير فى الفكر الإنسانى

كتب الفيلسوف (إرنست كاسيرر Ernist Casirer) : فى التاريخ الكامل للعلم ربما لانجد فصلاً أكثر اثارة من نشأة العلم الجديد : علم اللغة ، وربما قورن من حيث أهميته بالعلم الجديد علم (جاليليو) الذى غير - فى القرن السابع عشر - المفهوم الكلى للعالم المادى".(١) وقد جعل (كاسيرر) الفصل الثانى والثالث من كتابه لبيان دور (سوسير) فى نهضة علم اللغة الحديث ، وبين فيهما لماذا يعد دوره هذا حدثاً رائعاً فى تاريخ العقلية الحديثة .

ولكن كيف يمكن البرهان على دور (سوسير) فى ريادة الفكر الحديث بالقياس إلى دور (جاليليو) فى عصره ؟

إن الجوانب الحاسمة والثورية لعلم اللغة الحديث - فيما يرى (كاسيرر) هى تأكيد (سوسير) على أولية دراسة العلاقات وأنظمتها على دراسة المادة ، وهذا المسلك الذى انتهجه (سوسير) يعبر بوضوح عن منهجية شكلية استطاعت بها مجموعة من العلوم من الفيزياء إلى

الرسم أن تغير أسلوبها فى أخريات القرن التاسع عشر إلى مطالع القرن العشرين لكى تصبح علوماً حديثاً. إن الأمر لايعدو أن يكون ـ ببساطة شديدة ـ تحولاً من الاهتمام أو التركيز على الأشياء إلى الاهتمام أو التركيز على العلاقات. إن العلاقات هى التى تخلق الأشياء وتُعَرِّفُها، ولاشىء غير ذلك.

وقد فسر (هوايتهد Whitchead) هذه المقولة بقوله : لقد استقر مفهوم خاطىء فى التراث الفلسفى خلال قرون هو مفهوم الوجود المستقل، والحق أنه ليس ثمة وجود كهذا البتة، كل موجود يفهم فى ضوء الطريقة التى يَنْجَدِل بها مع بقية الكون ". إن الإلكترون فى الفيزياء ليس كائناً إيجابياً بالمعنى القديم، إنه نتاج لطاقة، إنه وُصْلَه (نقطة اتصال) فى نظام من علاقات، إنه كالفونيم فى علم اللغة لايوجد مستقلاً عن علاقاته بالفونيمات الأخرى فى اللغة. وقد بين (سوسير) بوضوح هذا المنهج من التحليل حين قرر أن اللغة نظام من وحدات تتعرف كل وحدة منها بموقعها وعلاقاتها بالوحدات الأخرى فى السياق الأفقى أو الرأسى .

ولعل ماسبق أيضاً يذكرنا بما قاله الرسام (چورچ براكو Georges Praque) "أنا لاأعتقد فى الأشياء، أنا أعتقد فى العلاقات" وهذا ـ كما يقول (كيولر) هو معتقد المحدثين الصحيح. فما التكعيبية Cubism إذاً إن لم تكن التأكيد على أولية العلاقات ؟

وفى الأدب الحديث ربما يلاحظ المرء أن الشعر والقصة قد أصبحا أقل محاكاة ، وأقل اختصاصاً بتمثيل المدركات والمضامين ، وأكثر اهتماماً بإثار المجاورة Juxtoposition حيث تصبح قيم العلاقات التى تنعقد بين الكلمات أو بين أنماط الخطاب الأدبى المتعددة هى المكون الأولى للعمل الفنى .

وهكذا نتبين ـ فى علوم أو فى مجالات مختلفة ـ أن الاهتمام يتحول فيها من التركيز على الأشياء إلى التركيز على العلاقات ، وهذا هو أساس ادعاء (كاسيرر) الجرىء بأن نظرتنا فى القرن العشرين إلى العالم هى أنه ليس بالضرورة مجموعة من عوالم أو كائنات مستقلة ، أو مجموعة من أشياء منعزلة ، إنه مجموعة من أنظمة تحكمها علاقات .

واذا ما كان لسوسير مكانة تعدل مكانة (جاليليو) حقاً فإن هذا يعتمد فى المحل الأول على العلم أو نمط التفكير الذى كان (سوسير) عاملاً بارزاً فى إيجاده وهو علم العلامات. إنه العلم الذى يؤدى بنا أن نرى الحياة الاجتماعية والثقافة بعامة على أنها سلسلة من أنظمة: من علامات. وقد قدم (سوسير) المثال الواضح لمثل هذا التحليل المتوقع إنه التحليل اللغوى. ومن السابق لأوانه بالطبع أن نحدد الأهمية الحقيقية لسوسير فى النظرية الفكرية للقرن العشرين، لأن العمل فى حقل العلامات قد بدأ حديثاً فحسب، وليس واضحاً حتى الآن إن كان علم العلامات سيكون حركة عقلية مسيطرة فى عصرنا أم لا. واذا ما أصبح كذلك فسيكون راجعاً إلى علماء آخرين إلى جانب (سوسير) لكن نظرته الى علم العلامات الذى يشمل علم اللغة ينبغى أن نأخذها على أنها مثال قاد الآخرين إلى أن يتوجهوا باهتمامهم إلى إدراك العلامات. فالانسان هو المخلوق الوحيد الذى يعيش بين علامات، وعليه ألا ينعم النظر فى معانيها فحسب بل يتفهم الأعراف والقواعد الكامنة وراء هذه المعانى . إنه (سوسير) الذى يدعم الادعاء الذى - ربما يناصره كثير من الناس اليوم بأن دراسة الانسان هى بالضرورة دراسة للأنظمة المتعددة التى بها ينسق ثقافته ويعطى للعالم معنى.(٢)

ثانياً ـ مكانة سوسير فى الفكر اللغوى

ومكانة (سوسير) بين اللغويين لا تقل شأناً عن مكانته بين المفكرين، ودوره فى علم اللغة الحديث يعدل دوره فى الفكر الانسانى . وفى هذا يقول (ميلكا ايفتش Milka Ivic)

"كان (سوسير) واحداً من أعظم اللغويين فى كل العصور، شخصيته العظيمة وموهبته الأصيلة، ونزعته الفريدة فى البحث العلمى، وتأثيره الذى باشره على تلامذته لم يجعله مؤسس مدرسة هامة هى مدرسة جنيف فحسب، بل جعله رجل عصر كامل فى الدراسة اللغوية، وكانت أفكاره التى أعلنها أولاً وأيدها باقتناع الجنور التى منها انبثق علم اللغة البنيوى الحديث".

"وكان (سوسير) أول من ألهم معاصريه بأفكار جديدة فى علم اللغة، وحتى أولئك الذين لم يقعوا تحت تأثيره المباشر بدأوا من نفس الأسس النظرية التى بدأ بها، ومن ثم فانه يعد الآن مؤسس علم اللغة البنيوى . إن مقولاته الأساسية فى علم اللغة تعد اليوم أبجدية علم اللغة البنيوى الحديث". (٣)

ويقول (كريستال) : من المتفق عليه بشكل عام أن أعمال (سوسير) تستحق مكانة مرموقة كأول محاولة لوضع نظرية لغوية ـ كما نفهمها اليوم . وربما يعد اطلاقنا عليه اسم مؤسس علم اللغة ـ كما يقال أحياناً ـ مبالغة إذا ماقيست أعماله بأعمال اللغويين الأمريكيين المعاصرين له... ولكن لاشك فى أن فكر (سوسير) الرائد فى المسائل النظرية كان له تأثيره الجوهرى المستمر على الدراسة اللغوية. وقد كان تأثيره غلاباً ومتجدداً على ثلاثة مدارس لغوية على الأقل (هى براغ وجنيف وكوبنهاجن) .(٤)

ويؤكد مؤرخ آخر من مؤرخى علم اللغة مالمح إليه (كريستال) من مكانة (سوسير) فى أمريكا بالقياس إلى مكانته فى أوربا بقوله : ربما يقرر المرء أن تأثير (سوسير) كان أقوى فى أوربا منه فى أمريكا، ولعل هذا يفسر لماذا يختلف علم اللغة الأمريكى عن علم اللغة الأوربى.(٥)

ومن ثم فليس غريباً أن يكتب عنه مؤرخ أمريكى معاصر هو بولينجر Bolinger صفحة وجزءاً من صفحة من فصل كامل يكاد يقتصر أغلبه على اللغويين الأمريكيين .(٦)

ويتفق المؤرخون على أن علم اللغة الوصفى أو البنيوى قد بدأ يتطور فى أوربا وأمريكا فى وقت واحد، ولكن دون أن يحدث اتصال متبادل بينهما، والفرق الرئيسى بينهما يكمن - منذ البداية - فى أن البنيوية الأوربية قامت أساساً على أفكار (سوسير) على حين لم يكن (سوسير) معروفاً علمياً فى أمريكا .(٧)

ويعنينا هنا الاشارة الى أن علم اللغة الوصفى أو البنيوى الذى ظهر فى أوربا وأمريكا كان مختلفاً فى اتجاهاته وأساليبه ، لأنه كان مختلفاً فى مصادره .

يقول (كريستال) : إن علم اللغة أخذ شكله الحاضر فى بداية هذا القرن ، ويبدو أنه قد تطور تطوراً مستقلاً فى الغالب فى أوربا وأمريكا فى وقت واحد ، ولكن المسلك كان مختلفاً اختلافاً جذرياً ، فكل منهما كان - إلى حد كبير - أثراً من آثار تاريخه الخاص ، واتسم كل منهما بنوع المادة اللغوية التى كانت متوفرة له مباشرة . لقد كان لدى الأوربيين تراث مستمر من الفكر الفلسفى فى اللغة يرجع إلى عهود قديمة، وتمثل تراثهم المباشر فى الدراسة التاريخية للغة التى انحدرت إليهم من (فقه اللغة المقارن Comparative Philology) فى القرن التاسع عشر وكان أغلب المادة المتوفرة آنذاك خاصة بتطور الألسنة الأوربية القديمة، وإلى حد أقل بتطور الألسنة الحديثة، ولأنهم كانوا معتمدين تماماً على النصوص المكتوبة فان دراستهم للغة كانت تنشأ فى العادة من نظرة قائمة على تفسير النص، من ذلك مثلاً دراساتهم الانجيلية وبحوثهم فى النقد الأدبى والتاريخ. أما دراسة اللغات الحية فقد عدوها ثانوية، وكانت مقتصرة على لغويين قلائل حاولوا أن يحددوا الفروق بين اللهجات المحلية وأن يضعوا أطالس للهجات. وثمة دراسات (ظهرت أحياناً) للغات جديدة قام بها المبشرون والعاملون فى المستعمرات فى مواطن مختلفة من العالم ، ولكنها كانت فى أغلب الأحوال تعليمية ، وقائمة على أساس تحليلى لقواعد اللاتينية .

لقد كان التراث الذى نشأ عليه الأوربيون وتفاعلوا معه ـ كما ألمحنا سالفاً ـ مختلفاً تماماً عن التراث الذى كان متيسراً للغويين الأمريكيين الذين كان لديهم اتصال يعد قليلاً نسبياً بالموقف الأوربى. ومن ثم بدأ البحث اللغوى متوجهاً إلى المصادر التى كانت متوفرة ومتيسرة تماماً. وهى اللغات الهندية الأمريكية وتراثها الذى يختلف تماماً عن تراث اللغات الأوربية. ولم يكن لديهم تراث مكتوب فى هذه اللغات ولم يجدوا بحوثاً سابقة تصفها ـ وفى هذه الظروف كان من المستبعد تطوير البحث اللغوى التاريخى الخالص، أو استخدام الكتابة باعتبارها أساساً للتحليل اللغوى. وكانت هذه اللغات مختلفة جداً عن اللغات الأوربية بحيث كان من الواضح أن مناهج البحث القديمة بمصطلحاتها وأقسامها سيكون لها قيمة قليلة فى تحليلها، وعلى أية حال فإن كثيراً من اللغويين طوروا اتجاهاً قوياً للتقليل من شأن التحليلات القائمة على أساس اللاتينية. وكان ثمة رد فعل ضد استخدام المعنى أساساً لأى تحليل لغوى، على حين كان للاعتبارات الدلالية والمنطقية ..الخ دور كبير فى تعريف الأنماط النحوية فى التراث الفلسفى الأوربى. لقد كان العمل الأساسى للغوى الأمريكى أن يصف الأشكال الموجودة فى اللغة بالفعل، أما أن يقول شيئاً عما تعنيه فهذا يجىء منطقياً فيما بعد. فالاهتمام إذاً كان بالأوصاف البالغة الدقة لكل بنية لغوية فى ذاتها معتمدين ـ فحسب ـ على المصدر المتوفر : أى على الكلام الحى لأصحاب اللغة المدروسة .

وهذا الدور الحيوى للغة كان راجعاً ـ أساساً ـ إلى علماء الأنثروبولوجيا الأوائل فى هذه الأيام الذين سلكوا هذا المسلك منذ البداية باعتباره جزءاً من منهجهم فى جمع المعلومات المتراكمة عن قبائل الهنود البائدة. لقد أكد (فرانز بوز Framz Boas) على ضرورة أن ينزل اللغوى إلى الحقل بنفسه ليحصل على وصف دقيق ومفصل للسلوك الإنسانى المدروس قبل أن يدركه الزمن ويموت كل الرواة . وقد نشر كتابه الموجز :

Handbook of American Indian Languages

عام ١٩١١م، وبعد عشر سنوات من نشره ألف أنثروبولوجى آخر كان له أثر بالغ فيما بعد ـ هو (سابير Sapir) كتاباً بعنوان Language وقد كان لهذين الكتابين ولأتباع مؤلفيهما تأثير متجدد فى تطور علم اللغة فى أمريكا .(٨)

ومع اعتراف (سامبسون Sampson) بأن تأثير (سوسير) فى أمريكا كان أضعف منه فى أوربا - يقرر أن معظم اللغويين الأمريكيين منذ عشرات من السنين قد قرأوا أعمال (سوسير) وتعاطفوا مع أغلب نظراته، وهى نظرات لم تعد تثير جدلاً اليوم، ويكشف لنا عن فرق كبير بين المنهجين بقوله: يختلف علم اللغة الأمريكى عن علم اللغة الأوربى من حيث إن الأمريكيين أكثر اهتماماً بالعلاقات الأفقية Syntagmatic (أى بالطرق التى بها تتوحد عناصر لغوية معينة لتؤلف عناصر أو أبنية أكبر منها) بينما يهتم الأوربيون أكثر بالعلاقات الرأسية Para-digmatic (أى العلاقات بين عناصر يمكن أن يحل بعضها محل بعض فى نفس الموضع أو الموقع فى بنية لغوية). وسيكون لهذا الفرق أهمية كبيرة عند نقاد (سوسير).[٩] وانظر (ص ٣٤)

تبين لنا أن آثار (سوسير) لم تتمكن فحسب فى علم اللغة بل تجاوزته الى العلوم الأخرى، ومن ثم عده مؤرخو العلوم مفكراً أسهم بدور فى العلوم الانسانية يعدل الدور الذى أسهم به (جاليليو) أو غيره من رواد العلوم. وقد تمثل اسهامه فى علم اللغة - وهو مايعنينا هنا فى المقام الأول - فى شكلين أساسيين: فى تقديم تصور عام لمفهوم علم اللغة، وفى تقديم مفاهيم علمية ضرورية فى البحث العلمى.

لقد كان (سوسير) حريصاً أشد الحرص على أن يكون موضوع علم اللغة محصوراً بحدود واضحة تُقْدِرُنا على أن نعرف ماهو منه وماليس منه، ومن ثم فقد قرر غير مرة إنه اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها. والحق أن فهمه لموضوع علم اللغة يعد اليوم من المسلمات، ينبغى على اللغوى - فيما يرى سوسير- أن يقوم بتحليل اللغة المدروسة على أنها نظام من وحدات وعلاقات ومن ثم فان موضوع علم اللغة هو تعريف وحدات اللغة وتحديد العلاقات بينها وبيان قواعد التركيب فيها. ولم يكن هذا الفهم الواعى الدقيق لمهام علم اللغة متوفراً لدى أسلافه من اللغويين، وهو اليوم - بصورة عامة - المفهوم السائد فى البحث اللغوى الحديث، وبهذا الفهم يعد (سوسير) أباً لعلم اللغة الحديث. ويؤكد مؤرخو علم اللغة تأثيره فى المدارس الرئيسية فى علم اللغة الحديث - وإن تفاوت التأثير من مدرسة إلى أخرى .

أ ـ مدرسة جنيف :

تستخدم عبارة مدرسة جنيف للإشارة إلى مدرسة علم اللغة التى انبثقت مباشرة من تعاليم (سوسير) ولكنها اكتسبت شكلها النهائى من أعمال تلامذته لاسيما (تشارلز بالى) ١٨٦٥ـ ١٩٤٧ الذى كان أستاذاً لعلم اللغة العام فى جنيف و(ألبرت سيشهاى) ١٨٧٠ ـ ١٩٤٦. وهو معروف جيداً بدراساته فى علم اللغة العام، واهتمامه الرئيسى توجه إلى دراسة العلاقة بين العوامل النفسية واللغوية فى مجال الظواهر النحوية. وأبرز أتباعها اليوم (هنرى فرى) وأعماله تتصل بقضية العلاقات اللغوية.

وتتميز هذه المدرسة بميلها الشديد إلى البحث فى العناصر الانفعالية فى اللغة، مع الولاء الثابت لعلم اللغة الوصفى. واللغة ـ عندها ـ تبين عن ذاتها فى كل مُنَظَّم (نظام) له وظيفة اجتماعية ضرورية. وقد حققت هذه المدرسة نتائج جيدة فى دراسة العناصر الانفعالية (الأسلوبية) فى اللغة، ومع ذلك ففى أثناء العقود الثلاثة الأخيرة لم يجار تطوُّرها الاتجاهَ السائد للأحداث فى مجال المناهج اللغوية. ومن ثم يقرر (ميلكا ايفتش) أن اسهاماتها فى الاتجاهات الحاضرة فى علم اللغة له أهمية هامشية .(١٠)

ب ـ مدرسة براغ :

تأسست فى عام ١٩٢٦ جمعية لغوية فى (براغ) باسم حلقة (براغ) اللغوية أسسها جيل من العلماء مملوء حماسة لما عد آنذاك أعظم الاتجاهات حداثة فى علم اللغة:أى أفكار (سوسير) و(بودوان دى كورتينى) والمدرسة السلافية. وأصول هذه المدرسة ثلاثة من المهاجرين الروس هم (ر . جاكبسون) و(س . ماتياس) و(ن . تروبيسكوى) .

وقد نشطت هذه الجمعية نشاطاً ملحوظاً فى (براغ) قرابة عشر سنوات (حتى احتلال الألمان لتشيكوسلوفاكيا) وبموت (تروبيسكوى) و(ماتياس) وبهجرة (جاكبسون) إلى أمريكا فقدت الجمعية دورها القيادى البارز فى علم اللغة، بيد أن أفكارها ازدهرت فى بيئة مختلفة تماماً فى

جامعة (هارفارد) فى الولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك استمر اسمها شائعاً ليشير إلى المبادىء اللغوية التى أعلنتها الجمعية فى برنامجها الذى نشر فى العدد الأول من مجلتها عام ١٩٢٩.(١١)

وتعرف مدرسة (براغ) بمدرسة علم اللغة الوظيفى (لأن اهتمامها الأساسى تمثل فى النظر إلى الطريقة التى تعمل بها الوحدة الصوتية كعلامة للاتصال) ويطلق هذا المصطلح هذه الأيام على المدرسة الفونولوچية.(وكان أتباع هذه المدرسة معنيين أساساً بالقضايا الفونولوچية)

وقد لعبت هذه المدرسة دوراً فريداً وهاماً فى تطور علم اللغة، وأفكارها ومناهجها تمثل - بعامة - علم اللغة البنيوى تمثيلاً واضحاً. ولم يكن أتباع هذه المدرسة متطرفين فى نظراتهم اللغوية، لقد اهتموا بدراسة الظواهر اللغوية الملموسة، فلم ينظروا إلى اللغة على أنها غير مادية (كما فعل هيلمسلف وأتباعه) ولم يعتمدوا فى الوصف على النواحى الشكلية الخالصة دون الاشارة إلى المعنى (كما فعل أتباع بلومفيلد).(١٢)

جـ : مدرسة كوبنهاجن :

يشير هذا الاسم الى أعمال اللغويين الدانيمركيين ولاسيما (بروندال)، (هيلمسلف) ولهذه المدرسة أصول تمتد إلى حلقة (كوبنهاجن) اللغوية التى تأسست عام ١٩٣٤م .

وكان اهتمام (بروندال) العلمى الرئيسى مركزاً على ملاحظة الطرق التى تظهر عليها الأنماط الرئيسية للمنطق من خلال الوقائع اللغوية . والمشكلات اللغوية - عنده - هى بالضرورة مشكلات فلسفية ، وينبغى حلها وفقاً لهذا الغرض .

وتعرف هذه المدرسة أيضاً بمدرسة اللغويين الرياضيين Glossmaticians أو مدرسة السوسيريين الجدد، لأن اتجاهها الواضح إلى التجريد كان متناسقاً مع تفسير (سوسير) للعلامة اللغوية. وهذه المدرسة مدينة بالتأكيد لسوسير كما أنها مدينة أيضاً للمنطق الرمزى. وهى

اليوم مهتمة اهتماماً عظيماً ببناء نظرية عامة عن العلامة اللغوية أكثر من اهتمامها بدراسة المشكلات اللغوية الواقعية .

وقد حل عهد البنيوية في أمريكا في جامعة (ييل). وقد أسس (بلومفيلد) أول مدرسة تميزت بما يعرف في التحليل اللغوى بالمنهج التوزيعي. وقد وجد الأمريكيون نقاط اتصال كثيرة بين مدرستهم وأتباع المدرسة الرياضية Glossmatician .

والمدرستان كلتاهما لاتتقاسمان الاهتمام المحورى بمفهوم (السمات المميزة) للوحدات اللغوية عند مدرسة (براغ) ولكنهما تركزان البحث على توزيع هذه الوحدات (أى على القواعد التى تنتظم احتمالات وقوع هذه الوحدات فى سلسلة الكلام. فعند الأمريكيين أنه بعد بيان كل قواعد توزيع الوحدات اللغوية فى سلسلة الكلام يمكننا - عندئذ فحسب - أن نجمع أكثر المعلومات موضوعية ودقة عن وظائفها فى إطار النظام. أما اللغويون الرياضيون فإنهم لايهتمون بالجوانب المادية فى اللغة ، ويعنون - فحسب - بتحديد كل أنماط العلاقات الموجودة بين العناصر المنسوقة فى نظام الاتصال، ومن ثم فكلتا المدرستين تمثلان منهجاً شكلياً Formalistic مختلفاً. وهما تقومات بالتحليل اللغوى دون أن تضعا فى اعتبارهما الجانب الدلالى. ومع ذلك فالمدرستان تختلفان اختلافاً أساسياً فى فكرة رئيسية واحدة، فالمدرسة التوزيعية تعنى بمادة لغوية موجودة فعلاً بينما المدرسة الرياضية تهمل الجانب المادى (الصوتى) للغة .

وقد كان وصول (رومان جاكبسون) رائد حلقة (براغ) إلى الولايات المتحدة فى أثناء الحرب العالمية الثانية حدثاً من أهم الأحداث فى تاريخ البنيوية اللغوية. وسرعان ما أصبحت جامعة (هارفارد) من أعظم المراكز البارزة لمدرسة (براغ) وقد تلقى الجيل الجديد من اللغويين تدريباتهم فيها. ولم يهمل (جاكبسون) وأتباعه استخدام المعايير التوزيعية فى التحليل على الرغم من اعتماده اعتماداً ثابتاً على نظرية السمات المميزة . أما أتباع (بلومفيلد) فقد قرروا أن المنهج التوزيعى وحده هو ماينبغى استخدامه. وقد حاولوا أن يحلوا المشكلات الفونولوجية بشمول فى ضوء نظرية التوزيع . وفيما يتصل بالفونولوجى فقد برزت مدرسة (براغ) منتصرة،

والدراسات الفونولوچية اليوم غالباً ماتعتمد على دراسة السمات المميزة . وفى الجانب الآخر فان منهج (بلومفيلد) التوزيعى فى البحث الفونولوچى والنحوى قد ثبت جدواه لاسيما فى مجال الترجمة الآلية .(١٣)

ويتحدث المؤرخون عن تأثير (سوسير) فى مدرسة النحو التحويلى لاسيما تفرقته الشهيرة بين اللغة والكلام، وإن كانوا محترسين فى إثباته. وفى ذلك يقول (كريستال): لقد ظهرت تفرقة (سوسير) مع فرق ضئيل للغاية فى النحو التوليدى فى التفرقة بين الملكة Compe-tence والفعل Performance .(١٤)

ويقول (سامبسون) : وفى العقد الأخير أو حوله أصبح منهج (سوسير) مقولة حية بين اللغويين (الأمريكيين) بفضل النظرة المعارضة له التى قدمها (ن. تشومسكى). ومن أوسع سمات منهجه تأثيراً تفرقته بين الملكة Competence والفعل Performance وهى تفرقة تذكرنا بتفرقة (سوسير) بين اللغة Le Langue والكلام Le Parole .(١٥)

وقد تحدث (تشومسكى) عن (سوسير) وانتقد تعريفه اللغة بأنها خزانة من علامات من حيث إنه لم يتبين له العمليات التكرارية لصياغة جملة تحتية ، ويبدو أنه يعد صياغة الجملة موضوعاً من شأن الكلام لا من شأن اللغة، أى موضوعاً للخلق الحر المختار، لا موضوعاً للقاعدة المنتظمة (أو ربما عده بطريقة غامضة نقطة فاصلة بين حدود اللغة والكلام). ولا مجال فى مخططه للخلق المحكوم بقواعد من النوع المستخدم فى الاستعمال اليومى العادى للغة.(١٦)

ولكنه مع ذلك يعترف بأن علم اللغة الحديث واقع تحت تأثير (سوسير) البالغ لاسيما تفرقته بين اللغة والكلام، وأن نظرتهم إلى اللغة على أنها أنظمة من عناصر لا أنظمة من قواعد جعلهم يهتمون اهتماماً قليلاً بالجانب التوليدى للغة .

ويبدو لتشومسكى ـ مع اعتراضه على جانب من مفهوم اللغة عن (سوسير) ـ أن أولية دراسة اللغة على الكلام لا مفر منها .(١٧) وسوف نعود إلى هذا الموضوع فى موضع آخر .

ثالثاً ـ المفاهيم الأساسية عند سوسير وتطورها في علم اللغة الحديث

ثمة جانب من فكر (سوسير) اللغوى لا ينازعه فيه أحد، وبه اكتسب مكانته مؤسساً لعلم اللغة الحديث، ذلك فهمه الدقيق لمجال البحث في علم اللغة، وتحديده إياه بدراسة اللغة فى ذاتها ولأجل ذاتها، ونظرته الى اللغة على أنها نظام من وحدات يتعلق بعضها ببعض وفق قواعد محددة. وقد استقر هذا الفهم وهذه النظرة ولا يجادل اللغويون المحدثون فيهما، أو ـ كما يقول كيولر ـ : من يريد أن يعارض نظرة سوسير الى المجال الذى يعمل فيه اللغوى فعليه أن يجادل علم اللغة ذاته لا سوسير ".(١٨) إن كثيراً من التطورات التي حدثت فى علم اللغة الحديث يمكن اعتبارها على حد قول (كيولر) بحوثاً عن طبيعة ومدلول بعض المفاهيم التي تنسب الى (سوسير):التمييز بين اللغة والكلام، التمييز بين النظرة الوصفية والتاريخية، التمييز بين العلاقات الرأسية والأفقية. ومع ذلك وإنصافاً للغويين المعاصرين لسوسير يرى أن تلك المفاهيم لاتنسب تماماً وبكل دقة الى سوسير وحده وإن ساعد على تدعيمها ونشرها.(١٩)

اللغـــة والكـــلام :

كتب اللغوى الانجليزى (جاردنر) عام ١٩٣٣ يقول : فيما يتصل بسوسير فإن له الفضل في توجيه الانتباه الى التفريق بين اللغة والكلام، تفريقاً بعيد الأثر في نتائجه بحيث إنه ـ في رأيي ـ في أغلب الأحوال ـ الأساس اللازب لكل المعالجات العلمية للنحو، بل إن كثيراً من المنازعات اللغوية يمكن تصورها في صورة خلاف حول الطبيعة الدقيقة للتفريق بين ما يدخل في اللغة وما يدخل في الكلام ".(٢٠)

وقد ارتضى (شارل بالى) ثنائية أستاذه (سوسير) القائمة على التفرقة بين اللغة والكلام، وإن كان وضعها وضعاً سليماً ـ كما يقول (جسبرسن) لقد رأى أن (سوسير) قد غالى فى اعتبار اللغة أمراً ذهنياً ناتجاً عن العقل الجمعى بينما يميل هو إلى تغليب الجانب العاطفى،

فمن رأيه (أعنى بالى) أن هناك كفاحاً مستمراً بين الكلام ـ الذى هو أمر فردى ـ واللغة. وإذا صح أن اللغة أداة للتفاهم الجمعى فإن الكلام نشاط لغوى فردى يعالج الحياة الواقعية للفرد، ومن ثم فالكلام وحده هو الذى يعبر عن الواقعية والعاطفية بعكس اللغة التى ليست سوى إمكانات تعبيرية. ويمكن تشبيه الكلمة فى اللغة (أى فى القاموس) بأنها كالعملة فى خزينة البنك، لها قوة التعامل، ولكنها لاتمثل تعاملاً بالفعل. أما الكلمة الواقعية (أى فى الكلام) فهى عملة جارية سيارة لها نشاطها وقيمتها الواقعية، ولما كان للكلام هذه الصفة الواقعية فإنه أكثر عرضة للتغير والتبديل ».(٢١)

ومع أن اللغوى الكبير (جبسبرسن) يعترف بالقيمة النظرية والعملية للتفريق بين اللغة والكلام فإنه يلاحظ أن (سوسير) وتلامذته قد حملوا هذا التفريق الى حدود المغالاة والتطرف. إنه يرى مثلاً أن (سوسير) قد غالى حين قرر أن الفرد لايستطيع التغيير أو التبديل في اللغة، وان الجماعة هي التي تفعل ذلك (انظر ص) فالواقع ان الفرد هو مصدر التغيير والتبديل، فقد يبتكر لفظاً جديداً أو يستخدم جملة أو عبارة بطريقة خاصة ثم يؤخذ ذلك عنه ويشيع. والحق أن (سوسير) لاينكر أن اللغة تتطور بتأثير الكلام حين يشيع الاستخدام الجديد ويُصْطَلَح عليه. ومع ذلك يقرر (جسبرسن) أن اشتراط شيوع الابتكار الفردى في اللغة لا يغير الأمر الواقع وهو أن الفرد ـ لا الجماعة ـ هو السبب في التغير اللغوى . والخلاف بينهما ـ فيما أعتقد ـ قائم فحسب على المستوى النظرى، ومع التسليم ـ واقعياً ـ بنسبة التغير إلى الفرد يرى (جسبرسن) أن تصرف الفرد في الكلام مشروط بألا يتجاوز حدود الإفهام، والإفهام أمر تشترك فيه الجماعة وليس أمراً خاصاً بالفرد وحده. وبهذا ينتهي (جسبرسن) الى أن الكلام ـ مع أنه نشاط فردى ـ يرتبط في الوقت نفسه بعنصر اجتماعي وهو الإفهام.(٢٢) وكذلك يعارض (جسبرسن) ثنائية (سوسير) من حيث إنه رأى أن التجريد عملية تجرى في حالة الجماعة (اللغة) دون الفرد (الكلام) ويرى هو أن عملية التجريد تجرى كذلك في حالة الأفراد على النحو الآتى: فلو نطق أحدنا (هذا كتاب) ثلاث مرات لكان الحال أنه نطق ثلاث جمل واقعية وجملة واحدة تجريدية منسوبة الى فرد من الأفراد . وينبني على هذا تقسيمه الثلاثي للنشاط اللغوى على النحو الآتي :

الحدث اللغوى : وهو نطق فرد خاص لعبارة خاصة مرة واحدة .

اللغة الفردية : وهي قيم لغوية مجردة لدى فرد من الأفراد .

اللغة الجماعية : وهي مجموعة القيم اللغوية لدى أفراد الجماعة اللغوية الواحدة .

ومؤدى ذلك أن اللغة قد تكون فردية بمعنى القواعد والعلاقات والتجريدات الخاصة بفرد من الأفراد، فيقال مثلاً لغة العقاد أو شوقي، وقد تكون جماعية فتشمل القواعد والعلاقات والتجريدات التي لدى كل أفراد الجماعة اللغوية.(٢٣)

فكأن لغة الجماعة أكثر تجريد أو عمومية من لغة الفرد ـ إن صحت العبارة ـ .

وقد اقترح (هيلمسلف) ـ لدراسة اللغة دراسة نظامية ـ شكلاً من أربعة اقسام لا اثنين كما هما عند (سوسير) وهذه هي :

الكلام Parole وهو الحدث الكلامي الفردى ، وليس ـ في ذاته ـ جزءاً من النظام .

الاستعمال Usage وهو قائم على إحصاء العناصر المطردة، فالمرء يستطيع أن يحصي العناصر المنطوقة المطردة ، وكذلك سائر العناصر اللغوية الآخرى . ولأى متكلم بلغة من اللغات حرية معينة في اختياره للمستعمل .

المعيار Norm ليس المعيار موضوعاً للاختيار الفردى، ولا يوصف إحصائياً، بل تمثله مجموعة من قواعد، فالفونيم /P/ مثلاً يتحقق في الإنجليزية كصوت مهموس شفوى وقفي.

الإسكيما Schima وهو مفهوم أكثر تجريداً للبنية . ليس ثمة إشارة أية إشارة إلى المادة الصوتية، فالعناصر تحدد وفق مقاييس علاقية Relational مجردة فالفونيم /P/ يقابل /b/ و /t/ يقابل /d/ ... الخ ومن ثم فالخصائص المادية الفعلية التي تُظهِر هذه الفروق تعد خارج الموضوع أو لا علاقة لها به.(٢٤)

وبهذا التقسيم الرباعي نحدد الاحتمالات الآتية :

ـ اللغة هي الإسكيما فحسب .

ـ اللغة هي الإسكيما والمعيار .

ـ اللغة هي الإسكيما والمعيار والاستعمال .

وما زال الخلاف بين اللغويين في طبيعة اللغة يدور حول هذه النقطة. فلغويو مدرسة (براغ) عاملوا اللغة كمجموع من الإسكيما والمعيار، وبتمييزهم الفوناتيك Phonetics عن الفونولوجي Phonology يقررون أن الفونولوجي ينبغي أن يدرس ما يربط الفروق الصوتية بالفروق الدلالية، أما الفروق الصوتية منعزلة عن الفروق الدلالية فينبغي وصفها بمصطلحات صوتية.(٢٥)

يقول (كريستال) في التفريق بين العلمين : يختلف الفونولوجي عن الفوناتيك في أن الفونولوجي يعالج الأصوات وما بينها من تقابلات في إطار لغة معينة بينما الفوناتيك يدرس الأصوات دون أية إشارة إلى وظائفها في النظام الصوتي للغة ـ إنه يسمى أحياناً علم الاصوات العام تبعاً لذلك.(٢٦)

ومفهوم (الفونيم Phoneme) عند لغويي مدرسة (براغ) مفهوم تجريدى وظيفي . وهو أصغر وحدة مميزة تعمل في إطار شبكة من العلامات البنيوية التي تؤلف النظام الصوتي في لغة معينة. والكلمة الحاسمة في هذا التعريف هي مميز Distinctive . لقد كان الفونيم عندهم مفهوماً مجرداً يميز الكلمات بعضها عن بعض، أي يحدث بينها تقابلات فونولوجية. فالكلمة العربية (تاب) مثلاً تختلف عن الكلمة (طاب) لأن فونيم التاء في العربية غير فونيم الطاء. ومع ذلك فإن أتباع هذه المدرسة (مثل جاكبسون) يفسر السمات المميزة التي أشرنا اليها سابقاً بأن التقابلات أو (عناصرالخلاف Oppositions) كالتقابل بين المجهور والمهموس ليست سمات تجريدية فحسب ، ولكنها معايير للتحقق المادى والصوتي .

وقد فضل (دانيال جونز) وأتباعه الإنجليز أن يعرفوا الفونيم بأنه عائلة من الأصوات، ومن ثم يدخل الاستعمال في مجال اللغة Le Langue ، وعندهم أن وصف النظام الفونولوجي للغة هو وصف الاستعمال اللغوي، كما هو أيضاً معايير وظيفية ومخططات تجريدية.(٢٧)

وفي الجانب الآخر نجد (هيلمسلف) وأتباعه يعاملون اللغة كمفهوم تجريدي بحت. وعندهم أن السمات الصوتية المادية لا ينبغي أن تراعى عند الوصف. يقول هيلمسلف: الفونيم - في الفونولوجيا - فكرة صوتية أو مفهوم صوتي، أما الاستعمال (الفونيماتيكي) فهو التمثيل، أو تحقيق الفونيم بالنطق، وهذا هو موضوع علم الاصوات.(٢٨)

من هذا العرض الموجز نتبين كيف كان تطور البحث الصوتي مبنياً على ثنائية (سوسير) وكيف تشعبت مناحي مقتربة منها أو متباعدة عنها. بيد أن الامر يختلف إذا ما اتصل بالمستوى النحوي، اذ يقرر نقاده أن موقفه كان ضعيفاً يتعذر الدفاع عنه. لقد كانت نظراته فيما هو من اللغة أو من الكلام غامضة وغير قاطعة.(٢٩)

يقول (سوسير) عند حديثه عن السياق الافقي Syntagmatic الذي نتبين منه علاقة الكلمة بما يجاورها : إن مفهوم السياق لا ينطبق فحسب على الكلمات بل ينطبق على العبارات وعلى وحدات أخرى من كل الأطوال والأنواع (المركبات المشتقات اشباه الجمل، الجمل التامة)."

ثم يقول "وثمة اعتراض قد يظهر عند هذه النقطة ، فالجملة هي النموذج المثالي للسياق (الأفقي) لكنها تنتمي إلى الكلام لا إلى اللغة ".(٣٠)

ولو وقف الأمر عند هذا لحسمت القضية ، لكنه يعود فيدخل بعض العبارات والجمل في اللغة . يقول "إنه من الواضح - منذ البداية - أن كثيراً من العبارات تنتمي إلى اللغة مثل تلك العبارات (السائرة الجامدة) التي لاتتغير عند استعمالها حتى وإن استطعنا إفراد عناصرها الدالة مثل قولنا ? á quoi bon ما الفائدة allons danc! لاشيء- ،(٣١)

ثم يقول : الأنماط السياقية التي تقوم على أساس الأشكال المطردة تنتمي إلى اللغة لا إلى الكلام، ولو لم يكن ثمة شيء مجرد في اللغة فإن الأنماط ستكون هي هذا الشيء اذا سجلت اللغة عدداً كافياً من العينات.(٣٢)

ويبدو أن (سوسير) قد جعل العبارات السائرة الجامدة والعبارات الاصطلاحية الخاصة، والأنماط المطردة، من اللغة - مع تفاوت في الدرجة - لأنها تفتقر الى الحرية التي تتميز بها الجمل العادية في الاستعمال والتي تجعلها أقرب إلى الكلام منها إلى اللغة .

وينهي (سوسير) حديثه قائلاً : علينا أن نتنبه إلى أنه لا توجد حدود فاصلة - في السياق الأفقي - بين الظاهرة اللغوية التي هي دليل على الاستعمال الجمعي والظاهرة التي تنتمي الى الكلام وتتميز بالحرية ..(٣٣)

وهكذا يترك (سوسير) الموضوع غامضاً لم يقطع فيه برأى .

ويرى (سامبسون) أن إهمال اللغويين الأوربيين للنحو وللعلاقات الأفقية بعامة ، أو عدم إمعانهم في بحثها ، كان من آثار (سوسير) . ولهذا يرى أن النحو لم يعالج بنجاح قبل أن ينشر (تشومسكي) أعماله في مطلع الخمسينات .(٣٤)

و(تشومسكي) نفسه ينتقد (سوسير) بأنه لم يعرف العمليات التكرارية لصياغة جملة تحتية ..إنه لم يدرك أنه ببناء عدد محدود من القواعد نولد وصفاً بنيوياً لعدد لا حصر له من الجمل ..(٣٥)

إن ما نلاحظه في الاستعمال من مظاهر خلق الجمل وابتكارها يفترض هذا النظام من القواعد. لقد أصبح من البدهي الآن أن يقال إن كل واحد منا لديه القدرة على إنتاج وفهم عدد هائل من الجمل الجديدة ، جمل لم يؤلفها ولم يسمعها من قبل ، أو على اقل تقدير - لايذكر ذلك.

ويقول تشومسكي وأتباعه إن اللغة ـ ماهي الا استخدام غير محدود لوسائل محدودة، وهذا يفترض وجود نظام من القواعد يتمثل في كل شخص يتعلم لغة معينة، بهذا النظام يفهم هذا الشخص وينتج جملاً جديدة أو قديمة مقبولة أو مرفوضة ـ ولاشيء غير هذا.

ويؤكد (تشومسكي) أن دراسة هذا النظام من القواعد يكون في النهاية أكثر أهمية من دراسة الجمل الفعلية ذاتها، لأن هذا النظام ماهو إلا مخطط أو مشروع عمل يحدد كل الاحتمالات في اللغة، على حين أن أية مجموعة من الجمل مهما كانت كبيرة تقدم فحسب صورة لما يمكن أن تفعله، ولهذا وضع فرقاً أساسياً بين معرفة المتكلم بلغته، أى نظام القواعد المتمكن منه واستخدامه الفعلي للغة في مواقف الحياة الواقعية، وقد اطلق على الأول مصطلح قدرة أو كفاية Competence وعلى الثاني فعل او تنفيذ Performance .(٣٦)

ويوضح (سامبسون) وجه الخلاف بين مفهوم تشومسكي عن "القدرة" و"الفعل" ومفهوم سوسير عن "اللغة" و"الكلام" بقوله: ويرى تشومسكي نفسه تطابقاً بين فكرته عما أسماه "القدرة" اللغوية عند الفرد وفكرة (سوسير) عن "اللغة" ولكن ثمة فارقاً ـ يبدو أنه غاب عن (تشومسكي) نفسه وهو أن مفهومه للقدرة اللغوية ـ كما يدل على ذلك مصطلحه ـ أمر سيكولوجي يتصف به الفرد ، ومن ثم فإنه غالباً ما يعرف اللغة بأنها معرفة المتكلم والسامع بلغتهما، فعنده ـ كما كان الحال عند أسلافه الأمريكيين ـ أن لغة الفرد تأتي في المحل الأول ، أما لغة الجماعة فتجيء في المرتبة الثانية ، فهي لا تعدو أن تكون وسيلة ملائمة للرجوع الى القدرات اللغوية لعدد كبير من الأفراد يتشابهون فيما بينهم إلا في التفاصيل الثانوية ، أما (سوسير) فالأمر عنده يختلف تماماً ، فاللغة عنده لا توجد في أكمل صورها إلا في لغة الجماعة .(٣٧)

ثم يقول في تفسير موقف (سوسير): قد يكون معقولاً أن نتمثل جماعة لغوية معينة يتوفر لمتحدثيها نظام من مورفيمات متقابلة (كلمات فلم يستخدم (سوسير) هذا المصطلح) وفقاً للسياق الرأسي، ولكن من المستبعد تماماً أن نتمثل جماعة لغوية يتوفر لمتحدثيها نظام من جمل متقابلة، لأن جمل اللغة لا تنحصر في قائمة محدودة، وإن كانت مفرداتها تقع تحت الحصر..(٣٨)

وهكذا لم يتصور (سوسير) كيف كان من المحتمل - رياضياً - أن يحدد ما لا نهاية له من الجمل بعدد محدود من النماذج أو الأنماط اللغوية. وقد قدر لعلم اللغة أن ينتظر سنوات بعد وفاة (سوسير) ليكشف (تشومسكي) هذه الحقيقة. ولعل هذا يذكرنا بما انتقده به آنفاً انظر ص (١٢٧).

النظرة الوصفية والتاريخية :

قيل إن (سوسير) بتفريقه الحاد بين النظرة الوصفية والتاريخية، وباعترافه بأفضلية الدراسة الوصفية، تجاهل أو أهمل أن اللغة أساساً ظاهرة تاريخية عارضة وأنها في تغير مستمر، بل ظهر بعد الستينات من يقول إن الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبدأ من فراغ، إذ لا يمكن أن نصف بنية لغوية اليوم إلا إذا عرفنا ماذا كانت عليه في الماضي، فمعرفة تطورها جزء من حقيقتها.(٣٩)

والحق أن (سوسير) لم يهمل الدراسة التاريخية - كما زعموا - وكل ما هنالك أنه كان حريصاً على التفريق بين المحورين: محور الدراسة الوصفية ، ومحور الدراسة التاريخية، وقد أكد غير مرة على أنه من المستبعد دراسة العلاقات عبر الزمن والعلاقات في إطار النظام في الوقت نفسه (انظر ص ٤٣ ، ٤٤).

وقد اتضح كذلك أن التسلسل التاريخي للوقائع اللغوية لاوجود له عند المتكلم الذى يواجه وضعاً لغوياً ثابتاً ، وأوجب على اللغوى أن يستبعد الماضي تماماً حين يريد دراسة اللغة آنياً.

فالضمير You في الإنجليزية الحديثة مثلاً يُستخدم للإشارة إلى المفرد المخاطب وجمعه، ويقع في موقع المسند إليه وموقع المفعول به. وفي مرحلة من مراحل الانجليزية القديمة كان يشير إلى الجمع فحسب، ويقع في موقع المفعول به. إن هذه الواقعة لا تعني من يتكلم الانجليزية اليوم، وليست جزءاً من معرفته الحالية بلغته، وعلى اللغوى أن يدرس هذا الضمير وعلاقته بالضمائر الأخرى في إطار النظام الحالي للإنجليزية لاغير. ولاخلاف بين اللغويين في

اتخاذ هذا المنهج. بيد أن ما ذكره من أن التغير لا يؤثر في النظام بل في عناصره ، وما ذكره من عشوائية التغير هو ما يستوجب الخلاف حقاً.

وحجة (سوسير) أن التغيير يحدث في الواقع اللغوى المحسوس أى في الكلام لا في اللغة، ومن ثم فإن ما يتغير هو العناصر الفردية لا النظام نفسه (انظر ص ٥٨)، واللغويون المعاصرون مع اعترافهم بأن قضية العلاقة بين الدراسة الوصفية والتاريخية لم يستقر الرأى فيها حتى اليوم يرون أن اللغة تتضمن نظاماً ثابتاً وتطوراً في الوقت نفسه (قد تُهْجَر ألفاظ وقد تُبْتَدَع ألفاظ .. الخ) ومن هنا رأوا أن الوصف الآني والتاريخي ليسا نمطين لعنصر بل منهجين لدراسة اللغة . وقد ألح لغويو مدرسة (براغ) على أن التغير اللغوى ليس قوه عمياء إنه عمل منظم ، واللغويون التوليديون اتخذوا موقفاً معارضاً لسوسير، إذ يرون أن التغير الصوتي مثلاً ينشأ من داخل النظام ذاته ، وقد يؤثر على العناصر المحددة نحوياً، ويوصف أفضل وصف على أنه تغير في القواعد لا في العناصر الفردية.(٤٠)

وعلى هذا ينبغي أن يقال مثلاً : إن بعض اللغات حين هجرت صيغة المثنى استبدلت بنظامها الثلاثي: المفرد والمثنى والجمع نظاماً ثنائياً يتألف من المفرد والجمع، واللهجات العربية المعاصرة حين هجرت الاعراب استبدلت به نظاماً آخر يعتمد في تحديد مواقع الكلمات على ترتيبها في السياق الأفقي .

العلامة اللغوية :

أوضحنا عند الحديث عن العلامة اللغوية أن (سوسير) يرى أن العلامة لا تربط شيئاً بلفظ بل تربط مفهوماً بصورة سمعية ، ومن ثم فاللغة عنده مجموعة من الصور الذهنية المجردة عند كل أفراد المجتمع . وبهذا الفهم لا يهتم (سوسير) بالجانب المادى للعلامة بشقيه : الشىء والصوت . (انظر ص ٢٧)

وقد اعترض (أوجدن) و(ريتشاردز) على هذا الفهم وقالا: إن نظرية العلامات عندما اغفلت تماماً الأشياء التي تحل العلامات محلها قطعت أواصرها بمناهج الإثبات العلمي، وقالا:

"إننا في حاجة إلى نظرية تربط بين الكلمات والأشياء التي ترمز إليها من خلال تحليلين منفصلين : تحليل يتناول العلاقة بين الكلمات والأفكار وتحليل يتناول العلاقة بين الأفكار والأشياء.."[٤١] وقد أوضحا جوانب هذه العلاقة في مثلث على النحو الآتي :

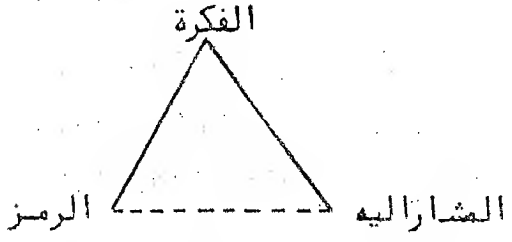

شكل (١١)

ونتبين ما يأتي من الموازنة بين مصطلحات (أوجدن) و (ريتشارز) ومصطلحات (سوسير):

الرمز يقابل الدال عند (سوسير) .

والفكرة تقابل المدلول عند (سوسير) .

أما المشار إليه فليس له مكان في التحليل السوسيرى كما أوضحنا سابقاً .

ونتبين من المثلث أن (أوجدن) و (ريتشاردز) قد ضمناه الشيء الذى تشير إليه العلامة أو تحل محله ، وبذلك ربطا العلامة بالواقع الخارجي ووضعاه في صلب ماهيتها.

وقد أوضحا كذلك أن العلاقة بين الرمز والفكرة علاقة سببية، أى أن الفكرة هي العلة في وجود الرمز. وهنا نجد بعض التشابه بين مايقولانه وما يقوله (سوسير) عن العلاقة بين الدال والمدلول: أى أن المدلول يثير في الذهن الدال. (انظر ص ٢٨) غير أنهما يدخلان اعتبارات أخرى في عملية الربط بين الفكرة والرمز .. فيقولان إن ما يكمن وراء استدعاء الرمز ليس الفكرة وحدها، ولكنه عنقود من العلل بعضها ذهني وبعضها سلوكي اجتماعي، فالقوى الاجتماعية تلعب دوراً هاماً في إقامة العلاقة بين الفكرة والرمز، ومن هذه القوى الاجتماعية

الهدف الذى نرغب في تحقيقه أو الأثر الذى نود أن نحدثه عند الآخرين أو حتى موقفنا الشخصي من الأمور ـ ،،[٤٢]

وكذلك تفسر العلاقة بين الفكرة والمشار إليه تفسيراً سببياً أى أن الفكرة تتولد من فعل المشار إليه، وتكون العلاقة مباشرة إذا أمكن اختبار المشار إليه اختباراً حسياً أى إذا كان الشيء واقعاً في محيط الخبرة الحسية للمتكلم أو المخاطب، أما إذا غاب الشيء عن محيط الخبرة الحسية فتكون العلاقة غير مباشرة، ويتم من خلال مجموعة من العلامات الوسيطة تسمى (العلامات ـ المواقف) فإذا فكرنا في (نابليون) مثلاً ـ وهو مشار إليه غائب عن محيط خبرتنا المباشرة ـ فإننا نتوصل إليه من خلال سلسلة من العلامات تفصل بيننا وبين المشار إليه، وقد تأتي على النحو الآتي :

نابليون ← المؤرخ ← الوثائق المعاصرة لنابليون ← شهود العيان ← المشار إليه = نابليون .

اما العلاقة بين الرمز والمشار إليه فعلاقة غير معللة وغير مباشرة . ولاتتم إلا من خلال جانبي المثلث. وكانت هذه العلاقة موضع اهتمامهما لأن الرموز لاتحل محل الأشياء إلا من خلال ترجمتها إلى افكار، وقد لا تتطابق هذه الأفكار مع الأشياء أو قد تحور من حقيقتها، ولهذا يحذراننا من طبيعة الكلمات الخادعة ويفيضان في مناقشة قضية الحقيقة والبطلان.[٤٣]، ويمضي (أولمان) وهو من كبار اللغويين المعنيين بدراسة المعني ـ في إثر (أوجدن) و (ريتشاردز) ويقترح تبسيط المثلث ومصطلحاته على النحو الآتي :

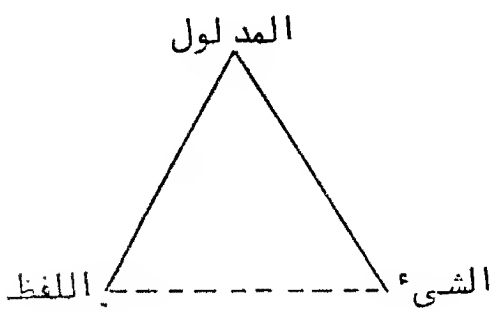

شكل (١٢)

ثم يقول : نستطيع الآن أن نبدأ في تبسيط هذا المنهج وفي تعديله وفقاً لحاجتنا في البحث .. من الممكن أولاً أن نتخلص من الشيء نهائياً، إذ أن دارس اللغة إنما يعنيه الكلمات لا الأشياء (وهو بهذا يقترب من سوسير ويبتعد عن أوجدن وريتشاردز) وقد اتضح لنا من الشكل البياني نفسه أنه لاتوجد علاقة مباشرة بين الطرفين. والعلاقة الحقيقية الوحيدة التي تربط الشيء بأي طرف آخر في المثلث إنما هي العلاقة الموجودة بينه وبين الفكرة. على أن طبيعة الارتباط بين الواقع (أي الشيء) وصورته المنعكسة في أذهاننا إنما هي مشكلة تخص عالم النفس أو الفيلسوف. أما اللغوي فليس في مقدوره أن يكون طرفاً في هذه المسأله الجدلية. كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يركز اهتمامه ـ على الجانب الأيسر من المثلث أي الخط الذي يربط الرمز بالفكرة " ثم يقول :

ونستطيع بعد ذلك أن نبسط المصطلحات نفسها وأن نجعلها ذات صبغة لغوية صرفة فنستخدم المصطلح (اللفظ) بدلاً من (الرمز) و(المدلول) بدلاً من (الفكرة) وسوف نُعرّف اللفظ حينئذ بأنه الصيغة الخارجية للكلمة ، وأما المدلول فهو الفكرة التي يستدعيها اللفظ .

وبعد أن استوفي (أولمان) الكلام عن العلاقات التي تربط بين أطراف المثلث يعرف المعنى بأنه علاقة متبادلة بين اللفظ والمدلول، علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر، (٤٤) وليست عملية الاستدعاء التي اعتمد عليها في تصوير العلاقة بين اللفظ والمدلول ببعيدة عما ذكره (سوسير) انظر (ص ٢٨ ، ٢٩).

العلاقات الأفقية والرأسية :

أوضح (سوسير) عند حديثه عن العلامة أن اللغة نظام من علامات أو وحدات لغوية تتعرف كل وحدة منها بالوحدات التي تشترك معها في السياق ، وينبني على هذا أن أي وصف دقيق للغة ينبغي أن يعتمد على بيان العلاقات بين الوحدات اللغوية، وبين كذلك طبيعة هذه العلاقة بأنها ليست سمات موجودة تتحدد بمضمونها أو بمحتواها بل تتحدد بعلاقاتها بالوحدات الأخرى في النظام ، وأدق سماتها ما يميزها عن غيرها أي عناصر الخلاف.

(انظر ص ٣٩). ومن ثم نتبين ان (سوسير) قد أعطى للفروق أو للقيم الخلافية أو لما يعرف بالتقابلات الثنائية Binary Oppositions أهمية كبيرة. وقد استفاد علماء الفونولوچيا من هذا المفهوم فائدة كبيرة، فكل سمة مميزة - كما يقول جاكبسون - تتضمن اختياراً بين وصفين متقابلين يكشفان عن سمة خلافية محددة ، فالصوت الصامت مثلاً مجهور أو مهموس والحركة طويلة أو قصيرة ... الخ، وقد تنبه هؤلاء اللغويون إلى أن استخدام التقابلات الثنائية لوصف البنية ليس أداة منهجية بل انعكاس لطبيعة اللغة نفسها، فالتقابلات الثنائية أخصر وأقرب نظام شفرى يكشف عن طبيعة اللغة، وهي العمليات الأولى التي يتعلمها الطفل عندما يبدأ في اكتساب لغته، وهي - بصورة أكثر عمومية - القاسم المشترك للفكر، والحق - كما يقول كيولر - إن (سوسير) واتباعه قد أعادوا بها الحديث عن الروابط بين اللغة والفكر، ولكن على مستوى العمليات البنائية الأساسية.(٤٥)

وقد كان مفهوم العلاقات : أفقـية Syntagmatic ورأسية Paradigmatic. محط اهتمام كثير من اللغويين، ولنا أن نقرر - كما يقول كيولر - أن الفروق بين النظريات المتعددة في النحو، والتي تطورت منذ أيام (سوسير) حتى اليوم هي - بالضرورة - اعتراضات أو تطورات لمفهوم العلاقات الأفقية وطرق تحديدها ..(٤٦)

هذا وإن تتبع هذه الاعتراضات أو التطورات لما يعسر عرضه في صفحات وإنه ليخرج بنا أيضاً عن مطلوب هذا الفصل، ومن ثم نكتفي بعرض بعض الأمثلة التي تشير إلى المعالم البارزة لهذا المفهوم في النحو والدلالة . وهذا حسبنا.

إن المدارس اللغوية الحديثة - على اختلافها في نقطة البداية - تتبنى مفهوم المستويات اللغوية الذى بمقتضاه تشترك وحدات من مستوى أدنى لتؤلف وحدات من مستوى أعلى منها. فبعض المدارس تفضل أن تبدأ بدراسة النظام الصوتي الذى وحداته الفونيمات ، ثم تنتقل منه إلى النظام الصرفي حيث تدرس الطرق التي تتبني بها المورفيمات أو الكلمات من الفونيمات، ثم تنتقل بعد ذلك الى المستوى النحوى حيث تدرس الطرق التي تنتظم بها المورفيمات أو الكلمات لتؤلف عبارات أو جملاً، وقد يحاول بعض الباحثين - فيما بعد - دراسة المعاني المختلفة التي

تنقلها هذه الكلمات أو الجمل، ومدارس أخرى تفضل منهجاً مخالفاً لما سبق، هذا المنهج يبدأ بدراسة العلاقات الدلالية بين الكلمات أو بين المجموعات الكلامية المتعاقبة، ثم يحدد بعد ذلك النماذج النحوية أو الصرفية التي تعبر عن هذه المعاني، وبعد ذلك فقط ربما تنتقل الى دراسة الوسيلة التي تُنْطَق بها هذه النماذج.(٤٧)

ومجال البحث في النحو - فيما يعرف بعلم اللغة قبل الستينات - يقوم على أساسين مهمين :

الأول : بيان الوحدات اللغوية التي تتألف منها الجملة .

الثاني : بيان العلاقات المتبادلة بين هذه الوحدات .

فمن حيث الأساس الأول تدرس وحدات اللغة المعينة من المورفيمات والكلمات والعبارات وأشباه الجمل والجمل، وتُعَرّف وفقاً لمكوناتها وتوزيعها ووظائفها.(٤٨)

ومن حيث الأساس الثاني تقوم الدراسة على تبادل أمرين لايمكن الفصل بينهما إلا للدراسة :

الأول : شغل المواقع ويسمى العلاقات الرأسية .

الثاني : الترابط بين الوحدات ويسمى العلاقات الأفقية .

والمقصود بشغل المواقع أن اختيار وحدة معينة من وحدات اللغة لتشغل موقعاً معيناً لايقوم على أساس العلاقة التي تربط هذه الوحدة بغيرها من الوحدات المشتركة معها في السياق بل يقوم على أساس علاقة هذه الوحدة بوحدات أخرى من خارج السياق تصلح لأن تشغل الموقع نفسه، كأن أقول مثلاً إن الأشكال الآتية : الرجل ، هذا الرجل ، الذى قام يمكن أن تشغل موقع المسند إليه في قولنا : جاء محمد .

والمقصود بالترابط بين الوحدات أن يتم اختيار وحدة معينة لتشغل موقعاً معيناً بالنظر إلى علاقة هذه الوحدة بما يجاورها من وحدات في السياق. كأن يقال مثلاً إن الكلمة (محمد) وهي من قسم الاسم تتطلب الكلمة (الكريم) وهي من قسم الوصف لتؤلف العبارة: محمد الكريم. وهو مايعرف بالتضام. وكأن يقال إن الصفة (الكريم) تجيء بعد الموصوف (محمد) وهو مايعرف بالرتبة، وكأن يقال إن الصفة (الكريم) تتبع الموصوف (محمد) في التعريف والتذكير والإفراد وهو مايعرف بالمطابقة .. إلى غير ذلك من العلاقات النحوية المعروفة.(٤٩)

وقد وجد مفهوم العلاقات طريقه أيضاً إلى دراسة المعنى لاسيما عند المدارس التي تعنى بالسياق أو بالتوزيع، ويرى أصحاب هذه النظرة أن معنى الكلمة يتقرر على ضوء السياق الذى تقع فيه، ومن ثم فإن التحليل اللغوى يهتم أصلاً بتوزيع العناصر اللغوية. هذا وأصحاب هذه النظرة يعالجون المعنى أيضاً على أساس مايسمى بالعلاقات الأفقية والرأسية .

وتفسير ذلك. إذا مانظرنا إلى الجملة: العصفور في القفص. وتحدثنا عن علاقة العصفور بالقفص، فالعلاقة المتحدث عنها علاقة أفقية، أما إذا قابلنا الجملة السابقة بالجملة: الأسد في القفص. وتحدثنا عن علاقة (الأسد) بالعصفور، فالعلاقة المتحدث عنها علاقة رأسية.

ومجمل مايقال في هذا التحليل أن معنى الكلمة هو مجموع معانيها في السياقات المستخدمة أو بعبارة أخرى إن معنى الكلمة موزع على سياقاتها.(٥٠)

ويقول (روبنز) إن علم الدلالة التوزيعي - وإن لم يكن كافياً وحده - قد نبهنا إلى أهمية قولنا: إن جزءاً من المعنى الكلي للكلمة يتحدد بعلاقاتها بالكلمات الأخرى من حيث البعدان المعروفان في التحليل اللغوى : البعد الأفقي والبعد الرأسي وإنه لينبهنا أيضاً إلى حقلين من أوسع حقول البحث في الدلالة ، وفي هذا يقول :

"لقد درست العلاقات الأفقية بين الكلمات كمفردات معجمية تحت عنوان المصاحبة Col-location كما درست العلاقات الرأسية تحت عنوان الحقول الدلالية Semantic Fields"(٥١)

فروع اللغة عند أولمان :

حدد (أولمان) مجال علم اللغة بفروعه المختلفة وفقاً لطبيعة الوحدات أو الرموز التى تتألف منها اللغة ، وتتكشف طبيعة الوحدات وفقاً للاعتبارين الآتيين :

أ ـ وظيفة الوحدات ب ـ بنية الوحدات *

وبمراعاة هذين الاعتبارين يتقرر عنده أن لكل وحدة من وحدات اللغة علما يختص بدراستها ، وأساس هذه النظرة أمران استفادهما من (سوسير) .

الأول : نظرة (سوسير) إلى العلامة اللغوية بشقيها المادى والذهنى .

الثانى : نظرة (سوسير) إلى التفرقة بين اللغة والكلام .

لقد رأينا آنفا أن (سوسير) يعرف العلامة اللغوية بأنها علاقة بين مفهوم وصورة سمعية، وهو تصور يستبعد الجانب المادى بشقيه (أى الشىء واللفظ) ومن ثم يقتصر علم اللغة على دراسة الجانب الذهنى فحسب (أى المفهوم والصورة السمعية) .

ورأينا كذلك أن تفرقة (سوسير) بين اللغة والكلام قائمة على أن الكلام نشاط فردى مادته الأحداث اللغوية المنطوقة بالفعل ، أما اللغة فهى نظام من علامات أى من صيغ ونماذج وقواعد مختزنة فى عقول الأفراد الذين يؤلفون جماعة معينة .

يستخدم (أولمان) مصطلح (رمز Symbol) ليعنى به العلامات التى يستخدمها البشر فى الاتصال ، ويستخدم المصطلح (صورة ذهنية Engram) ليشير به إلى أثر أو صورة فى الذاكرة لصوت أو كلمة أو قاعدة تركيبية، وقد أوضح كيف تتكون هذه الصورة بقوله : إن تجارب الكلام الفعلى المتمثلة فى الأصوات والكلمات التى تنطق وتسمع وتقرأ وتكتب تترك وراءها آثاراً

---

* ثمة اعتبار ثالث لامجال للحديث عنه هنا .

ذهنية فى عقول أفراد الجماعة اللغوية تؤلف شبكة من الرموز تتشكل فى محيط الجماعة اللغوية، فليس ثمة عقل فردى يتسع لها كلها ، وهذه الشبكة المنتظمة من الرموز هى اللغة Le Longue. (٥٢)

ثم يقول : والرموز اللغوية هى عناصر من تجارب أوسع تتضمن الأشياء التى تشير إليها، فالكلمة (منضدة) مثلاً هى جزء من موقف يشار فيه بهذا الرمز الى شىء موجود بالفعل، وبتكرار هذه المواقف تستقر صورة الرمز أو الكلمة وصورة المنضدة فى أذهاننا. وهذا التلازم يُقدر كلا منهما على استدعاء الآخر، فإذا ما نطقت الكلمة تمثلت فى الذهن صورة الشىء، ومن ثم توظف الكلمة كرمز للشىء.

ثم يتحدث عن علاقة الرموز اللغوية بالعلامات الأخرى بقوله : الكلمات إذاً ومعانيها ماهى إلا صور ذهنية، ومن ثم فهما ظاهرتان عقليتان، والنظام اللغوى نفسه عقلى، فاللغة نظام من رموز مستقرة فى عقول أفراد الجماعة ، وهذا التعريف ينطبق على أنظمة العلامات الأخرى مثل: الايماءات وأبجدية الصم والبكم والإشارات البحرية ..الخ وتختص اللغة من بين هذه الأنظمة بأنها نظام من رموز منطوقة مسموعة » (٥٣)

واللغة - عند (أولمان) - كما هى عند (سوسير) ثابتة نسبياً، قد تتغير، ولكن ذلك قد يستغرق وقتاً طويلاً، قد يكون جيلاً أو أجيالاً بل قد يكون قروناً . وهى مفروضة على الفرد من خارجه، وعليه أن يلتزم بقواعدها، وليس بمقدوره أن يغير فيها وفقاً لرأيه أو هواه، إنها راسخة فى عقل الجماعة لافى عقل الفرد » (٥٤) وانظر: (ص ٣٠)

وقد أوضحنا فى ثنايا هذا البحث غير مرة أن (سوسير) يرى أن اللغة وحدها هى موضوع البحث فى علم اللغة وذلك لأن الكلام يتحقق فى صور مختلفة لا حصر لها، وليس ثمة علم يمكن أن يدرس هذه الصور فى الواقع ، ومع ذلك فهو يقترح علماً لغوياً يختص بدراسة الكلام . انظر : (ص ٢١) .

وهذا بعينه ما انتهى إليه (أولمان) حيث رأى أن الحديث المتصل أو الكلام من حيث هو ظاهرة فيزيائية يمكن أن يتحلل إلى عناصر صوتية من أطوال مختلفة ، ثم تتحلل هذه العناصر إلى مقاطع، وتلك تتحلل فى النهاية إلى أصوات، و(الأصوات Sounds) هى أصغر الوحدات الفيزيائية للكلام، والآثار أو الصور التى تتركها فى الأذهان هى (الفونيمات Phonemes) ، والفونيمات ليست رموزاً تامة، إذ ليس لها معنى فى ذاتها، وهذا لا يعنى أنه لا أهمية لها أو لا دور. فوظيفتها المقررة هى بناء وحدات أكبر منها، ودورها فى المعنى هو التفريق بين الكلمات أو بين معانى الكلمات كالذى يحدث بين (bad) , (pad) , (bat) ... الخ والعلم الذى يعالج هذه الفونيمات هو (الفونولوجى Phonology) أما (علم الأصوات Phonetics) أى الدراسة الفيزيائية للصوت فليس فرعاً من فروع علم اللغة ، لأنه يختص بدراسة الكلام ، وإن كان يمثل دراسة تمهيدية لا غنى عنها لعلم اللغة .(٥٥)

ويمكن تحليل الحديث المتصل أو الكلام دلالياً ، إذ يتمثل فى عدد محدود من العناصر ذوات المعنى تؤلف - فى النهاية - وحدات دلالية هى الكلمات ، والعلم الذى يدرس هذا الجانب من الكلمات هو المعجم Lexicology .

والكلمات لاتجىء منفصلة فى أثناء الكلام المتصل بل تجىء منتظمة فى نماذج محددة معبرة عن نوع من العلاقة بين الأشياء التى تنوب عنها ، وهذه النماذج المنتظمة للكلام تترك وراءها نماذج تستقر فى الذهن، وتلك تزودنا بقوالب جاهزة تصب فيها الكلمات، والوظيفة المقررة للكلمات هى الدلالة، أى أن تستدعى فكرة أو تشير إلى شىء، على حين تختص تلك النماذج التجريدية بالتعبير عن العلاقات، وهى تعرف بـ (المركبات Syntagmas) ، والعلم الذى يدرس بنيتها وعناصرها ووحداتها الكبرى هو (النحو Syntax) .(٥٦)

ونظرة (أولمان) إلى بنية الوحدات اللغوية أو تركيبها الداخلى لا تختلف عن نظرة (سوسير) إليها ، فالكلمات والمركبات لها جانبان * : جانب خارجى أو الدال بعبارة (سوسير)

---

* يراعى التقسيم الكلمات والمركبات فحسب ، لأن الجانب المادى للفونيم لايدرس فى علم اللغة .

Signifiant وجانب المعنى أو المدلول بعبارة (سوسير) Signifié ، وهذان الجانبان قد يطلق عليهما أحياناً الصيغة Form والمعنى Meaning أو القالب Expression والمضمون Content.(٥٧)

وهذه النظرة الثنائية إلى عناصر هذه الوحدات تقتضى حتماً ثنائية فى العلم الذى يختص بدراستها، ومن ثم أصبح من الضرورى أن يتفرع علم المعجم إلى فرعين أحدهما يدرس الجانب الخارجى، والآخر يدرس جانب المعنى ، وهكذا الحال فى علم النحو .

فعلم المعجم يتفرع إلى :

١ ـ علم الصرف المعجمى Lexical Morphology وهو يبحث فى الجانب الشكلى للكلمة أى فى جذور الكلمات وفى وسائل تأليفها من حيث التركيب والاشتقاق ، وغير ذلك مما يتصل بالدال أو اللفظ .

٢ ـ علم الدلالة المعجمى Lexical Semantics ، ويبحث فى معانى الكلمات على النحو المعروف فى المعاجم .

وعلم النحو يتفرع إلى :

١ ـ علم الصرف النحوى Syntactic Morphology ، ويبحث فى الوسائل الشكلية التى توظفها اللغة للتعبير عن العلاقات مثل : حروف العطف والجر والسوابق واللواحق .. الخ، وهو يهتم بخصائصها من الناحية اللفظية أو الصرفية الخالصة .

٢ ـ علم الدلالة النحوى Syntactic Semantics ، ويبحث فى وظائف الوسائل النحوية السالفة الذكر، وفى معنى أجزاء الكلام وأجزاء الجملة وأنماطها .. الخ.(٥٨)

فى المصطلح اللغوى ومشكلاته

اعتمدت فى أثناء إعداد هذا البحث (١٩٨٥) على الترجمة التى قام بها (باسكين) للنص الفرنسى لمحاضرات (سوسير) وقد ظهر آنذاك ترجمة له بمصر قام بها : أحمد نعيم الكراعين (دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٥) ، وحين راجعت بعض فصولها على الأصل وجدت المترجم قد تنكب الصواب فى كثير من المواضع مما اضطرنى إلى عدم الاعتداد بها .

وبعد أن انهيت كتابة البحث (١٩٨٦) حصلت على ترجمتين للنص الفرنسى ، قام بالأولى يوسف غازى ومجيد النصر (دار نعمان للثقافة ، بيروت ١٩٨٤) وقام بالثانية عبد القادر قنينى (أفريقيا الشرق . الدار البيضاء ١٩٨٧)، وعلى ترجمة للنص الإنجليزى قام بها يوئيل عزيز ظهرت طبعتها الأولى (١٩٨٤) ثم ظهرت طبعتها الثانيه (جامعة الموصل ١٩٨٨) وهى الطبعة المشار إليها فى هذا البحث.

وهذه الترجمات الثلاث عند المقابلة بينها ترجمات جيدة قاربت النص مقاربة طيبة، ومابينها من فروق لايحول دون الاستفادة من إحداها والاستغناء بها عن الأخرى، وإن كان الجمع بينها أفضل لمن ينشد دقة التعبير وإحكام الأداء .

واستكمالاً للفائدة وتيسيراً على الباحثين فى الرجوع إلى النص أضفت إلى الهوامش التى كانت مقتصرة على ترجمتى للنصوص المختارة من ترجمة (باسكن) إشارات إلى مايقابلها من ترجمات غازى وعزيز وقنينى .

بيد أن المقابلة بين هذه الترجمات قد أثارت مشكلة، فبينها فروق فى استخدام المصطلحات لايستهان بها، بل إنها فى بعض الأحيان بلغت حد الإلباس والتعمية ، ومن ثم فقد عن لى أن أضع هنا قائمة بالمصطلحات المستخدمة فى البحث كما وردت فى ترجمة (باسكين) متلوة بما يقابلها من مصطلحات عربية على النحو الآتى :

١ ـ المصطلح كما ورد فى البحث .

٢ ـ المصطلح كما ورد فى ترجمة عزيز .

٣ ـ المصطلح كما ورد فى ترجمة غازى والنصر .

٤ ـ المصطلح كما ورد فى ترجمة قنيبى .

وفى كل الأحوال ثمة إشارة إلى الصفحة التى ورد فيها النص، وسيجد القارىء أيضاً فى ثنايا البحث نجمة خماسية * أعلى كل مصطلح منها.

وبعد أن أنجزت هذه القائمة على هذا النحو لاحت فرصة للمقارنة بين أساليب هؤلاء المترجمين فى التعامل مع مصطلحات (سوسير) وهى تمثل المصطلحات التى ابتدعها أو كانت متداولة فى عصره.

وقد دعانى ذلك إلى مناقشة موسعة لقضية المصطلح اللغوى ، وقد أحوج الأمر أيضاً إلى استقراء ما كان يستعمل من هذه المصطلحات قبلاً منذ ظهر أول كتاب فى هذا المجال وهو (علم اللغة) للدكتور على عبد الواحد وافى عام (١٩٤١) وهو يتضمن ـ فيما أعلم ـ أول إشارة إلى مصطلحين من مصطلحات (سوسير) : اللغة Longue والكلام Parole. بل امتدت المناقشة أحياناً إلى بعض المترجمات والمؤلفات ، وقوائم المصطلحات اللغوية ومعاجمها المتداولة، وكنت حريصاً عند استقرائها على أن تحيط بما أنتجه المشارقة والمغاربة على سواء.

ولم يكن هذا الاستقراء على أية حال كاملاً ، فقد فاتنا حتماً كتاب أو آخر، لأن أيدينا لم تصل إليه ، أو اكتفاء بالكتب المشار إليها أو تخفيفاً على القارىء من تعدادها ، ومع ذلك فنحن نبسط العذر ونطلب الصفح.

قائمة المصطلحات الواردة في البحث

Baskin		البحث		عزيز		غازى والنصر		قنيبى	
Term	P	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص
Linguistics	P.1	علم اللغة	١٤	علم اللغة	١٩	الألسنية	١١	علم اللسان	8
External Linguistics	P.20	علم اللغة الخارجى	١٥	علم اللغة الخارجى	٣٩	الألسنية الخارجية	٣٥	علم اللسان الخارجى	31
Internal Linguistics	P.20	علم اللغة الداخلى	١٥	علم اللغة الداخلى	٤١	الألسنية الداخلية	٣٥	علم اللسان الداخلى	31
Organism	P.21	بنية	١٥	كيان	٤٠	كيان	٣٦	بنية	33
System	P.21	نظام	١٥	نظام	٣٩	نظام	٣٥	نظام	31
Ethnology	P.20	علم الاجناس	١٥	علم السلالات البشرية	٣٩	علم الأجناس	٣٥	علم دراسة الشعوب	31
Civilization	P.20	حضارة	١٥	حضارة	٣٩	حضارة	٣٥	حضارة	31
Culture	P.20	ثقافة	١٥	ثقافة	٣٩	عادات	٣٥	أعراف وتقاليد	31
Local Dialects	P.21	لهجات محلية	١٦	لهجات محلية	٤٠	لهجات محلية	٣٦	لهجات محلية	32
Grammatical Organism	P.21	بنية نحوية	١٦	نظام نحوى	٤٠	كيان نحوى	٣٦	بنية نحوية	33
Techinical Terms	P.21	مصطلحات فنية	١٦	اصطلاحات تقنية	٤٠	مصطلحات تقنية	٣٦	ألفاظ تقنية	32
Loan Words	P.21	كلمات مقترضة	١٦	مفردات مستعارة	٤٠	كلمات دخيلة	٣٦	عبارات مستعارة	32
Borrowing	P.22	اقتراض	١٧	استعارة	٤٠	دخيل	٣٦	استعارة	33
Linguistic Organism	P.22	بنية لغوية	١٦	نظام لغوى داخلى	٤٠	كيان البنى داخلى	٣٦	بنية لغوية	33
Families of Language	P.6	عائلات لغوية	١٨	أسر لغوية	٢٤	أسر لغوية	١٧	أصناف اللغات	14
Reconstruction	P.6	إعادة بناء	١٨	إعادة بناء	٢٤	إعادة بناء	١٧	إعادة بناء	14
Mother Language	P.6	لغة أم	١٨	لغة أم	٢٤	لغة أم	١٧	لغة أصلية أم	14
Le Parole	P.9-14	الكلام	٢٠	الكلام	٣٢	الكلام	٢٥	الكلام	23
Le Langue	P.9-14	اللغة	٢٠	اللغة	٣٨	اللغة	٣٣	اللسان	30
Le Language	P.9-14	اللسان	٢٠	اللسان	٣٣	اللسان	٣٣	اللغة	30
Faculty of Speech	P.9	ملكة اللسان	٢٤	ملكة اللسان	٢٧	ملكة اللسان	٢١	ملكة اللسان	18
Sound Image	P.11	صورة سمعية	٢٦	صورة صوتية	٣٠	صورة سمعية	٢٣	صورة سمعية	21
Acoustic Image	P.11								
Concept	P.11	مفهوم	٢٧	فكرة	٣٠	تصور	٢٣	مفهوم : تصور	21

Baskin		البحث		عزيز		غازى والنصر		قنيبى	
Term	P	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص
Phonation	P.12	تصويت	٢٧	عملية صوتية	٣٠	نطق	٢٣	تصويت	21
Audation	P.12	سماع	٢٧	عملية سمعية	٣٠	سمع	٢٣	سماع	21
Sound Wave	P.12	موجة صوتية	٢٧	موجة صوتية	٣٠	موجة صوتية		تموج صوتى	21
Psychological	P.11	سيكولوجى	٢٧	سايكولوجى	٣٠	نفسية	٢٣	سيكولوجية	20
Physiological	P.11	فسيولوجى	٢٧	فسلجى	٣٠	فيزيولوجية	٢٣	فسيولوجية	20
Physical	P.11	فيزيائى: مادى	٢٧	فيزياوى	٣٠	فيزيائية	٢٣	فيزيائية	20
Circuit	P.11	دائرة	٢٦	دائرة	٣٠	دائرة	٢٣	دائرة	20
Sign	P.67	علامة	٢٧	إشارة	٨٤	علامة	٨٧	دلالة	85
Signified	P.67	مدلول	٢٩	مدلول	٨٦	مدلول	٨٩	مدلول	87
Signifier	P.67	دال	٢٩	دال	٨٦	دال	٨٩	دال	87
Arbitrary	P.67	اعتباطية	٢٩	اعتباطية	٨٤	اعتباطية	٨٩	اعتباطية	87
Conventional	P.67	عرفية	٢٩	عرفية	٨٧	اتفاق	٩٠	مواضعة: اتفاق	88
Onomatopoea	P.67	محاكاة صوتية	٣٠	كلمات ترجى بمعناها	٨٨	محاكاة صوتية	٩١	حكاية الصوت	89
Syntagmatic	P.124	افقية: سياقية	٣١	سنتاكمية	١٤٣	تركيبية	١٥٠	محور المركب التركيبى	158
Associative	P.124	اقترانية	٣١	إيحائية	١٤٤	ترابطية	١٥٢	محور المركب ذى	159
								التداعى الترابطى	159
In Praesentia	P.123	حضور	٣١	حاضرة	١٤٣	حضور	١٥٠	حضور	157
In Absentia	P.123	غياب	٣٢	غائبة	١٤٣	غياب	١٥٠	غياب	157
Value	P.111	قيمة	٣٦	قيمة	١٣١	قيمة	١٣٧	قيمة	142
Signification	P.114	معنى	٣٧	دلالة	١٣٣	دلالة	١٣٩	معنى: دلالة	144
Differential	P.117	خلافى	٣٩	تفاضلى	١٣٦	تفريقى	١٤٢	تباين: تفاوت	149
Positive	P.117	إيجابى	٤٣	إيجابى	١٣٦	إيجابى	١٤٢	إيجابى	149
Negative	P.117	سلبى	٤٣	سلبى	١٣٦	سلبى	١٤٢	سلبى	149
Mass	P.113	كتلة غير متميزة	٣٩	كتلة غير متميزة	١٣١	كتلة لا شكل لها	١٣٧	كتلة عديمة الشكل	142

Baskin		البحث		عزيز		غازى والنصر		قنيبى	
Term	P	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص
Form	P.113	شكل	٤٠	شكل	١٣٢	شكل	١٣٨	صورة	144
Substance	P.113	مادة	٤٠	مادة	١٣٢	مادة	١٣٨	مادة	144
The axi of Simutaneity	P.80	محور الدراسة المتعاصرة	٤٤	محور التوافق	٩٨	محور المعية	١٠٢	محور الثانى ؟	103
The axi of Succession	P.80	محور الدراسة المتعاقبة	٤٤	محور التعاقب	٩٩	محور التعاقب	١٠٢	محور التعاقب المتتالى	103
Synchronic (Linguistics)	P.81	علم اللغة الوصفى	٤٦	علم اللغة (السنكرونى)	١٠٠	الالسنية التزمنية	١٠٣	علم اللسان التزامنى (السنكرونى)	105
Diachronic (Linguistics)	P.82	علم اللغة التاريخى	٤٦	علم اللغة (الدياكرونى)	١٠٠	الالسنة التزمنية	١٠٣	علم اللسان التوالى (الدياكرونى)	105
Successive (Terms)	P.87	عناصر متعاقبة	٥٠	عناصر متعاقبة زمنياً	١٠٥	عناصر متعاقبة	١٠٩	عناصر متعاقبة فى الزمان	112
Co-existing (Terms)	P.87	عناصر متصاحبة	٥٠	عناصر متزامنة	١٠٥	عبارات متزامنة	١٠٩	الفاظ متقارنة متراجدة فى الزمان	112
Literary	P.140	لغة أدبية	٥١	لغة أدبية	١٦٣	لغة أدبية	١٧١	لغة أدبية	178
Vulgar		لغة عامية (منطوقة)	٥١	لغة دارجة (طبيعية)	١٦٣	لغة عامية (طبيعية)	١٧١	لغة عامية (طبيعية)	178
Immutability	P.71	ثبات	٥١	ثبوت	٩٠	ثبات	٩٣	ثبات	92
Mutability	P.72	تغير	٥١	تغير	٩٠	تبدل	٩٣	تحول	92
Esperanto	P.76	لغة الإسبرنتو	٥٥	لغة الإسبرانتو	٩٤	لغة الإسبرانتو	٩٨	لغة الإسبرانتو	98
Convention	P.78	عرف	٥٤	عرف	٩٦	تقليد	٩٦	عرف	96
Community of Speakers	P.78	مجتمع المتكلمين	٥٦	مجتمع المتكلمين	٩٦	مجموعة ناطقة	١٠٠	جماعة متكلمة	100
Phonetics	P.140	علم الأصوات	٥٧	علم الصوت	١٦٣.٥١	صوتية	٤٩.١٧١	فونطيقا (علم الأصوات)	178

Baskin		البحث	عزيز	غازى والنصر	قنيبى
Term	P	المصطلح ص	المصطلح ص	المصطلح ص	المصطلح ص
Phonology	P.140	فونولوجيا ٥٧	نظام صوتى (فونولوجيا) ٥١	تصويتية ٤٩	فونولوجيا: علم وظائف الاصوات 178
Phoneme	P.140	فونيم: وحدة صوتية ٥٨	فونيم ٥١	صوتيم ٤٩	وحدة صوتية 49
Regular	P.143	مطرد ٥٨	قياسى ١٦٧	نسقى ١٧٦	مطرد 183
Absolute	P.144	مطلق ٥٨	مطلق ١٦٧	مطلق ١٧٦	مطلق 183
Conditioned	P.144	مشروط ٥٨	مشروط ١٦٧	شرطية ١٧٦	مشروط 184
Syllable	P.144	مقطع ٥٩	مقطع ١٦٨	مقطع ١٧٦	مقطع 183
Tonic Syllable	P.144	مقطع مشدد ٥٩	مقطع مشدد ١٦٨	مقطع يحمل نبرة العزم ١٧٦	مقطع حاد النبرة 183
Consonant	P.144	صامت ٦٠	صحيح ١٧١	صامت ١٨٠	صامت 184
Vowel	P.144	صائت ٦٠	حركة ١٦٧	صائت ١٧٦	صائت 183
Accentuation	P.144	نبر ٦٠	ركيزة ١٦٧	نبرية ١٧٦	نبرة إيقاع 183
Accent	P.145	نبر ٦٠	ركزة ١٦٩	نبرة ١٧٨	نبرة 85
Spontaneous	P.144	تلقائية ٥٩	تلقائية ١٦٨	عفوية ١٧٦	تلقائية حرة فى تغيرها 184
Combinatory	P.144	مترابطة ٥٩	مترابطة ١٦٨	نسقية ٧٦	مشروطة التغير فى التزاوج 184
Laryngeal	P.146	حنجرى ٦٠	حنجرى ١٦٩	حنجرى ١٧٨	من الحلق 186
Radical	P.152	جذر ٦٠	أصل ١٧٥	جذر ١٨٥	جذر 194
Suffix	P.152	زائدة: لاحقة ٦٠	لاحقة ١٧٥	لاحقة ١٨٥	زائدة 194
Phonational apparatus	P.146	جهاز صوتى ٦٢	جهاز صوتى ١٧٠	جهاز صوتى ١٨٠	جهاز صوتى 187
Articulatory habits	P.146	عادات نطقية ٦٢	عادة النطق ١٧٠	عادات نطقية ١٨٠	عادات نطقية 188
Law of Leas effort	148	قانون الاقتصاد فى الجهد ٦٣	قانون الاقتصاد فى الجهد ١٧٢	قانون الجهد الأقل ١٨٠	قانون المجهود الأدنى 189

Baskin		البحث		عزيز		غازي والنصر		قنيبي	
Term	P	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص	المصطلح	ص
Voicing	P.143	مجهور	٦٣	مجهور	١٧٢	مجهور	١٨٠	مجهور	189
Nonvoicing	P.148	مهموس	٦٣	مهموس	١٧٢	مهموس	١٨٠	مهموس	189
Linguistic substratum	P.150	طبقة لغة تحتية	٦٤	طبقة سفلى للغة	١٧٤	ركيزة لغوية سابقة	١٨٣	مادة لسانية سبق وشعها	192
Imitation	P.151	تقليد: محاكاة		محاكاة	١٧٤	تقليد	١٨٤	محاكاة: تقليد	192
Semiology	P.15	سيميولوجيا: علم العلامات	٦٥	علم الاشارات	٢٤	الاعراضية	٢٧	علم الدلالة	25
System of Writing	P.16	نظام الكتابة	٦٦	نظام الكتابة	٢٤	الكتابة	٢٧	الكتابة	25
Alfabet of deaf-mutes	P.16	ابجدية الصم والبكم	٦٦	الفباء الذي الصم والخرس	٢٤	ابجدية الصم والبكم	٢٧	ابجدية الصمابين بالصم والخرس	25
Symbolic rites	P.16	طقوس رمزية	٦٦	طقوس رمزية	٢٤	طقوس رمزية	٢٧	طقوس رمزية	25
Polit Formula	P.16	صيغ المجاملة	٦٦	صيغ مهذبة	٢٤	شروب المجاملة	٢٧	اشكال الأدب	25
Military Signals	P.16	إشارات عسكرية	٦٦	علامات عسكرية	٢٤	إشارات عسكرية	٢٧	إشارات الجنود	25
Sign-mechanism	P.17	آلية العلامة	٦٧	؟		آلية العلامة	٢٨	آلية الدلالة	26
Pantomime	P.68	تمثيل صامت	٦٨	تمثيل صامت	٨٧	إيمائية	٩٠	مسرح حركي	88
Collective behavior	P.68	سلوك جمعي	٧٠	سلوك جماعي	٨٧	عادة جماعية	٩٠	عادة جماعية	88
Normative	P.1	معياري	٩٤	معياري	١٩	معياري	١١	معياري	8
Philology	P.2	فقة اللغة فيلولوجيا	٩٤	فقة اللغة	١٩	فقة اللغة	١١	فقة اللغة	8
Comparative philology	P.1	فقة اللغة المقارن	٩٤	فقة اللغة المقارن	١٩	نحو مقارن	١٣	فقة اللغة المقارن	9
Indo-european Language	P.3	لغة هندية – اوربية	١٠١	لغة هندية – اوربية	٢١	لغة هندية – اوربية	١٤	هندية اوربية	11
Proto-indo-european Language	P.3	لغة هندية اوربية – اولى	١٠١	لغة هندية اوربية – اولى	٢١	لغة هندية اوربية – اولى	١٤	لغة هندية اوربية اولى	11

مشكلات فى المصطلح اللغوى

«مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى ، فهى مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه ، وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقيق الأقوال » (٥٩)

لامندوحة إذن من استخدام المصطلحات فهى لغة العلم، وإذا كان الناس فى حياتهم العامة يستخدمون مفردات اللغة يشيرون بها إلى أشياء أو أحداث أو معان تجريدية، فالعلماء- أيا كان مجال عملهم يستخدمون مصطلحات خاصة تتميز عن تلك المفردات بأنها تدل على أقسام أو أصناف كما يفعل علماء النبات مثلاً حين ينسبون نباتاً محدداً إلى عالمه أو شعبته أو طائفته أو رتبته أو فصيلته .. الخ أو كما يفعل النحاة حين يقسمون الكلام إلى اسم وفعل وحرف أو غير ذلك من الأقسام.

وليست هذه الأقسام التى يفترضها الباحثون أو المصطلحات التى تعبر عنها منفصلة عن الواقع الذى يعالجونه، بل إنها مفترضة أصلاً للتعامل مع الواقع، أى لكى نفهم الواقع فهما حسناً، ولكى نوصل معارفنا عنه إلى الآخرين.

وقد يكون لبعض العلوم رموز خاصة بها مثل الرياضيات أو الكيمياء، ولكن هذا لايعنى أنها تستغنى دائماً برموزها عن اللغة، وقد تكون مشكلة المصطلح فى هذه العلوم من هين مشكلاتها، بيد أنها هى مشكل المشكلات عند اللغويين، فاللغوى مضطر إلى أن يستخدم اللغة ليصف اللغة، ومبتكر المصطلح أو مصنفه فى موقف أعقد، إنه كما يقول أحدهم : «مضطر إلى أن يستخدم اللغة ليصف اللغة المستخدمة فى وصف اللغة» (٦٠)

نقول هذا حتى يستشعر القارىء الكريم المشكلة التى نحن بصددها ويستصحب روح التسامح إذا مابدا له المتعرضون لها وقد قصروا فى عرضها أو فى حلها.

- ١ -

والعلوم اللغوية من أقدم العلوم التى ابتدعها الإنسان، إنها ترجع - على أضعف تقدير- إلى النحاة الهنود القدماء من أمثال (بانيني ٦٠٠ ق م) واليونان من أمثال (أرسطو ٣٢٣ ق م) ومن ثم فلها تقاليد راسخة ينبغى أن يبقى شيء منها ، وعلى أية حال ثمة مصطلحات تقليدية مازالت جارية فى الاستعمال حتى الآن.

والمصطلح فى البحث اللغوى عند العرب قد استوى أمره حين ظهر كتاب سيبويه متضمناً أول منظومة متكاملة من المصطلحات، وقد جرى كثير منها فى استعمال النحاة حتى اليوم، وأصاب القليل منها بعض تغيير فى شكله أو مضمونه.

ولعلماء اللغة الغربيين مواقف متعددة من هذا التراث المصطلحى القديم، وبعضهم يتجاوزه ويبتدع مصطلحات جديدة تحمل رؤية علمية جديدة، ولكن بعضهم يرى رأياً آخر، يقول أحد كبارهم: «من اللغويين من يقول: بما أن المصطلحات القديمة قد أعيد تعريفها كأسماء لأقسام جديدة فمن المعقول أن نصوغ لمفاهيمها مصطلحات جديدة، ولكن هذا الرأى لايشاركهم فيه معظم اللغويين فى بريطانيا، ونحن هنا لانتبنى هذا الرأى ، نحن نفضل استخدام مصطلح مثل Noun - حتى وإن كان القسم الذى يسميه معرفاً بطريقة مختلفة جداً عن الطريقة التى عرف بها فى العصور القديمة - على تصنيف مجرد مثل Class 2 Word أو على كلمة جديدة مثل Nominoid å(٦١)

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن علم اللغة فى الغرب قد اجتاز مرحلة التعريف به أو الدعوة إليه، وأصبح له مكان معروف بين العلوم الإنسانية، وفى ذلك يقول (هارتمان وستورك) : إن علم اللغة فى الغرب لم يعد موضع إنكار، فالبحوث اللغوية اليوم نظرية أو تطبيقية يعترف بها كبحوث أكاديمية لها أهميتها فى ذاتها، وليس ثمة مهتم باللغة - ابتداء من القارىء العادى إلى المدرس إلى مهندس الاتصالات - يمكنه أن يتجاهلها » (٦٢)

فإذا ماوجهنا أنظارنا إلى العالم العربى وجدنا أمرين :

١ - أن علم اللغة لم يصل بعد - لاسيما فى الجانب التطبيقى - إلى تلك المرحلة التى أشار إليها (هارتمان) و(ستورك) وأنه لم يثمر بعد بحوثاً تطبيقية ينتفع بها القارىء العادى أو المعلم أو مهندس الاتصالات أو غيرهم، وأنه مازال فى دور التعريف به أو الدعوة إليه، أو بناء هيكله النظرى على أفضل تقدير.

٢ - أن علماء اللغة من العرب قد شغلوا أو استدرجوا إلى تلك المعركة الدائرة أبداً بين المحافظين على التراث والمجددين، مما جعلهم فى أغلب الأحوال مطالبين بإيجاد مسوغات لعلمهم. وفى هذا الإطار نضع مشكلة المصطلحات اللغوية.

إن كثيراً من النحاة التقليديين ينظر إلى علم اللغة نظرة ملؤها الشك فى نوايا الباحثين فيه حينا، وفى جدوى بحوثهم أحياناً، وفى إطار هذه النظرة يدور جدل لاينقطع يلقى ظلالاً من التشكيك فى هذه البحوث لاسيما البحوث الصوتية واللهجية، وظلالاً أخرى من الخوف من التعريف بالمناهج الحديثة وما تحمله من أفكار جديدة تخالف المأثور المعرفى والمصطلحى للنحو العربى التقليدى ، بل يصل الأمر إلى حد السخرية من هذه البدع الغريبة والتندر بمصطلحاتها، وهذا كله لايهيىء مناخاً ملائماً للتعريف بالبحث اللغوى الحديث بله الاستفادة منه واستخدامه فى التعرف على العربية بطريقة أفضل والتمكن من خصائصها وأسرارها والإسهام فى حل مشكلاتها.

وعلم اللغة يتناول قضايا أو موضوعات على جانب كبير من التعقيد والتنوع، إنه يختص - كما هو معروف - بالدراسة العلمية للغة فى شكلها المنطوق والمكتوب فيعالج جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية بل الأسلوبية أحياناً، وهو قد يعالج هذه الجوانب فى مجتمع لغوى محدد فى مرحلة زمنية محددة، وقد يتجاوز الحدود الجغرافية والزمانية فيشمل البحوث التاريخية والمقارنة.

واللغة لها علاقة بالإنسان الذى يستخدمها وبالمجتمع الذى يعيش فيه، ومن ثم ارتبط علم اللغة بعدد من العلوم التى تتصل بالإنسان أو بالمجتمع يفيدها ويستفيد منها.

وعلم اللغة - بالاضافة إلى الجانب النظرى - له جانب تطبيقى يتصل بتعليم اللغة القومية أو الأجنبية ، وبعلوم الاتصال، وبعلاج أمراض الكلام .. الخ .

وتنعكس آثار هذا التعقيد والتنوع فى المصطلحات التى تشير إلى المفاهيم الرئيسية فى هذه المجالات. هذا والمدارس اللغوية المتعددة لكل منها فى الغالب مصطلحاتها التى تعكس مفاهيمها الخاصة النابعة عن نظريتها اللغوية، بل نجد فى إطار المدرسة الواحدة تنوعاً فى المصطلحات وفقاً للاجتهادات الخاصة بكل باحث.

وعلم اللغة فى العالم العربى لم يبلغ عمره نصف قرن بعد، ولايغض من شأن اللغويين العرب، ولايشكك من جدوى بحوثهم أن يقال إنه علم انتقل إلينا من الغرب وما زال حتى اليوم تابعاً لعلم اللغة فى الغرب فى الجانب المعرفى والمنهجى على سواء .

وبما أن علم اللغة عند العرب لم يتخلص بعد من هذه التبعية، وأنه لم يتجاوز مرحلة التعريف أو الدعوة ، فإن مهمته ثقيلة الوطأة عظيمة التعقيد .

وأنا استشعر هنا - وبكل تقدير - دور الرواد الأوائل الذين عرفوا به ووضعوا مصطلحاته، وأتمثل الآن المصاعب التى واجهوها حين قدموا إلينا معارف عن لغات تختلف فى بنيتها عن العربية وفى إطار ثقافى وتاريخى يختلف عن إطارها، وحين حاولوا أن يضعوا مصطلحات عربية بإزاء ما عرفوا من مصطلحات هذه اللغات، لقد كان عليهم أن يواجهوا المشكلات المعروفة التى تتصل بعلم اللغة الذى نقلوه عن الغرب (تنوع مجالاته وتعدد مستويات البحث فيه، واختلاف مدارسه أو اتجاهاته) وأن يواجهوا المشكلات الخاصة بالبحث فى لغتهم ومصطلحاتها. وإن كان هذا لا يعفيهم من مسئوليتهم فى الاضطراب الذى يسود مجال المصطلح اللغوى اليوم.

- ٢ -

والحق أن اللغويين المحدثين مسئولون عن كثير من الاضطراب أو الفوضى التى تنتشر فى حقل المصطلحات اللغوية، فاللغوى إذا ألف أو ترجم وضع نفسه - بوعى أو بغير وعى - موضع الرائد دون أن يلقى بالا إلى الذين سبقوا فى هذا المجال، وارتادوا تلك الأرض ، وإن فعل - ونادرا مايفعل - ترك ماأجتمعوا عليه، ورفض ما اشتركوا فيه، واشترع لنفسه طريقاً خاصة، ومن ثم يبدأ من النقطة التى منها بدأوا ويمضى فى الطريق الذين إليه سبقوا، وهذا أسلوب خاطىء يتنكب الجادة ويعطل التقدم. وأولى من ذلك وأجدى أن نبنى على مابنوا، وأن نبدأ من حيث انتهوا، ولن يمنعنا هذا - ولاينبغى - من أن نصحح مافيه أخطأوا وأن نستكمل ماعنه قصروا، وأوضح مثل على ذلك أن أول إشارة بالعربية إلى ثنائية (سوسير) اللغة والكلام وردت فى كتاب (علم اللغة ١٩٤١) للدكتور على عبد الواحد وافى ، وقد استخدم فيه المصطلحين السابقين للمفهوم الذى حدده (سوسير) لـ Parole , Langue .

وتناقل الباحثون من بعده هذين المصطلحين ، وغلب استعماله فى بحوثهم إلى اليوم .*

وكان ينبغى - وقد استقر الباحثون على استخدامهما - ألا يحدث اللغويون الخالفون حدثاً يزعزع هذا الاستقرار ، ويثير الاضطراب بين الباحثين والقارئين .

---

* جرى على هذا أيوب (١٩٥٤) وحسان (١٩٥٤) والسعران (١٩٦٢) وبشر (١٩٦٤) وإن حرص حسان والسعران وبشر على وصف اللغة بأنها معينة . أما إذا اتصل الأمر بالمصطلح الثالث Language فهم يستخدمون مصطلح (اللغة) أيضاً موصوفة بالمعنى المطلق أو الأعم أو الأوسع . ثم توالى الباحثون متفقين على هذين المصطلحين نكتفى بالإشارة إلى بعضهم : حجازى (١٩٧٢) الراجحى (١٩٧٢) شاهين (١٩٧٧) زكريا (١٩٨٠) عبد التواب (١٩٨٢) وعبد العزيز (١٩٨٢) .

وبعض اللغويين فضل استخدام مصطلح (لسان) بديلاً عن تلك العبارات الاصطلاحية : اللغة بالمعنى الأعم ، أو المطلق أو الأوسع ، كما فعلت فى البحث وكما فعل عزيز وغازى فى ترجمتها لمحاضرات (سوسير) .

وقد استعمل بعض الباحثين مصطلح (لسان) للتعبير عن Langue وكلام لـ Parole ولغة لـ Language مثل أيوب (١٩٦٣) وشاهين (١٩٦٤) وقد اتبعهما فى ذلك بعض اللغوين .

- ٣ -

سوف نلاحظ من القائمة أن قنيبى قد اختار مصطلح (اللسان) فى موضع مصطلح (اللغة) ومن ثم كان عنوان ترجمته «محاضرات فى علم اللسان العام» وعلى هذا جرى بعضهم كالمسدى فى (قاموس اللسانيات ١٩٨٤). وكنا نتوقع من غازى والنصر - وقد استعملا اللغة والكلام بالمفهوم السوسيرى بل واستعملا كذلك مصطلح (لسان) بإزاء Languageأن يطلقا على العلم الذى يدرس اللغة (علم اللغة) لا (الألسنية) كما فعلا ، لأن اللغة Langue بالمفهوم السوسيرى لا الكلام Parole ولا اللسان Language هى موضوع البحث لعلم اللغة Linguistics . انظر (ص ٢٠).

وربما كان ما فعله قنيبى هيناً - وإن لم يكن له ما يسوغه - فبالمقابلة قد يتضح المقصود للقارىء الحصيف، ولكن أن يجىء الطيب البكوش وفى عام ١٩٨١ بعد أربعين عاماً من الاصطلاح فيستخدم مصطلح (كلام) ليعبر عن مفهوم Langue ويستخدم مصطلح (حديث) ليعبر عن مفهوم Parale فهذا حدث عظيم يأتى بنيان المصطلح اللغوى من قواعده، ويثير اللبس فى أصوله المتعارف عليها، كيف أفهم ما يقوله إذا كان يعنى بمصطلح (كلام) نقيض ما يدل عليه فى التراث اللغوى المعاصر ؟

ولست أريد أن أتخذ طريق الاتهام وإثارة النزعات الإقليمية أو الشخصية، ولكنى أقول إن استقرار المواضعة أمر افترضته طبيعة اللغة، لأن التفاهم قائم على أساس ثبات العلاقة بين الدال والمدلول إلا لحاجة ، وهذا أمر يعرفه الشادون فى البحث اللغوى بله المتمكنين فيه والداعين إليه، وهؤلاء أولى باللجوء إليه والتمسك به لاسيما والاصطلاح المستقر لاعيب فيه من حيث بنيته ولامن حيث صلاحيته للتعبير عن المفهوم المراد اللهم إلا إذا كان أمر هذا الاستقرار مشكوكاً فيه، وهذا ما يدحضه الاستقرار الذى أشرنا إليه فى هامش (ص ١٦٣).

- ٤ -

ومما هو من قبيل التلبيس على القارىء أن يستخدم غازى والنصر للمقابلة بين المصطلحين: * Synchronic, Diachronic مصطلحين عربيين هما: تزامنى للأولى وتزمنى للثانى. واستعمال (تزامن) للدلالة على المشاركة فى الفعل وهو هنا (زمن) أمر لا تأباه العربية، بيد أن استعمال (تزمن) للدلالة على Diachronic والتعاقب الزمنى مرعى فيه مما لايساعد عليه منطق العربية فى معانى الصيغ إلا بتمحل.

أتكون (تزمن) من (تزمَّنَ) بمعنى تجنب مرور الزمن (أى بالمعنى السالف للتزامن) كما يقال : تحرج إذا تجنب الحرج ؟؟

أتكون بمعنى الصيرورة فيقال : تزمنت اللغة بمعنى صارت ذات زمن (والمقصود هنا الزمن المتعدد) كما يقال : تمرأ الرجل أى صار ذا مروءة ؟؟

انظروا معى كيف يكون التمحل !!

---

* هذه صورة لما كشف عنه استقراؤنا لما وقع تحت أيدينا من مؤلفات ومترجمات وقوائم ومعاجم .

المصطلح الأول : Diachronic

دياكرونى : نظرة تاريخية تأخذ فى اعتبارها التطور والتحول على مر العصور (حسان ١٩٥٤) تاريخى (فريحة ١٩٥٨) حركى (السعران ١٩٦٢) تاريخى (أيوب ١٩٦١) متعاقبه أيوب (١٩٦٣) دياكرونى : تاريخى (بشر ١٩٦٤) تاريخى (الراجحى ١٩٧٢) تاريخى (مختار ١٩٧٣) تاريخى (شانى ١٩٧٧) تاريخى : (زكريا ١٩٨٠) زمانى (البكوش١٩٨١) تاريخى : الخولى (١٩٨٢) تاريخى (عبد العزيز ١٩٨٣) تاريخى (باكلا ١٩٨٣) وعلى هذا جرى كثير من الباحثين .

المصطلح الثانى : Synchronic

سنكرونى : نظرة لا تأخذ فى اعتبارها التطور والتحول (حسان ١٩٥٤) سكونى ، ساكن ، استقرارى ، مستقر (السعران ١٩٥٨) وصفى (فريحة ١٩٥٨) معاصر (أيوب ١٩٨١) دراسة اللغة حال استقرارها (السعران ١٩٦٢) متعاصر (أيوب ١٩٦٣) سنكرونى وصفى (بشر ١٩٦٤) وصفى (الراجحى ١٩٧٢) وصفى (مختار ١٩٧٣) وصفى (غالى ١٩٧٦) وصفى (شانى ١٩٧٧) وصفى (زكريا ١٩٨٠) آنى (البكوش ١٩٨١) وصفى (الخولى ١٩٨٢) وصفى (عبد العزيز ١٩٨٣) وصفى (باكلا ١٩٨٣) .. وعلى هذا جرى كثير من الباحثين .

قد يقال إن المترجمين قد أرادا أن يقابلا صيغة تفاعل من (زمن) بالسابقة Dia وهى بمعنى (خلال) وصيغة تفعُّل بالسابقة Syn وهى بمعنى (مع) . ولكن أيصح هذا - إن كان لهما الحق فيه وقد استقر الاستعمال أو كاد على استخدام تاريخى للمصطلح الأول ووصفى للمصطلح الثانى ؟

أضف إلى هذا أن القارىء إن اتضح له هذا المعنى الصرفى الدقيق واستصحبه فى كل حين عند قراءته ، فسوف يتردد بين الصيغتين المتقابلتين، لأن تفاعل وتفعل قد تحل إحداهما محل الأخرى فى فصيح العربية .

وأصدقك الحديث أننى عند مطالعتى الكتاب كنت أضل فى فهم هذه المقابلة الشائكة بين التزامن والتزمن، وكنت أحار فى التفريق بينهما، فكنت أضع إحداهما محل الأخرى فلماذا هذا؟ ولماذا نتجنب الشائع المأنوس إلى الغريب النافر ؟

- ٥ -

وقد آثرت استعمال المصطلح (علاقة أفقية أو سياقية * لـ Syntagmatic Relation وعلاقة اقترانية لـ Associtive Relation وهى التى تعرف بالعلاقة الرأسية أو الجدولية Paradigmatic Relation. وقد راعينا فى ذلك التناسق الذى يتحقق بالمقابلة الواضحة بين : أفقى ورأسى، وسياقى وجدولى .

---

* هذه صورة من استقرائنا لاستعمال :

المصطلح الأول : Syntagmatic

سنتاجمى : سياقى (حسان ١٩٥٤) ركنى : أفقى (زكريا ١٩٨٠) تراكيبى (البكوش ١٩٨١) ، أفقى : تتابعى (الخولى ١٩٨٢) سنتاكمى : أفقى (باكلا ١٩٨٣) نسقى (المسدى ١٩٨٤) أفقى : تتابعى (علية عياد ١٩٨٤) سياقى : نظمى (سيزا قاسم ١٩٨٦) .

المصطلح الثانى : Paradigmatic

براديجمى : جدولى (حسان ١٩٥٤) استبدالى : رأسى (زكريا ١٩٨٠) جريدى (البكوش ١٩٨١) صرفى (الخولى ١٩٨٢) تصريفى (باكلا ١٩٨٣) صرفى (علية عياد ١٩٨٤) جدولى (المسدى ١٩٨٤) استبدالى (سيزا قاسم ١٩٨٦) .

وليس مقبولاً من ثم استعمال قنيبى للعبارة الطويلة : (علاقة محور المركب الترتيبى) للمصطلح الأول ، وعلاقات (محور الاستبدال ذى التداعى الترابطى) لمخالفته للمستعمل ولطول العبارة مما يحول دون استعمالها استعمالاً ميسراً بحيث توصف وتضاف وينسب إليها .. الخ .

ومن هذا المنطلق لا نوافق قنيبى على استعماله للعبارة : ألفاظ متعاقبة فى الزمان لـ Successive (Terms) وقد استعملنا بإزائها عناصر متعاقبة، وكذا استعماله للعبارة ألفاظ متقاربة متواجدة فى الزمان لـ Co-existing (Terms) وقد استعملنا بإزائها عناصر متصاحبة .

- ٦ -

ومن الشروط المنهجية التى ينبغى مراعاتها عند اقتراح مصطلحات جديدة أو إعادة تعريف مصطلحات قديمة أن يتم ذلك - إذا ما وجدت فائدة محققة - بدرجة عالية من الحذر، لأن قوائم المصطلحات الخاصة بمجال دلالى محدد ما هى إلا بناء متماسك يتحطم هيكله حين نضيف إليه أو نحذف منه أو نغير فيه، وأوضح مثال لذلك مصطلحات (سوسير) نفسها؛ لأنها قائمة فى الغالب على التقابل بين مفهومين، وهو ما يعرف بالثنائية؛ اللغة والكلام، الدال والمدلول، المعنى والقيمة، العلاقة الأفقية والرأسية .. الخ.

وانطلاقاً من هذا المبدأ فقد رجحت استخدام مصطلح (علامة) لـ Sign ومصطلح (رمز) لـ Symbol ومصطلح (إيماءة) لـ Gesture ومصطلح (إشارة) لـ Signal ، بحيث يراعى فى المصطلحات العربية ما يراعى فى المصطلحات الأجنبية من علاقات .

ومن هنا آثرت مصطلح (علم العلامات) لـ Semiology وذلك لأن موضوعه - كما يفهم من (سوسير) هو العلامات Signs ، ومصطلح علامة Sign يعنى كل ما يمثل شيئاً آخر فيستدعيه وينوب عنه ، وهو بهذا المعنى يشمل كل العلامات طبيعية أو عرفية .

ومن ثم نعترض على ما فعله قنيبى حين استعمل دلالة لـ Sign وعلم الدلالة لـ Semi-ology مع استقرار الاستعمال على استخدام هذا المصطلح لـ Semanitics.* والمقابلة بين المصطلحين علم العلامات وعلم الدلالة مراعى فيها أن الأول أعم والثانى أخص، ولهذا السبب سوف يضطرب فهم القارىء الذى ألف هذه المقابلة اضطراباً شديداً حين يقرأ ترجمة قنيبى .

- ٧ -

وربما يحمد للمترجمين غازى والنصر محاولتهما تطبيق مبدأ النظامية ومراعاتهما المقابلة بين المصطلحات شكلاً ومضموناً، وتجنبها اللجوء إلى استعمال الدخيل من نحو : (فونتيك) و(فونولوچى) باستعمال (صوتية) للأول و(تصويتية) للثانى. وقد جرى بعض الباحثين على استعمال المصطلح الأول جمعاً (صوتيات) وبعضهم يستعمل العبارة الاصطلاحية (علم الصوت) أو (علم الأصوات) .

ولكن التوفيق أخطأها فى استعمال تصويتية للمصطلح الثانى Phonology لما يأتى:

١ ـ أن الاستعمال الشائع فى العربية تردد بين المصطلح الدخيل (فونولوچى) والعبارة الاصطلاحية (علم وظائف الأصوات) وفى استعمال المصطلح الدخيل دقة ، لأن الدال هنا سوف يتلبس بمدلوله دون غموض، وفى استعمال العبارة الاصطلاحية دقة أيضاً لأنها تشير بوضوح

* وهذه صورة لاستقرائنا مصطلح Semantics فى آثار الدارسين .

علم الدلالة (وافى ١٩٤١) علم الدلالة (حسان ١٩٥٤) دلالة الألفاظ (أنيس ١٩٥٨) علم الدلالة (السعران ١٩٥٨) علم المعنى (بشر ١٩٦١) علم الدلالة (مختار ١٩٧٣) علم الدلالات (زكريا ١٩٨٠) الدلالية (علم الدلالة) (البكوش ١٩٨١) . علم الدلالة (علم المعانى) (الخولى ١٩٨٢) علم الدلالة (باكلا ١٩٨٣) علم الدلالة (علية عياد ١٩٨٤) . الدلالية (المسدى ١٩٨٤) دلالة (التهامى ١٩٨٥) علم الدلالة (الحمزاوى ١٩٨٧) .

وهذه صورة لاستقرائنا مصطلح Semiology .

علم العلامات (السعران ١٩٥٨) علم العلامات (شانى ١٩٧٧) علم الإشارات (زكريا ١٩٨٠) دلائلية (علم الدلائل) (البكوش ١٩٨١) علم الرموز (مختار ١٩٨٢) علم الرموز (الخولى ١٩٨٢) علم الرموز (باكلا ١٩٨٣) علم الدلالة (علية عياد ١٩٨٤) . علامية (المسدى ١٩٨٤) دلائلية (التهامى ١٩٨٥) سيميولوچيا (سيزا قاسم ١٩٨٦) .

إلى وظيفة هذا العلم، ولكنها عبارة من ثلاث كلمات، ولايمكن فى هذه الحال إضافتها أو الإضافة إليها أو وصفها أو النسب إليها، ولهذا يؤثر المصطلحون استعمال الكلمة الواحدة .

٢ ـ أن المقابلة فى المعنى بين (صوتية) و(تصويتية) لا تسمح بالتعبير عن مضمون المقابلة بين المصطلحين الأجنبيين إلا على سبيل التوليد ، بيد أن المشكل فى هذا هو مخالفته الاستعمال الشائع دون مسوغ ، وغموض المعنى نتيجة المقابلة بين كلمتين جذرهما واحد (صوت) وصيغتهما واحدة (مصدر صناعى) وإن كان المصدر الصناعى الأول من (صوت) وهى اسم مصدر ، والمصدر الصناعى الثانى من (تصويت) وهى مصدر صريح ، وهذا الفرق لا يشير على أية حال إلى الفرق الدلالى بين مفهوم العلمين .

٣ ـ أن استخدام (تصويت) يلتبس بما شاع عند الباحثين من استعمالها بإزاء Phona-tion بمعنى عملية إنتاج الأصوات بغض النظر عن اللغة المعينة، وهى عملية ترتبط أساساً بعلم الأصوات Phonetics .

ـ ٨ ـ

وربما يكون العدول عن مصطلح شائع إلى مصطلح جديد مفهوماً مقبولاً، إذا كان المصطلح القديم معيباً فى بنيته أو مشكلاً فى استعماله أو مؤدياً إلى لبس أو غموض، أو كان المصطلح الجديد أصح بنية وأيسر استعمالاً وأوضح مدلولاً، نقول هذا مع وثوقنا بمبدأ الاستعمال واطمئناناً إلى الاستقرار فى الاصطلاح. فما الذى يدعونا مثلاً إلى استعمال (الأعراضية) ليشير بها غازى والنصر إلى Semiology ، وقد كاد الباحثون يستقرون على استعمال (علم العلامات) ؟ وماذا فى هذا المصطلح المستقر نسبياً من عيب؟ وماذا فى المصطلح المذكور من فضل يعدل الخروج على الاستعمال المستقر، وإن كان نسبياً .؟

وقريب من هذا استعمال غازى والنصر مصطلح (النحاة المولدون) لـ Newgrammar-ian مع استقرار الباحثين على (النحاة الجدد أو المحدثون) مع ما فى استعمال (المولدون) من ظلال دلالية فى الثقافة العربية.

- ٩ -

ولسنا نريد أن نتخذ ثياب الناصحين فننبه إلى ما ينبغى أن يتوفر فى المصطلح من شروط تتصل بصيغته، لأن هذا من الأمور التى لا تحتاج إلى تنبيه، لأن المصطلح الذى يراعى فيه مطابقته للصيغ المعروفة فى العربية أيسر فى الاستعمال وأدنى إلى الفهم، لأن المصطلح - على أية حال - سوف يكون خيطاً فى نسيج اللغة، لأجل هذا نخالف ما ارتآه غازى والنصر حين استخدما مصطلح (صوتم) لـ Phoneme وجمعه على صواتم والنسبة إليه على (صوتمى) فالعربية لاتعرف هذه الصيغة، وقد اتبعا فى هذا القرمادى فى ترجمته لكتاب (كانتينو) (دروس فى علم الأصوات ١٩٦٦) وإن كان القرمادى مسبوقاً بما فعله أيوب حين استخدم فى (اللغة والتطور ١٩٦٣) صوتيم لـ Phoneme وصرفيم لـ Morpheme .. الخ .

وقد توسع اللغويون المغاربة فى صياغة المصطلحات اللغوية على هذا النحو فاستخدم المسدى فى (قاموس اللسانيات ١٩٨٤) منظم لـ Syntagme ولفظم لـ Monéme وصيغم لـ Morpheme ومنحم لـ Grammeme .. إلى آخره ، وجرى على هذا المسلك البكوش فى ترجمته لكتاب (مونان) مفاتيح الألسنية ١٩٨١ وقال فى تفضيله :

لأنه يجنبنا اقتباس مجموعة كاملة من الألفاظ الدخيلة .. ويمكننا مَن إثراء العربية بمجموعة من الألفاظ » (٦٣)

ومع ذلك فإنه لم يغب عنا أن أيوب والمسدى ومن سلك مسلكهما فى صياغة هذه المصطلحات على هذا النحو قد وضعوا فى اعتبارهم مبدأ النظامية فأرادوا أن تقابل قائمة المصطلحات الأجنبية المتقاربة شكلاً ومضموناً بقائمة من المصطلحات العربية متقاربة شكلاً ومضموناً (يكون التقابل على النحو الآتى بين صوت و Phon وم أو يم و Eme ، وهكذا الحال فى بقية المصطلحات الأخرى) . بيد أن الذى يعكر على هذا العمل صفوه أنه يجىء مخالفاً الاستعمال الشائع ، ولو جاء أولاً لساغ .

والباحثون بين هذين الموقفين فى حيرة أيراعون الاستعمال الشائع المستقر على مافيه من تنوع مصطلحى للمفاهيم المتقاربة أو من طول فى العبارة أم يتجنبونه ويستعملون المصطلحات المطروحة حديثاً لما فيها من دقة وتجريدية ونظامية ، وأنا لا أخفى ميلى إلى الشائع المستقر وتفضيلى إياه على الغريب الوافد لاسيما والخيار ليس بين صواب وخطأ .

- ١٠ -

نجىء الآن إلى قضية أقل تعقيداً وأهون خطراً إذا ما نظر إليها فى إطار المصطلحات المذكورة فى القائمة والمستشهد بها فى البحث، هى أن القائمة تكشف عن اتفاق المترجمين على استعمال بعض المصطلحات مثل : مجهور ومهموس ومقطع ولهجة ونظام ودال ومدلول وقيمة .. الخ لكنها تكشف أيضاً عن اختلافهم فى أغلب المصطلحات، وهو اختلاف ربما لايعوق التفاهم إذا ماكان فى إطار السياق مثل : بنية وكيان، ومفهوم وفكرة وتصور، وعرفية ومواضعة واتفاق، وخلافى وتفريقى وتفاضلى ، وصورة وشكل ، وعرف وتقليد، وصامت وصحيح، وصائت وحركة ، وجذر وأصل .. الخ .

ولست فى مقام القول المفصل فيما تحت يدى من تلك المصطلحات التى قابلت بينها فى المراجع المتداولة لأننى اختصصت هذا الموضوع بدراسة مفصلة أقوم بإعدادها هذه الأيام، ولكن يكفى أن أشير إلى أن القدر المشترك بينها أقل بكثير من القدر المختلف عليه، وقد ألمنا بعض إلمام بما يمكن أن ينتج عن ذلك من اضطراب ولبس فى ثنايا هذا الحديث عن مشكلات المصطلح.

وقد فطن الحمزاوى إلى أن بعض هذه الاختلافات ناتج عن تنوع السياقات التى تستخدم فيها المصطلحات الأصلية، وعليه فإن معانى المصطلحات الجديدة تتكيف بحسب توزيعها، وأوضح مثل لذلك مصطلح Synchronic ، إذ يجىء فى سياقات متعددة، كل سياق

منها يناسب الكلمات الآتية : ثابت ـ حال الثبات ـ مستقر ـ أفقى ـ متزامن ـ آنى. ومن ثم كان اختيار اللغويين للمصطلح الذى يوافق السياق المدروس ، ولهذا تعددت المصطلحات المختارة وفقاً لهذه السياقات .(٦٤)

وقريب من هذا أيضاً استعمال Syntagmatic فإنها تجىء فى سياقات مختلفة يصلح أن يقال بإزائها (أفقى وتركيبى وسياقى) واستعمال Paradigmatic فإنها تجىء فى سياقات مختلفة يصلح لها فى العربية أن يقال بإزائها (رأسى وجدولى وتصريفى) .

وكان ينبغى قبل اختيار المصطلح أن تجمع السياقات المختلفة التى يرد فيها ثم يستخلص منها المعنى المشترك الذى يجمعها ثم يختار له من العربية ما يناسبه للوفاء بهذا المعنى المشترك وبظلاله كذلك، وهذا أولى طريق وأدناه إلى الصواب .

ولعل هذه المشكلة مشكلة الترادف فى المصطلحات وأمثالها مما عرضنا له فى هذا البحث أن تدفعنا إلى الطريق الصحيح الذى لاطريق غيره وهو الاتفاق على منظومة المصطلحات اللغوية أو على أغلبها بحيث يتمكن القارىء العربى فى كل مكان ـ ما دمنا حريصين على خطابه ـ من مقاربة البحث فى علم اللغة مقاربة ملائمة. إن الحاجة ماسة إلى تنظيم المؤتمرات أو اللقاءات التى توفر مناخاً علمياً مناسباً لتبادل الأفكار. ولعل إنشاء (جمعية لغوية) تضم اللغويين العرب أقرب سبيل إلى ذلك ، فتعمل على التقريب بين الباحثين فى استعمال المصطلحات وتضع منهجية للاصطلاح وتحدد المعايير التى ينبغى مراعاتها حين تتعدد الاعتبارات ، ومن ثم توضع أولوية لاعتبار منها دون آخر ، بل تعمل أيضاً على وضع القوائم اللغوية أو المعاجم وتوجب الرجوع إليها والالتزام بها .

لعل هذا أو شيئاً منه يتحقق فى قابل الأيام، وإن لم يكن فسوف تتفاقم الفوضى ويعم خطرها، وليس هذا من صالح هذا العلم الناشىء الواعد .

هوامش القسم الثالث

(١) Culler, Saussure. P 114

(٢) Culler, Saussure. P 116-117

(٣) Ivic', Trends in Linguistics. P 122

(٤) Crystal, Linguistics. P 144

(٥) Sampson, Schools of Linguistics. P.P 48-49

(٦) Bolinger, Aspects of Language. P.P 509-510

(٧) Ivic', Trends in Linguistics. P 116

(٨) Crystal, Linguistics. P.P 143-144

Sampson, Schools of Linguistics. P.P 57-58

(٩) Sampson, Schools of Linguistics. P.P 48-48

(١٠) Ivic', Trends in Linguistics. P.P 115-130

(١١) انظر: برنامج هذه المدرسة في Ivic', Trends in Linguistics. P.P 141-142

(١٢) Ivic', Trends in Linguistics. P.P 116

(١٣) Ivic', Trends in Linguistics. P.P 116-117

وانظر في تأثير (سوسير) في (هيلمسلف خاصة)

Dinneen, An Introduction to general Linguistics. P.P 326-329

(١٤) Crystal, Linguistics. P 145

(١٥) Sampson, Schools of Linguistics. P 50

(١٦) Chomsky, Current Issues in Linguistics Theory. P 23

(١٧) Chomsky, Current Issues in Linguistics Theory. P 23-24

(١٨) ، (١٩) ، (٢٠) Culler, Saussure. P.P 79-80

(٢١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٨ ، ١٩

(٢٢) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٨ ، ١٩

(٢٣) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٨ ، ١٩

Culler, Saussure. P.P 82-83

(٢٤)

Dinneen, An Introduction to general Linguistics. P.P 343-344

وقد اضطررت الى تعريب (إسكيما schima) لأن أفضل كلمة لترجمتها هى (لغة) بيد أن البحث سيضطرب مع استخدامها.

(٢٥)

Culler, Saussure. P 83

(٢٦) بشر (كمال) علم اللغة العام (الاصوات) ٤٦ ، ٥١

Crystal, Linguistics. P 175

(٢٧)

Culler, Saussure. P.P 82-83

(٢٨) مختار (أحمد) دراسة الصوت اللغوى ص ١٦٩

(٢٩)

Sampson, Schools of Linguistics. P 54

(٣٠ـ ٣٣) قنيبى ص ١٥٨ـ ١٥٩) وعزيز ص ١٤٣ـ ١٤٤ وغالى ص ١٥٠ـ ١٥١

Saussure, Course. P.P 124-125

(٣٤)

Sampson, Schools of Linguistics. P 54

Ivic', Trends in Linguistics. P 203

(٣٥)

Chomsky, Current Issues in Linguistics Theory. P 23

(٣٦) عبد العزيز (محمد حسن) مدخل الى علم اللغة ص ٥٢ ، ٥٤

Crystal, Linguistics. P.P 103-104

(٣٧)

Sampson, Schools of Linguistics. P 50

(٣٨)

Sampson, Schools of Linguistics. P.P 54-55

(٣٩) بشر (كمال) كتاب محاضرات فى علم اللغة مجلة المجمع جـ ٢٩ ص ٢٤٢

Bolinger, Aspects of Language. P 509

(٤٠)

Culler, Saussure. P.P 85-86

(٤١) قاسم (سيزا) السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والابعاد ص ٢٣

(٤٢ ، ٤٣) قاسم (سيزا) السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والابعاد ص ٢٤ ، ٢٥

(٤٤) أولمان (ستيفن) دور الكلمة فى اللغة ص ٧٠ ، ٧٣

(٤٥ـ٤٦)

Culler, Saussure. P.P 85-86

(٤٧) Crystal, Linguistics. P 89

(٤٨) Dinneen An Introduction to general Linguistics. P.P 11-13

Gleason, An Introduction to descriptive Linguistics. P.P 132-133

(٤٩) Robins, General Linguistics. P.P 169-170

(٥٠) Palmer, Semantics. P 93

(٥١) Robins, General Linguistics. P.P 52-53

(٥٢) Ullmann, The principles of Semantics. P.P 27-28 وانظر فى هذا الموضوع :

بشر (د كمال) : دراسات فى علم المعنى. مجلة الازهر مجلد ٣٤ ص ٨٧ . ٩٤

(٥٣) Ullmann, The principles of Semantics. P 28

(٥٤) Ullmann, The principles of Semantics. P 28

(٥٥) Ullmann, The principles of Semantics. P 28-29

(٥٦) Ullmann, The principles of Semantics. P 30

(٥٧) Ullmann, The principles of Semantics. P 31

(٥٨) Ullmann, The principles of Semantics. P 34

(٥٩) المسدى (قاموس اللسانيات) ص ١١

(٦٠) Hartmann and Stork, Dictionary of Language and Linguistics. P VIII

(٦١) Halliday, Macintosh and Strevens, The Linguistics Sciences. P 8

وانظر فى استعمال المصطلحات المذكورة Fries, The Structure of English. P.P 65-141

(٦٢) Hartmann and Stork, Dic, P VIII

(٦٣) البكوش (الطيب) مفاتيح الألسنية ص ١٢ . ١٣

(٦٤) انظر الحمزاوى (رشاد) المصطلحات اللغوية الحديثة ص ٢٨١

المراجع العربية والمترجمة

- ابراهيم (زكريا)

مشكلة البنية مكتبة مصر ١٩٧٦

- ابو زيد (احمد)

- النصوص والاشارات : قراءة فى فكر رولان بارت. عالم الفكر، الكويت مجلد ١١ عدد ٢

- لعبة اللغة. عالم الفكر الكويت مجلد ١٦ عدد ٤

- أنيس (إبراهيم)

دلالة الالفاظ : الانجلو المصرية. ١٩٥٨

- أولمان (ستيفن)

دور الكلمة فى اللغة ترجمة كمال بشر مكتبة الشباب ١٩٨٧

- أيوب (عبد الرحمن)

اللغة والتطور القاهرة ط ١ ١٩٦٣

- باكلا (محمد حسن)

معجم مصطلحات علم اللغة الحديث. مكتبة لبنان ١٩٨٣

- بشر (كمال)

علم اللغة العام (الاصوات) دار المعارف مصر ١٩٧٥

كتاب محاضرات فى علم اللغة مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة جـ ٢٩

دراسات فى علم المعنى مجلة الازهر مجلد ٣٤ ص ٨٧ - ٩٤

- بنفنست (إميل)

سيميولوجيا اللغة ترجمة سيزا قاسم انظر (مدخل الى السيميوطيقا)

- تيماشيف (نيقولا)

نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ترجمة محمد عودة وآخرين، دار المعارف مصر ١٩٧٤

- جسبرسن (أوتو)

اللغة بين الفرد والمجتمع . ترجمة عبد الرحمن ايوب النجلو المصرية ١٩٥٤

- حجازى (محمود فهمى)

علم اللغة العربية . وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٣

اصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الإثنولوجية، عالم الفكر الكويت مجلد ٣ عدد١

- حسان (تمام)

مناهج البحث . الانجلو المصرية ١٩٥٤

- الحمزاوى (محمد رشاد)

المصطلحات اللغوية الحديثة . الدار التونسية للنشر ١٩٨٧

- الخولى (محمد على)

معجم علم اللغة النظرى، مكتبة لبنان ١٩٨٢

- دوركايم (إميل)

قواعد المنهج فى علم الاجتماع ترجمة محمود قاسم، دار النهضة العربية ١٩٧٢

- الراجى (عبده)

فقة اللغة فى الكتب العربية . دار النهضة العربية ١٩٧٢

- رشيد (أمينة)

السيميوطيقا فى الوعى المعرفى المعاصر، انظر : سيزا قاسم : مدخل الى السيميوطيقا

- زكريا (ميشال)

الألسنية (علم اللغة الحديث) المؤسسة الجامعية، بيروت جـ١ ١٩٦٣

- السعران (محمود)

اللغة والمجتمع، دار المعارف، الاسكندرية ١٩٦٣

علم اللغة ، دار المعارف مصر ١٩٦٢

- شانى (عبد الرسول)

معجم علوم اللغة لسان العربى مجلد ١٥ طـ٢ ١٩٧٧

- شاهين (عبد الصبور)

فى علم اللغة العام، مكتبة دار العلوم بالقاهرة، طـ١

- عبد التواب (رمضان)

المدخل الى علم اللغة، الخانجى ١٩٨٣

- عبد العزيز (محمد حسن)

مدخل الى علم اللغة النمر للطباعة ١٩٨٣

- عياد (علية)
المصطلحات اللغوية والادبية، دار المريخ الرياض ١٩٨٤
- فريحة (انيس)
نحو عربية ميسرة، دار الثقافة بيروت ١٩٥٥
- قاسم (سيزا) و (ابو زيد) و (نصرحماد) اشراف
مدخل الى السيميوطيقا . دار الياس العصرية القاهرة ١٩٨٦
- قاسم (سيزا)
السيميوطيقا بعض المفاهيم والابعاد . انظر السابق
- (كانتينو جان)
دروس فى علم أصوات العربية تونس ١٩٦٦
- مختار عمر (أحمد)
دراسة الصوت اللغوى . عالم الكتب . مصر ١٩٧٦
- المسدى (عبد السلام)
قاموس اللسانيات . الدار العربية للكتاب . ١٩٨٤
- مونين (جورج)
تاريخ علم اللغة . ترجمة بدر الدين القاسم دمشق ١٩٧٢
مفاتيح الالسنية ترجمة الطيب البكوش تونس ١٩٨١
- الهاشمى (التهامى الراجحى)
معجم الدلائية، اللسان العربى مجلد ٢٤ . ٢٥
- هوكز (ترنس)
البنيوية وعلم الاشارات ترجمة مجيد الماشطة وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٨٦
- واطسن (جودج)
الفكر الادبى المعاصر ترجمة محمد مصطفى بدوى الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ١٩٨٠
- وافى (على عبد الواحد)
علم اللغة . المطبعة السلفية ١٩٤١

المراجع الأجنبية

-Bolinger, D, Aspects of Language, Harcourt Brace jovaovic Inco, 1975.

-Chomsky, N, Current Issues in Linguistics Theory, Mouton, THE HAGUE, PARIS, 1969.

-Crystals, D, Linguistics. Penguin Book, 1968.

-Culler, J, Saussure, Fontanal Collins, 1978.

-Dinneen, F, An Introduction to general Linguistics, Holt, Winston and Renehart, Newyork, 1971.

-Cleason, H, A, An Introduction to descriptive Linguistics, Holt, Rinehart and Winston, Newyork, 1961.

-Ivic, Milka, Trends in Linguistics, Translated by Muriel Happel, Mouton, 1970.

-Palmer, F, R, Semantics, Combridge University Press, 1967.

-Robins, R.H.

-A short history of Linguistics, London, 1967.

-Genaral Linguistics, An Introductory Survey, Longman, London, Third-

Edition, 1980.

-Sampon, G, School of Linguistics, Hutchinson, 1980.

-De Saussure, F, Course in General Linguistics, Translated from French by Wade Baskin, Fontal Collins, 1974.

-Ullmann, Stephen, The principles of semantics, Basil, Blackwell, 1967.

الفهـــرس

المقـــــــــدمة ٣

القسم الأول

نظرية سوسير اللغوية ٧

هوامش القسم الأول ٨٥

القسم الثانى

نظرية سوسير بين النظريات السابقة ٩١

هوامش القسم الثانى ١١٧

القسم الثالث

سوسير مؤسس علم اللغة الحديث ١١٩

هوامش القسم الثالث ١٧٣

المراجـــــــع ١٧٦

رقم الايداع	١٩٣٢ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى	٦-٠٢٨٣-٠١٠-٩٧٧